62

الحلق الفلسطيني

29-03-1995
Library
BIRZEIT UNIVERSITY

العدد ٧٠٠ شباط (فبراير) ١٩٧٩

زخرفة فلسطينية لثوب فلسطيني من بئر السبع الامام والجنب والخلف ١٩٠٠ - ١٩٢٠

قسم الثقافة الفنية

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب الفلسطيني

العدد ٧٠ ـ شباط «فبراير» ١٩٧٩

تصدر مرة كل شهرين
عن
الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

رئيس التحرير
ناجي علوش

نائب رئيس التحرير
رشاد ابو شاور

امانة التحرير
حنا مقبل
يحي يخلف
هاني مندس
جميل هلال
عبد القادر ياسين

المشرف الفني
حسيب الجاسم

المستشارون
عبد الكريم الكرمي
د ٠ احسان عباس
محمود درويش
معين بسيسو
بسام ابو شريف
ناصيف عواد
علي اسحق
خالد ابو خالد
د ٠ سعيد حمود
معن بشور

المواد التي تنشر تعبر عن
وجهات نظر اصحابها

الاشتراكات السنوية

٣٠ ل ٠ ل ٠ في لبنان وسوريا
٦٠ ل ٠ ل ٠ في بقية الاقطار العربية
١٠٠ ل ٠ ل ٠ في اقطار العالم
١٥٠ ل ٠ ل ٠ للمؤسسات

Digitized by Birzeit University Library

٤ الافتتاحية (درس الوحدة الوطنية في ايران) ..... عبد القادر ياسين

مقالات ودراسات سياسية

٨ على هامش الحوار مع النظام الاردني ..... جميل هلال

١٨ المرأة العربية والفلسطينية ـ الواقع والعقبات ..... مي صايغ

٣٨ التحول الطبقي في ظل الانتداب ..... طلال اسعد
ترجمة : خزامى نصار

٥٦ علاقة الدولة بالجنوب اللبناني ..... فرحان صالح

٧٥ القومية العربية وقضية فلسطين ..... عبد القادر ياسين

٨٨ بريطانيا وتهويد فلسطين في اطروحات محمد على الطاهر ..... يوسف حداد

مقالات ودراسات ادبية وفنية

١١٢ أبو سلمى وتجدد النار ..... نزيه ابو نضال

١٢٣ الأغنية السياسية اللبنانية الى أين ؟؟ ..... جهاد أ. صالح

١٣٤ ألف عام وعام من المسرح العربي ..... تاتيانا بوتسيفا
ترجمة : عدنان مدانات

١٤٣ استفتاء حول المعرض العالمي من أجل فلسطين ..... ناصر السومي

تقريران من الوطن المحتل :

١٥٠ «الحصاد» مبادرة جديدة في اطار النشاطات المشبوهة في الضفة الغربية ..... وليد الجعفري

١٥٤ حينما أخطأوا بالاحتفال باليوبيل الفضي للغد ..... ع. ق. ي.

Digitized by Birzeit University Library

١٥٦ اسماعيل شموط ن٠ س٠

شعر

١٦٢ قصائد ..... خالد علي مصطفى

١٧٦ جبينك بوابتي للعبور ..... صالح هواري

١٨٣ مواسم الهجرة ..... محمد صبري كتمتو

١٩١ شهادة على زمن الردة ..... عبد الرحمن بسيسو

قصص ومسرحيات

١٩٦ الجريمة ..... ياسين رفاعية

١٩٩ رسالة حب ..... وائل السواح

٢٠٨ حين يغدو النهر مطيرا ..... فايز محمود

كتب

٢١٦ صراع الاسلام مع البترول ..... عبد الله خالد

٢٢٢ البحث عن وليد مسعود ..... فاروق وادي

٢٢٩ الارهاب ..... طلعت موسى

٢٣٤ حزب شيوعي ظهره الى الحائط ..... ميشيل النمري

تقارير وبيانات

Digitized by Birzeit University Library

كلمة الكاتب

درس الوحدة الوطنية من ايران

عجز « السافاك » عن تأخير موعد خروج الشاه من بلاده ، مطرودا ذليلا ·

وغدت كومة من حديد تلك الترسانة الضخمة التي كدسها الشاه في ايران ، فلم ترهب أحدا ·

حرارة الكرسي ادارت رأس الشاه ، وأمدته بأحساس وهمي بالقوة · فبطش ، وأنقض على القوى الوطنية والتقدمية الإيرانية، وعمل فيها تشريدا ، وسجنا ، وتقتيلا · فكانت هذه الانتفاضة الوطنية الاسطورية ·

بقي أن تستوعب القوى الوطنية والتقدمية الايرانية « درس مصدق » · حين أدار مصدق وبعض حلفائه الطبيعيين ظهورهم للوحدة الوطنية ، اذ توهم مصدق بأن عدم التعامل مع القوى التقدمية الأيرانية سيرضي الولايات المتحدة الأمريكية ، فتكف « شرها » عنه · لكن الامبريالية الامريكية لم تكتف بهذا القدر من التنازلات والتراجعات الجوهرية ، فمطلبها كان ، دائما ، حكم

Digitized by Birzeit University Library

عميل · صحيح انها لا تحتمل وجود القوى التقدمية في الحكم ، الا انها ضد وجود قوى وطنية في سدة الحكم ، أيضا · ومن خلال الصدع الذي أوجده مصدق في الجدار الوطني تسللت الامبريالية الامريكية وأنجحت انقلابها العسكري ، الذي نظم مذبحة شرسة ضد القوى التقدمية ، وأطاح بالحكم الوطني ، وأعاد الشاه الى عرشه ، من جديد ·

ومن ثغرات مرادفة اسقطت الامبريالية انظمة وطنية عديدة ، واجهضت ثورات وطنية ، وانجحت ثورات مضادة في اكثر من قطر·

ومن ثغرة لا تختلف كثيرا ، تسللت يد الغدر واغتالت الشهيد علي حسن سلامه ورفاقه ·

ولأكثر من ربع قرن عاش الشعب الايراني تحت حكم البطش والارهاب الاسود ، وكان ثمن تجاهل ضرورة الجبهة الوطنية غاليا وقاسيا ، في آن · وقدم المئات من ابسل ابناء ايران ارواحهم في المواجهة مع نظام الشاه · وهي تضحيات كان يمكن أجبهة وطنية حقيقية ان تجنب الشعب الايراني تقديمها ، وان تديم حكم مصدق ·

أن الجبهة الوطنية هي أمضى سلاح في مواجهة الامبريالية، والصهيونية ، والرجعية ، وغيابها يغري الامبريالية على حياكة المزيد من المؤامرات للاجهاز على كل ما هو وطني وشريف ··· وملاينة الامبريالية ومهاودتها لا تجديان ·

وربما كان هذا هو أهم درس لنا من انتفاضة الشعب الايراني الراهنة ·

عبد القادر ياسين

Digitized by Birzeit University Library

مقالات ودراسات سياسية

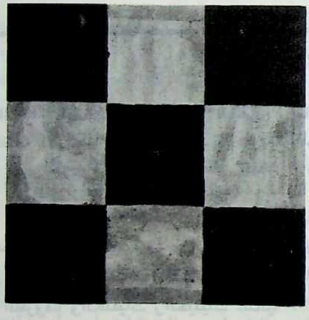

Digitized by Birzeit University Library

على هامش الحوار مع النظام الاردني:

ليتوقّف الحوار ولتحدّد الثورة الاهداف والشروط

جميل هلال

موضوع الحوار الفلسطيني ـ الاردني الجاري ، اثار جدلا وحركة سياسية واسعين في مختلف الاوساط السياسية والجماهيرية الفلسطينية · كما ان النقاش الواسع الذي جرى في **المجلس الوطني** الاخير ، والقرارات التي اتخذت بهذا شان ، لن يكونا خاتمة الموضوع ·

ولعل الاسباب التي جعلت ، ولا تزال ، هذا الموضوع يأخذ هذه الاهمية ، وان يطرح على الساحة الفلسطينية كأحد المواضيع السياسية الهامة والحساسة جدا تعود الى الظروف والخلفيات والحيثيات التالية :

١) لا تزال العلاقة بين الثورة الفلسطينية والنظام الاردني تعتبر ، ومنذ مجازر ايلول ١٩٧٠ ، قضية بالغة الدقة والحساسية ، رغم انها لم تنعدم طوال هذه الفترة ·

٢) طرح موضوع المباحثات الرسمية بين **منظمة التحرير الفلسطينية** والنظام الاردني بعد **مؤتمر كمب ديفيد** وما نتج عنه من اتفاقيات بين ممثلي الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، ولما تشكله هذه الاتفاقات من خطورة بالغة على مسار حركة التحرر العربية وقضية الشعب الفلسطيني ·

Digitized by Birzeit University Library

٣) جاءت المباحثات في ظل موقف عربي ، تبلور في **قمة بغداد** يطالب بتحسين وتطوير العلاقات الاردنية ـ الفلسطينية ، وفي ظل تنامي الدعوة الى تأمين التنسيق الواسع على الجبهة الشرقية والشمالية ـ بعد خروج النظام المصري الساداتي ، كليا ، من حلبة الصراع ، وفي ظل الاعداد الجاري للحلقة الثانية من المخطط الامبريالي ـ الصهيوني ـ العربي الرجعي ، والمتعلقة بالقضية الفلسطينية ، بشكل محدد ٠

٤) بوشرت هذه المباحثات بعد اعلان النظام الاردني ، وخلال انعقاد **قمة بغداد** بشكل خاص ، عن استعداده لفتح صفحة جديدة من العلاقات مع **منظمةالتحرير** ، وعن استعداده للالتزام بقرارات **قمة الرباط وبالتمثيل** الفلسطيني الاوحد لمنظمة التحرير وبالحقوق الوطنية الفلسطينية ٠

٥) بدأ الحوار بين النظام الاردني **ومنظمة التحرير الفلسطينية قبل** ان يتبلور وبشكل واضح رأي جماعي حول القواعد والشروط التفصيلية التي يجب ان يتم على اساسها الحوار ٠ كما جاء الحوار والعلاقات الداخلية في منظمة التحرير والثورة يشوبها درجة عالية من التوتر ، في ظل جنوح بعض الاوساط القيادية الى الاستفراد بالقرار السياسي ، وفرض الهيمنة بأساليب بعيدة عن الديمقراطية وفي ظل مناخ يغيب الحوار الديمقراطي الواسع كأسلوب لحل الخلافات وتوليد القناعات السياسية والاحتكام الى الاغلبية ورأي الجماهير الفلسطينية وصولا للحلول السليمة ٠

الخلاف السياسي حول الحوار الجاري مع الاردن يستند الى تحاليل وتقديرات متباينة لهذه الظروف ، والى تباين في رؤية المهمات التي تفرضها هذه الاوضاع المستجدة على الثورة الفلسطينية ، كما يستند الى وجود نهج معين (سياسي بالاساس) يسعى لان يفرض نفسه على الساحة الفلسطينية ٠

البعض يبرر الحوار اللامشروط مع النظام الاردني بمقولة **ان التسوية الامبريالية في المنطقة قد انتهت** ، واستنفذت نفسها وانها اصبحت في طريق مسدود ، وبالتالي ، فلم تعد من قوى في المنطقة تراهن على التسوية الامبريالية او على استعداد للانخراط فيها ، وهذا ينطبق على النظام الاردني بشكل خاص مما يستدعي تحسين وتطوير علاقات **منظمة التحرير** به ، انطلاقا من المصالح المشتركة التي تجمع بين النظام والثورة الفلسطينية في هذه المرحلة ٠

Digitized by Birzeit University Library

ان التأخير الحاصل (والمؤقت بالتأكيد) في ابرام اتفاق منفرد بين العدو الاسرائيلي ونظام السادات ليس دالـــة على انتهاء المحـــاولات الامبريالية ـ الصهيونية ـ الرجعية العربية لفرض تسوية استسلامية على المنطقة · فالجهود الاميركية ـ ومعها جهود حلفائها المحليين من صهاينة ورجعيين عرب ـ مستمرة، وبوتيرة متصاعدة ، من اجل تنفيذ ، وبشكل تدريجي ، اتفاقيات **كمب ديفيـــد** الاستسلامية ، في حلقاتها المتتابعة · والجهود تتركز ، الآن ، على الاعـــداد للحلقة الثانية من المخطط ، والتي تلي ابرام الصلح المنفرد المصري ـ الاسرائيلي هذه **الحلقة تستهدف ادخال نظام الاردن وممثلون « فلسطينيون » في اطـــار التسوية الامبريالية** ، التي حددت معالمها الرئيسية اتفاقات **كمب ديفيد** ·

ولا شك انه من الضروري التأكيد هنا بأن ما يحكم تأخير ابـرام الصلـح المنفرد بين دولة العدو الاسرائيلي وبين النظام المصري المستسلم هو تفاصيـل جزئية ، واعتبارات تكتيكية ثانويـــة **وليس خلافات حول الاهداف** وعلى حول مسار التسوية الامبريالية · فهناك **اتفاق كامل** بين الامبريالية الامريكية والعدو الاسرائيلي والرجعية العربية على ضرورة تعزيز وتطوير **الحلف** بين الرجعيـة العربية و « اسرائيل » لحماية المصالح الامبريالية (والامريكية بشكل خاص)، وضرب الانظمة العربية الوطنية وحركة التحرر العربي والانظمة التقدميـة في افريقيا · كما ان هناك اتفاق بين هذه الاطراف على ضرب وتصفية الحقـوق الوطنية الفلسطينية وتجزئة التمثيـل الفلسطيني وتبديـد الهويـة الوطنيـة الفلسطينية ·

كما ان من **يستشهد بأحداث ايران** والانتفاضة الشعبيـة الرائعـة التي اسقطت نظام الشاه الرجعي كدليل على انتهاء او توقف التسوية الامريكيـة ، ينطلق اساسا من فرضيات خاطئـــة · فأحداث ايران وسقوط النظام الرجعي هناك ، وفي افغانستان من قبلها وتجذير التحولات الديمقراطية الثورية في اليمن الجنوبي ، **لن** يدفع امريكا باتجاه التراجع على تطوير الحلف « الاسرائيلي »ـ العربي الرجعي · بل العكس من ذلك ، فانه سيدفع الامبريالية الامريكيـة الى التمسك الاشد بالدولة الصهيونية والدعم الاوســع لها باعتبارها القاعـدة الاساسية والوكيل الاول لها في المنطقـــة والى الاسراع في **توحيد جهـــود** « اسرائيل » والرجعيات العربية ضد حركة التحرر في المنطقة · ولن يقود كما يتوقع ـ او يتوهم البعض ـ باتجاه ابداء الامبريالية استعدادا للتسليم بحقـوق الشعب الفلسطيني والمطالب القوميـــة التقدميـــة العربية ، اما الاعتماد على ضغوطات الدول العربية الرجعية (**والسعودية بشكل خاص**) فينطلق من تحليل

Digitized by Birzeit University Library

خاطىء وخطير لدور هذه الانظمة ولمصالحها الحقيقية ، وتقع في وهم الاعتقاد بحياد الامبرياليـــة الاميركية او بالقـدرة على تحييدها (نظريـة الرجعيـــة العربية الثابتة) ٠

هناك من يبرر الحوار اللامشروط مع النظـــام الاردني ، بحجة **الضغوط العربية على منظمة التحرير** للتفـــاهم مـع الاردن ، وهنا لا بـد من تمييز بين الاهداف العربية الرجعيـة من الحوار ، وبين الاهـداف العربية الوطنيـة من هـذا الحوار ٠

فما تستهدفه الرجعية العربيـــة ، من وراء الدعوة للحوار مع النظـــام الاردني ، هو **تحسين شروط الانضواء الاردني** في اطار التسويـــة الاميركية ، وذلك **عبر جر منظمة التحرير لتقديم تنـــازلات** على صعيد وحدانية التمثيـــل الفلسطيني وعبر **تجـزئة وحدة الشعب الفلسطيني** ووحـدة قضيته الـوطنية ٠ هذا الهدف يصب في مجرى التسوية الامبريالية ـ الصهيونية ـ الرجعيـــة العربية وينسجم معها ٠ فالموقف العربي الرجعي يدعو للحوار ، ويشجعـه ، وصولا الى حصول الاردن على دور **الشريك** السياسي **لمنظمة التحرير** ، ليفتح ، بهذا ، الابواب امام **الانخراط المشترك** في التسوية الاميركية ٠

وهنا لا بـــد من استذكار **بيان الاسكندرية** ودعوة **السادات** الى صيـــغ اقتسام التمثيل الفلسطيني ، وادخال النظـــام الاردني شريكا في تقرير مصير المناطق المحتلة ، وفي تقرير مستقبل مجمل القضية الفلسطينية ٠ هذا ، ولا يزال الهدف من وراء الضغوطات الرجعية على **منظمة التحرير** ، للاندفاع في حوارها مع النظام الاردني ٠

اما الاهداف الوطنية العربية من الدعوى الى هـــذا الحوار ، فيستهدف تصليب الجبهة الشرقية وتدعيم صمود الاراضي الفلسطينية المحتلـــة في وجه مشروع « الحكم الذاتي » التصفوي ، الموقف الوطني يستهدف **تقوية المقاومـــة الفلسطينية على المستويين السياسي والعسكري** ، من اجل تضييق الفرص على النظام الاردني للالتحاق بركب التسوية الاميركية ٠

ان الاستجابة للضغوطات العربية للحوار اللامشروط مع النظام الاردني **هي** استجابة لضغوطات **الرجعية العربية** ليس الا ، ولا تأخذ في الحسبان اهداف الدول والقوى الوطنية من الدعوة الى هذا الحوار ، والمنطلقـــة من ضرورة

Digitized by Birzeit University Library

التمسك بحقوق الشعب الفلسطيني وبحق **منظمة التحرير** في تمثيله . كما ان مواجهة الضغوطات الرجعية لا يتم عبر الاستجابة لها ، بل عبر تكتيل وجمهرة موقف فلسطيني موحد ، رافض لاية تنازلات تمس حقوقه ومصالحه . من جهة ، وعبر تطوير وتصليب علاقات الثورة **ومنظمة التحرير** بالدول والقوى العربية الوطنية والتقدمية ومختلف القوى الاشتراكية والديمقراطية في العالم .

وهناك من يبرر استمرار الحوار اللامشروط مع الاردن ، انطلاقا من **الحرص على اجتذاب النظام الاردني بعيدا عن دائرة التسوية الاميركية** ، وحرصا على تصليب موقف النظام تجاه نتائج **كمب ديفيد** الخيانية ، انطلاقا من كون الحلقة المركزية في الصراع ، الان ، هي ضد اتفاقات **كمب ديفيد** ، ومن ضرورة توسيع اطار القوى المعارضة والمناضلة ضد هذه الاتفاقات الخيانية .

وقد انطلق هذا البعض في تبرير موقفه هذا من الموقف « الايجابي » الذي اعلنه النظام في مؤتمر **قمة بغداد** ، عبر اعلان استعداده لفتح صفحة جديدة مع **منظمة التحرير الفلسطينية** ، وعبر اعلانه عن التزامه بقرارات الرباط ولكون **منظمة التحرير** ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

ولا بد هنا من التذكير من ان هذه الالتزامات اللفظية (والتي اعتبرها البعض في المقاومة الفلسطينية دليل « انفراج » حقيقي في العلاقات الاردنية ـ الفلسطينية) تأتي في سياق يتعاكس عمليا مع مجرى السياسية الاردنية الرسمية . هذه الساسية التي قامت فعلا ، ومنذ فترة غير قصيرة ، على المحاولات المتواصلة لاعادة الحاق الضفة الغربية بالنظام الاردني وعلى محاولات ، لا تزال مستمرة ، تعمل على تنشيط الاتصالات مع رجالات النظام وازلامه في الضفة وعلى استخدام اموال « الدعم والصمود » كوسائل ابتزاز وضغط ضد القوى الوطنية والتقدمية الفلسطينية في المناطق المحتلة . بتعبير آخر المشكلة مع النظام الاردني لا تكمن في الاعلان عن التزاماته اللفظية تجاه منظمة التحرير وحقوق الشعب الفلسطيني . فقد التزم النظام بها **لفظيا** منذ قرارات مؤتمر الرباط عام ١٩٧٤ . المشكلة كانت ، ولا تزال ، في **سياسته العملية** واجراءته الملموسة تجاه دعم نضال شعبنا ضد الاحتلال ومن اجل انجاز حقوقه الوطنية وفي الاعتراف العملي بمنظمة التحرير الفلسطينية عبر اتاحة المجال امام فصائل المقاومة في العمل السياسي والعسكري والتعبوي بين صفوف شعبنا الفلسطيني في الاردن من اجل تطوير قدرات الثورة على النضال ضد العدو الصهيوني ، المشكلة بالافعال وليست بالاقوال .

Digitized by Birzeit University Library

هذا التوضيح ضروري حتى لا يستمر البعض في الاعتقاد ان الحوار اللامشروط الجاري حاليا مع النظام هو المطلوب لتصليب موقف الاردن تجاه نتائج **كمب ديفيد** · فالنظام الاردني **لا يرفض اسس اتفاقيات كمب ديفيد** ، بمقدار ما يسعى لتأمين ضمانات لتحويل « الحكم الذاتي » بعد الفترة الانتقالية (الخمس سنوات) الى صيغة تمكنه من استعادة دور اساسي له في الاشراف على المناطق المحتلة · ومن هذا المنطلق يسعى النظام لتحسين **شروطه التفاوضية** تجاه «اتفاقية اطار السلام» كمب ديفيد ، متسلحا بقرارات **قمة بغداد** ، والدعم المالي والسياسي الواسعين له · كما يسعى ، وللغرض ذاته ، الى تجميل صورته أمام الجماهير الفلسطينية عبر فتح الحوار مع **منظمة التحرير الفلسطينية** ، وانتزاع التنازلات منها · فالنظام لا يرفض اتفاقيات **كمب ديفيد** انما **يتحفظ ، فقط ، على المشاركة الفورية** في المفاوضات الجارية مع ابداء استعداده للقبول بمشروع « الحكم الذاتي » التصفوي كمرحلة انتقالية ، على أن يؤخر مشاركته في تنفيذ المشروع الى وقت لاحق ··· أي الى وقت يكون فيه قد حسن من شروطه التفاوضية وبعد ان يكون قد تجاوز الرفض الفلسطيني الحازم والشامل لاتفاقيات **كمب ديفيد** ، والى حين التوصل الى اتفاق مع **منظمة التحرير الفلسطينية** تعزز مكانته وتفتح امامه الابواب لتحسين مواقعه في المناطق المحتلة وتزيين صورته عربيا ، وعلى أمل انتزاع تزكية من منظمة التحرير للتحرك باتجاه الاقتراب من اطار اتفاقات كمب ديفيد والمشاركة في المباحثات على اساسه ·

ان الخشية ، كل الخشية ، من أن تتوهم بعض الاوساط الفلسطينية في **منظمة التحرير** أن الوصول الى **صيغة مشاركة أردنية ـ فلسطينية** قد يمكنها من الحصول على بعض « المكاسب » ضمن اطار مشروع التسوية الاميركي انطلاقا من « تطمينات » من الرجعية العربية أو من تحليلات خاطئة لسمات المرحلة الراهنة ومن قراءة خاطئة لأهداف النظام الاردني · ان اية اوهام من هذا القبيل لن تؤدي الا الى تقديم تنازلات فادحة ، تضحي بمكاسب كبيرة **لمنظمة التحرير** والشعب الفلسطيني ، مقابل تصعيد شروط الامبريالية و « اسرائيل » باتجاه الالحاق الكامل للمناطق المحتلة ·

ان أهداف النظام الاردني (ومن ورائه الرجعية العربية) من وراء الحوار مع المقاومة الفلسطينية واضحة من موقفه تجاه اتفاقيات **كمب ديفيد** ، ومن تفاصيل الاسئلة التي وجهها النظام للادارة الاميركية ، وأجوبة هذه عليها · وهي اشد وضوحًا اذ ما تم التدقيق في مشروع الاتفاقيتين اللذين عاد بهما الوفد الاول والثاني لمنظمة التحرير · فهي كلا المشروعين المقترحين ـ كما سنبين ـ **لا يمكن القبول بالرأي القائل بأن الحوار الجاري وما نتج عنه ، حتى الآن ، يشكل محاولة جدية لاجتذاب النظام بعيدا عن دائرة اتفاقات كمب ديفيد ، او ان في هذا الحوار ما يشكل مصدر قوة اضافية للمقاومة الفلسطينية او مكاسب ملموسة لها** · بل العكس هو الأقرب الى الواقع ·

Digitized by Birzeit University Library

ان وعي اهداف النظام الاردني والاهداف الرجعية وطبيعة اهداف المخطط الامبريالي ، بحلقاته المختلفة والمتصلة ، ليس كافيا بالتأكيد لاحباط هذه الاهداف · فأحباط اهداف النظام الاردني – والمنسجمة مع الاهداف الاميركية والرجعية العربية – **لا يتم عبر التمني** على النظام بعدم المشاركة بمباحثات أو**اتفاقيات كمب ديفيد** – كما يفعل البعض في المقاومة – **ولا عبر الابتهاج بقبوله اللفظي بمنظمة التحرير** كممثل شرعي وحيد ، وبحق شعبنا في تقرير مصيره بنفسه ، ولا عبر الرفض المطلق للحوار عبر التأكيد على طبيعة النظام الطبقية وارتباطة بالامبريالية العالمية أو بالتذكير بممارساته العدوانية والقمعية تجاه شعبنا والشعب الأردني ، فالتمني في العمل السياسي (دون المجالات الأخرى) لا يسمن من جوع كما لا تتم مواجهة واقع قائم (كالحوار الجاري) عبر رفض الحوار من منطلقات مبدئية او ايديولوجية بعيدا عن تحديد اتجاه الحركة السياسية المطلوبه وبكافة اشكالها لمواجهته كواقع ، بهدف التأثير فيه وتغيير مجراه لصالح حركة الثورة

المطلوب هو تحديد الشروط والاسس التي تجعل من عملية الحوار ، عملية تخدم اهداف الثورة سواء كانت هذه تتجسد في وضع الصعوبات امام اندفاع النظام الاردني للالتحاق بالمباحثات ضمن اطار كمب ديفيد ، أم كانت (والهدفان مترابطان) انتزاع بعض المكاسب من النظام – مستفيدين من ضغوط عربية وطنية وضغوطات الحركة الوطنية الاردنية – والرفض الحازم لشعبنا لمؤامرة كمب ديفيد بما يخدم تصعيد النضال الوطني الفلسطيني ضد الاحتلال ·

المشكلة ، بالاساس ، تكمن في ادارة عملية الحوار **دون تحديد الاهداف من هذا الحوار ودون تحديد الشروط العملية الملموسة التي** تمكن من انجاز هذه الاهداف · فالحوار ليس هدفا بحد ذاته ، بل وسيلة (مترافقة مع وسائل اخرى) من أجل تحقيق أهداف معينة · وهذا لن يتم دون تحقيق الوسائل والاجراءات الموصلة بهذه ، ومن هنا جاءت مشاريع الاتفاقات التي عاد بها الوفدان تخدم اهداف النظام الاردني · ولتقدم تنازلات واسعة على الصعيد الفلسطيني بما يجعلها تشكل – اذا ما أقرت – خطورة كبيرة على صعيد القضية الوطنية الفلسطينية وعلى المكانة التمثيلية **لمنظمة التحرير الفلسطينية**، وسيكون لها اصداء سلبية واضحة على صعيد الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير الفلسطينية ·

ان النتائج التي عاد بها الوفد الفلسطيني الاول بعد مباحثاته مع النظام الاردني – ما يسمى بمشروع « **اطار العمل المشترك** » – لا يمكن اعتبارها مكسبا لصالح نضالنا الوطني ضد الاحتلال وضد مؤامرة**كمب ديفيد** · بل أكثر من ذلك فان مشروع الاتفاق هذا ينحدر الى تقديم التنازلات عن حقوق لا يجوز التنازل بخصوصها فمشروع الاتفاق يأتي :

Digitized by Birzeit University Library

١ ـ نقيضا فعليا لمضمون قرارات **قمتي الرباط وبغداد** ، اذ **يتنكر مشروع الاتفاق لحق منظمة التحرير الفلسطينية في تمثيل الشعب الفلسطيني في كافة اماكن تواجده** ، ويستثني نحو ثلث شعبنا من تمثيل **منظمة التحرير** له · فالبند الرابع من « المبادىء العامة » الواردة في مشروع الاتفاق تؤكد على ان « أي نشاط سياسي في المملكة يخضع للقوانين والمؤسسات الاردنية » · ان المضمون العملي لهذا هو حرمان **منظمة التحرير** من حق التمثيل السياسي لشعبنا الفلسطيني الموجود في شرقي الاردن ·

٢ ـ ليقدم اعترافا للنظام الاردني باعتباره شريكا **لمنظمة التحرير**، في تقرير شؤون المناطق المحتلة ، عبر تسليمه بشرعية تدخل النظام في الشؤون الادارية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المناطق · وواضح ان الهدف من هذا هو الوصول الى انتزاع الاعتراف بحق **التدخل السياسي** والمشاركة في **التمثيل السياسي** للمناطق المحتلة مع **منظمة التحرير الفلسطينية** ·

ومن هذا المنطلق يجب ان نفهم ما يتضمنه المشروع من دعوة « للتشاور المباشر والسريع (بين المنظمة والنظام) بهدف تحديد موقف مشترك حول المعلومات والعروض السياسية المتصلة بالصراع العربي ـ الاسرائيلي وقضية فلسطين » ، ومن التزام « بالتشاور المسبق لتنسيق المواقف وتكامل التحرك في مجال النشاط السياسي في الساحات العربية والدولية » · ان هذا كله يعني ، عمليا اشراك النظام الاردني في صياغة الحل للقضية الفلسطينية ويشكل ، في الوقت ذاته ، اعتراف من قبل **منظمة التحرير** بدور للنظام الاردني في تقرير مصير الشعب الفلسطيني · كما انه يشكل الزاما بتحديد موقف مشترك مع الاردن من الحلول السياسية المطروحة لقضية شعبنا ·

٣ ـ ليخلو من اية اشارة الى حق الثورة ـ المعترف به في **قمتي الرباط وبغداد ـ في حالة النشاط العسكري والسياسي والتعبوي في الاردن** · **فمشروع** الاتفاق عبر تسليمه باخضاع اي نشاط سياسي للقوانين والمؤسسات الحكومية الاردنية يفرض على **منظمة التحرير** التخلي عن حقها في ممارسة النشاط السياسي الخاص بصفتها الممثل الشرعي الوحيد لجماهيرنا الفلسطينية في شرقي الاردن · كما يشكل مشروع الاتفاق قبولا بتبرير موقف السلطة الاردنية الرافض حتى لادنى أشكال النشاط المسلح للمقاومة الفلسطينية انطلاقا من الحدود مع المناطق المحتلة · اذ ينص المشروع على « تجنيب ما من شأنه ان يعطي العدو الصهيوني اي مبرر لتنفيذ مخططاته ضد الاردن » · وهذا هو التبرير التي تنطلق منه عموم القوى الرجعية لمنع شعبنا من ممارسة حقه في الكفاح المسلح ·

٤ ـ ليعطي الحكومة الاردنية المبررات **للتدخل في الشؤون الداخلية لمنظمة التحرير** وفي ممارسة الضغوطات عليها باتجاهات رجعية بحجة « الحرص على

Digitized by Birzeit University Library

ابتعاد المنظمة عن اية تأثيرات من شأنها الانتقاص من استقلاليتها . ان هذا الحرص المزعوم على استقلالية ارادة الثورة ليس سوى ستارا لممارسة الضغوطات على **منظمة التحرير** لفك تحالفاتها مع جبهة التصدي والصمود القومية من جهة ، وفك تحالفاتها مع القوى والبلدان المؤيدة والمساندة لحقوق شعبنا ونضاله ضد الاحتلال الصهيوني ومؤامرة **كمب ديفيد** من جهة اخرى .

ويتضح هذا اكثر من مطالبة مشروع القرار بالتعاون الاعلامي مع النظام الاردني في مجال «تحييد أصدقاء اسرائيل وكسب اصدقاء جدد للقضية العادلة» . فأصدقاء « اسرائيل » معروفون . ونظرية تحييد الامبريالية الاميركية هي النظرية التي برر بها السادات استسلامه وخيانته . وهي النظرية الداعية الى تقديم التنازلات للامبريالية الاميركية انطلاقا من اعتبارها طرفا محايدا في الصراع العربي ـ الاسرائيلي وليس طرفا رئيسيا وأساسيا فيه . وهي لا تستهدف سوى الاستدراج الى مستنقع المراهنة على السياسة الامبريالية ، وفض التحالفات مع المعسكر الاشتراكي والقوى الديمقراطية والثورية في العالم .

من كل هذا يتضح أن مشروع الاتفاق ، والحوار الجاري ، يعرض المكتسبات السياسية التي حققها نضال شعبنا البطولي وعلى امتداد السنوات الطويلة الماضية لخطر حقيقي . فالحوار ، بصيغته وأسسه القائمة ، يشكل مدخلا للقوى المعادية للالغاء المكاسب التي تحققت عبر قرارات مؤتمرات الجزائر والرباط وبغداد . وهو حوار يعمل على سلب **منظمة التحرير** حقها المطلق والثابت في تمثيل الشعب الفلسطيني في كافة اماكن تواجده ، ويفرط بحق الثورة في التواجد والنشاط السياسي والعسكري والتنظيمي في الساحة الاردنية . كما انه **يؤثر سلبا على الحركة الوطنية الاردنية** ويضعف نضالها من اجل التحرر الوطني والديمقراطية ، ويفتح شهية النظام الالحاقية تجاه المناطق المحتلة .

والنتائج التي أسفرت عنها المباحثات مع **الوفد الفلسطيني** الثاني ، الذي زار عمان لبحث وسائل دعم صمود الأرض المحتلة، تؤكد نوايا النظام الالحاقية، واندفاعه في محاولة تحسين شروطه التفاوضية تحت مظلة التسوية الامبريالية . فقد اصرت الحكومة الاردنية على ان يكون لمكتبها التنفيذي الخاص بشؤون المناطق المحتلةصلاحيات الاتصال بهذه المناطق واستقبال واستلام مشاريع البلديات والمؤسسات والجمعيات وسواها ، وأن يتولى هو صلاحيات الصرف المالي كما اصرت على ان تتولى أجهزة الحكومة الاردنية مسؤوليات العمل والاتصال اليومي مع المؤسسات الوطنية داخل الارض المحتلة وعن مراقبة نشاطاتها . ولم تبق لمنظمة التحرير الفلسطينية ومكتب الوطن المحتل التابع لها سوى **دور مشارك** ضمن لجنة تخطيط عليا تقوم بدراسة أولويات ووسائل انفاق اموال دعم المناطق المحتلة . كما ينص مشروع الاتفاق على احالة أي مشروع

Digitized by Birzeit University Library

يصل الى منظمة التحرير بشأن دعم صمود شعبنا في الارض المحتلة الى «**المكتب التنفيذي لشؤون المناطق المحتلة**» التابع للحكومة الاردنية ·

ويخول المنظمة حق التصرف في الانفاق المنفرد سوى فيما يخص قطاع غزة وحده · اما في الضفة الغربية ، فللحكومة الاردنية الدور المقرر في انفاق اموال الصمود · مرة اخرى يجزىء المشروع شعبنا ، ويعيد للنظام ما فقده من نفوذ في المناطق المحتلة ، نفوذ لن يستخدمه من اجل دعم صمود شعبنا ونضاله ، بل لتحسين شروطه التفاوضية ومواقعه الالحاقية وتزيين صورته العربية وانتزاع الشرعية في تمثيل شعبنا ·

ان النهج الذي يسير عليه الحوار الجاري ـ كما تكرس في نتائج مباحثات الوفد الاول والثاني ـ نهج تراجعي مساوم ، نهج سياسي بالاساس يراهن على اوهام تحسين الشروط الفلسطينية عبر ادخال النظام كطرف مشارك في تمثيل شعبنا والتصرف بقضيته · نهج لا يخدم سوى اهداف النظام ولا يحقق من الاهداف الفلسطينية التي يمكن ان تبرر الحوار شيئا · بل هو اخطر من هذا ، كونه يقدم التنازلات المجانية للنظام · نهج يخرب على **الوحدة الوطنية الفلسطينية** ، وهي احوج ما نريد ، عبر خروجه على البرنامج السياسي الذي وافقت عليه كافة القوى السياسية الفلسطينية واقره المجلس الوطني في دورته الرابعة عشرة ·

فليتوقف الحوار ···

ولنحدد وعلى اساس البرنامج السياسي لمنظمة التحرير اهداف الحوار وشروط ووسائل انجازها ·

ان انجاز اهدافنا السياسية لا يتم عبر التنازل عن مكتسبات وحقوق شعبنا وعبر المساومة على تحالفاته مع القوى الوطنية والتقدمية العربية ولا بحلفائه في المعسكر الاشتراكي والقوى الديمقراطية في العالم · فنضالنا ضد اتفاقيات كامب ديفيد ومشروع « الحكم الذاتي » التصفوي ، ومواجهتنا ضد الحلقة الثانية من مؤامرة التسوية الامبريالية يتطلب ، اول ما يتطلب ، تعزيز وتوطيد الوحدة الوطنية ، على اساس ترجمة البرنامج السياسي المقر ، وعبر تكريس العلاقات الديمقراطية والجبهوية داخل **منظمة التحرير** وعبر التوجه الجاد لمساندة نضال شعبنا في الداخل، بكافة الوسائل· وعبر مواجهة اعتداءات العدو الصهيوني على ارض الجنوب اللبناني ، بتوطيد التلاحم مع الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية · اما علاقاتنا وتحالفاتنا مع القوى الوطنية والتقدمية العربية ومع قوى الاشتراكية والتقدم في العالم ، فلا مساومة عليها ولا تردد في تعزيزها فهي عامل هام في معركتنا للحفاظ على استقلالية ارادتنا الوطنية ·

Digitized by Birzeit University Library

المرأة العربية والفلسطينية
الواقع والعقبات

محمد صايغ

لدى تعرضنا لقضية تحرير المرأة ، ومسألة انهاء التمييز ضد النساء ، يجب ان يكون مفهوما ، ومنذ البداية ، اننا نضع هذه القضية في مجراها الحقيقي ، مجرى تحقيق المساواة العامة في الحقوق بين البشر ، في كل اقطار العالم من اجل التقدم والديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية والتحرر الوطني .

ذلك اننا في الثورة الفلسطينية لا نناضل ، فقط ، من اجل انهاء التمييز ضد النساء الفلسطينيات ... وانما من اجل انهاء التمييز ضد النساء في العالم ... ان نضالنا من اجل مساواة المرأة في الثورة الفلسطينية، وضمن اطار المجتمع الفلسطيني والعربي ، ليس الا من اجل كسر القيود التي تحول دون مساهمة النساء الفلسطينيات والعربيات في تحرير الوطن وبناء المستقبل العربي ، على اسس العدالة والحرية والتقدم ... والمساهمة في دفع مسيرة قوى الثورة العالمية ..

فلقد اصبح واضحا انه لا يمكن السير بالعالم على طريق التقدم والتنمية والاستقلال الوطني دون المشاركة الواسعة للنساء على قدم المساواة مع الرجال في كافة المجالات ...

لقد فرض حجم القوى العاملة النسائية نفسه على المجتمعات البشرية ، وتشكل النساء اليوم ، ثلث القوى العاملة في العالم ، وتتزايد هذه الطاقات ويتسع حجمها ، مما يفترض ضرورة حل المشاكل المتعلقة بالتمييز ضد النساء ، وهذا الموضوع ، بالذات ، له الصلة الاوثق بنضال المضهدين في العالم ..

لقد جاء الاعلان العالمي لحقوق الانسان، عام ٤٨ ، اعترافا من قبل المنظمة الدولية بحقوق ملايين المضطهدين ، على طول الارض وعرضها ، ومن ضمن هؤلاء « المرأة » ...

فالنضال من اجل اضطهاد الانسان

Digitized by Birzeit University Library

للانسان ، سواء بسبب الدين او الجنس او اللون ، نضال مترابط · وقضية تحرير المرأة مرتبطة ، اساسا ، بالنضال ضد الامبريالية والعنصرية والصهيونية والرجعية · انها مرتبطة بالنضال من اجل تحرير الطبقات المستغلة واتاحة الفرص المتساوية امام الجميع ·

اوضح هذه المسألة ، لاضع القضية في اطارها الصحيح ، تاكيدا على الاهمية البالغة لمشاركة المرأة في عملية التطور الاجتماعي والاقتصادي والنضال السياسي، من اجل تمكين المرأة من اخذ مكانتها المتساوية في الحياة الاجتماعية واطلاق مبادراتها ، في العمل وفي الثورة ·

ومن اجل الاعتراف بالمساهمة الكبيرة التي قدمتها وتقدمها النساء من اجل تحرير الوطن واستعادة الحقوق المغتصبة·

ان توضيح هذه القضية مسألة بالغة الاهمية لوضع الحد الفاصل بين (١) مفهوم تحرير المرأة بمعناه الدعائي والاعلامي ، الذي يكرس دورها السلعي كمادة للاستغلال واداة لتميع النضال الحقيقي ، والذي يصب ، مباشرة ، في مفهوم تحرير المرأة بمعناه البرجوازي المرأة الانثى ··· المرأة الدمية ··· اداة اللهو والانجاب ، التي تخرج الى الشارع متحررة من اغلال الحريم المنزلي،لتتصدر واجهة الاعلانات عن البضائع المستهلكة ، وحيث يستغل المجتمع البرجوازي جسدها الانثوي ابشع استغلال ، تخرج الى الشارع ··· وتخرج الى العمل ، لكن دورها التاريخي ، كتابعة للرجل وكمواطنة مهضومة الحقوق ، يبقى كما هو وبين (٢) مفهوم تحرير المرأة كما يشاؤه المغرورين ، الذي يتبارون ، كل يوم ، في اصدار الفتاوي للرجعية ، التي تكرس وتقدس مفهوم استعباد المرأة ·· تحت ستار « قيم المجتمع » ؛ مستغلين هذه القيم ابشع استغلال ·

ان كلا المفهومين يكرسان عملية استغلال المرأة ، فنضال المرأة عندنا ينطلق من البؤس الرهيب الذي تتحمله المرأة في ظل النظم الاجتماعية الحالية ، وهي ضعيفة مهضومة الحقوق ، ربما يلعب الزيف المادي،لدى الطبقات الميسورة، دوره في اخفاء حقيقة الظلم الاجتماعي الذي تقاسي منه المرأة ، لكن هذا القناع المزيف ينكشف لدى مطالعة وضعها لدى الطبقات المسحوقة ··· ففي نفس الوقت الذي تعاني من الاضطهاد الاجتماعي داخل المنزل تعاني ، ايضا ، من سلطة صاحب العمل ، حيث انها مهضومة الحقوق ، كعاملة وكمرأة ·· ان الخير والحق والجمال لها مقاييسها النسبية ، انها ليست ثابتة في كل زمان ومكان ، والعلاقات الاجتماعية متطورة ومتغيره ·· ذلك ان العلاقات الاجتماعية ليست ، ابدا ، في حالة سكون وثبات ، كما يتوهم البعض ··· فما يعتبر صالحا في وقت من الاقات ، يعود لا يصلح في وقت آخر ، وما نعتبره معيبا في مجتمع ما وفي زمن ما يعتبر مقبولا في مجتمع آخر ، وفي زمن آخر ·

ذلك ان العلاقات الاجتماعية هذه مرتبطة ، ارتباطا وثيقا ، بتطور المجتمعات اقتصاديا ، ولها علاقة مباشرة بتطوير ادوات الانتاج · فعلاقات الانتاج في المجتمعات الرعوية تختلف ، قطعا ، عن العلاقات في المجتمعات الصناعية المتطورة · وعلاقات الانتاج هذه ، والتي تتغير بتطور البشرية وانتقالها من عصر الى عصر ، يترتب عليها نشوء علاقات جديدة متطورة ، على مستوى التقاليد والعادات والاخلاق والقيم ·

Digitized by Birzeit University Library

ففي نهاية القرن الماضي واوائل هذا القرن ، مثلا ، كانت مشاركة النساء في الانتاج الاجتماعي ومشاركتها في العمل خارج المنزل ، ليس مقبولا بل يعتبر عيبا ووصمة في جبين عائلتها · ولكن الظروف التي وضعت الشعب العربي الفلسطيني في مواجهة ابشع اشكال الاستعمار في العصر الحديث ، حيث تظافرت جهود الدول الاستعمارية من اجل ايجاد القاعدة الصهيونية في فلسطين ، كاداة لاشهارها في وجه نمو حركة التحرر العربية، ولامتصاص خيرات وثروة الوطن العربي ، وتثبيت هذه القاعدة عبر معارك لا تخصى ··· جعل المرأة الفلسطينية مضطرة الى الخروج من البيت ، لمواجهة هذه الحملة البربرية ، دفاعا عن حرية واستقلال الوطن ، ثم اضطرارها للعمل بعد النزوح عن الارض الفلسطينية ، حيث تردت الاوضاع المعاشية وساءت الظروف الاقتصادية لعشرات الآلاف من الاسر الفلسطينية ·

وعليه ، فان تحرر المرأة ليس قضية تقدم علمي وحضاري ، بقدر ما هي قضية نظام اجتماعي بالاساس ، وتربية تاريخيه ، ترتبط بتخطي المناخ الاخلاقي الذي يعترف بشرعية الاستثمار البشري واستغلال الرجل للمرأة ، ومن ثم استغلال الانسان للانسان ·

الاساس المادي لاضطهاد المرأة

كانت المرأة الاولى ، في المشاعيات لبدائية ، هي عماد الاسرة ، وعماد لعمل داخل المشاعية ، واليها تنتسب لانساب ، ولها حق الارث ··· وحولها يلتف في حياة وعمل دائمين ، اولادها احفادها · وكان تقسيم العمل الاولي قضي بان يضطلع الرجل بجمع الثمار والصيد · وحين دخلت البشرية العصر البرونزي ، وتحسنت سهام الصيد ، وظهرت القرى الاولى ، وانتقل الانسان الى عصر الزراعة تنامى وضع الرجل اقتصاديا ، وبناء على نظام الارث الاموي ، كان لا يستطيع ان يورث اولاده الذين ينتمون الى عشيرة امهم ·· وهنا نقل الرجل حق الارث ووضع القوانين الاولى التي اطاحت بمكانة المرأة ·

وبدأت الاسرة البطريركية ، التي يتمتع فيها الرجل الاب بسلطات السيد الذي يمتلك نساءه وابناءه وعبيده الذين يأتي بهم للعمل ، اضافة الى الماشية والارض· ومن خلال المفاهيم التي ارستها الاسرة البطريركية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا ، استعبدت المرأة ، وتراجع دورها، عبر مسلسل طويل من عبودية الانسان للانسان واستغلال الفرد وحكمه المطلق لجهود وانسانية الآخرين ولم تكف المرأة عبر انظمة العبودية والاقطاع والرأسمالية، عن معاناة اضطهاد مزدوج ، اضطهاد ضمن اطار المجتمع وآخر ضمن اطار الاسرة ·

ولقد كرست التشريعات ، عبر التاريخ، تبعية المرأة ، وقضت الا يكون لها من وظيفة تاريخية سوى الانجاب ·

وتكرس شريعة **موسى** ، وشريعة **مانو وكنفوشيوس** ونظرة الاغريق والمسيحية، تكرس ، كلها ، دونية المرأة ·

فلقد ميز **فيثاغورس** بين مبدأ الخير ، الذي خلق النظام والنّور والرجل ، ومبدأ الشر ، الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة ·

وجاء سفر الجامعة ليقول « لقد وجدت المرأة اشد مرارة من الموت » ·

ويصلي اليهودي قائلا « اشكرك يا الله لانك لم تخلقني امرأة » ·

وتأمر المسيحية المرأة بالطاعة العمياء

Digitized by Birzeit University Library

« الرجل هو رأس المرأة ، كما ان المسيح هو رأس الكنيسة » ·

ويقول **يوحنا الذهبي** الفم « ليس هناك بين وحوش الارض المفترسة من هو اشد اذى وضررا من المرأة » · ويرى **كونفوشيوس** « ان الغباء هو فضيلة النساء اليتيمة » · وكان من حق الرجل ، في بداية عهد الاسرة الابوية ، ان يقتل زوجته واطفاله ، دون محاسبته من احد·

وكان ذكاء المرأة واقدامها على ممارسة بعض الاعمال التي يقوم بها الرجل ، في القرون الوسطى ، من عمل الشيطان ، ويكون عقابها الموت حرقا ، لقد اتهمت العديد من النساء بالشعوذة والسحر ، لمجرد انهن تجرأن ومارسن مهنة الطب ، مثل الرجال !

ونستطيع القول ان الثورة الصناعية ، في القرن الثامن عشر ، اتاحت للمرأة فرصة العمل خارج المنزل ، الا ان الآله ، في الوقت نفسه ، قضت على الاقتصاد المنزلي ، وعلى السلع المنزلية ، وضربت الدور الاقتصادي للمرأة ، ضمن الدائره الضيقة للاقتصاد البرجوازي الصغير · رغم الدور المحدد لهذا الاقتصاد في السوق السلعي ، وبالاضافة الى ذلك فانها زادت من أعباء المرأة واضافت الى استعبادها المنزلي عبودية جديدة ·

وضع المرأة العربية

ولم يكن وضع المرأة العربية افضل حالا ، ويحكي تاريخ الغزوات عن سبي النساء ، للاستمتاع او الاتجار بهن أو ليعملن كاقنان في الأرض · وبنمو القرى وانتقال العرب للاقامة في المدن انحط دور المرأة، وأصبحت سلعة وأداة للهو ·

فانحطاط دور المرأة العربية مرتبط بنشوء نظام الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ونمو العمل في التجارة، بوجه عام ، ورواج تجارة الرقيق الابيض والاسود ، وانتشار الجواري ·

وقد استخدمت الجواري ، الى جانب استخدامهن في امتاع الرجال ، في العمل المنزلي ، وفي رعي الجمال والماشية ، والعمل في الارض · وكانت تلك الجواري يعتقن ، في بعض الاحيان ، فيصبحن موالي · وانتشرت الحانات التي تعمل فيها الجواري (اللواتي اصبح يطلق عليهن لقب قيان ، ومفردها قينه) ذلك انهن كن يقمن بالغناء ، وتقديم الشراب لزوار المقاهي ·

وكثر الرقيق من العبيد والاماء ، حتى أخذوا يشكلون فئة اجتماعية ، تعتبر قوام العمل في الريف وفي المدينة ·

ونتيجة لانحطاط دور المرأة تفشى وأد البنات لدى بعض القبائل ، واخضعت المرأة لنظام تعدد الزوجات ، واذلت بالضرب والسجن في البيوت ، وحرمت القبائل الغزل والتشبيب بالمرأة ··· ورغم ذلك استمرت النساء في العمل في الكهانة ، والطبابة ، والشعر ، والادب، والتحريض على القتال ·

ولعبت نساء بارزات أدوار هامة في التاريخ العربي ، فلقد كانت **بلقيس** ملكة لسبأ ، وكانت **الزباء** ملكة لتدمر ·

ويحكي التاريخ العربي عن نساء حكيمات، كانت تلجأ لهن القبائل للاحتكام في صراعها · وكان للعديد من الكاهنات والعرافات مكانة مرموقة بين القبائل · لكن وضع ومكانةهؤلاء النساء الطلائعيات لا يمكن تعميمه على مجمل وضع المرأة العربية ، في ذلك الوقت ·· ان عصبية القرابة الواضحة عند العرب كانت تترك الى جانب الأب ، عصبية الانتساب الى الأم والخال ، وقد كان للأنساب احترامها الكبير لدى القبائل ، قبل الاسلام وبعده·

Digitized by Birzeit University Library

فمن الجدير بالذكر أن علاقات القرابة داخل الجماعات خلقت نوعا من العلاقات العائلية شديدة الترابط بين افرادها . فقد كانت تعطي للزواج الداخلي ـ زواج ابنة العم ـ أهمية كبرى ، ذلك أن نظام الزواج هذا يضمن الاستقرار الايديولوجي والاقتصادي ، ويحافظ على وحدة الارض ووحدة الدم ووحدة المال .

وعلى العموم كان هناك ، وباستمرار، عبر التاريخ العربي نوعان من النساء : الحرائر والاماء ، وكلما راجت تجارة الاماء ، وقام الرجل التاجر بنشر الفسق والدعارة والاباحية ، كلما اشتد في الحفاظ عليهن والاستبداد بهن .

وجاء الاسلام ليمنع ظاهرة السبي « لا سبي في الاسلام ، ولا رق على عربي في الاسلام » ، ورغم ذلك فان هذه الظاهرة استمرت .

وحاول الاسلام أن يوقف عملية التردي المستمرة في دور المرأة ، وأعطاها حقوقها المدنية ، وحقوقها في التعليم ، وحقها في العمل ، ورد اليها قيمتها الانسانية . الا أنه ميز الرجل عنها في الامور الاقتصادية ، والدينية ، وحق الميراث ، والزواج، والطلاق ، والشهادة، واعطاه الحق في القيام على شؤنها . ولم يمنع تعدد الزوجات ، ولا نظام التسري .. لكن المرأة دخلت الاحزاب السياسية ، في ذلك الوقت ، وصعدت نشاطها الادبي والشعري والثقافي ، ومارست دورها في نشر الدعوة الاسلامية والجهاد في سبيل الاسلام ، **بالسيدة عائشة واسماء بنت ابي بكر ، وخولة بنت الازور ، وسكينة ، والخنساء** .. لكن دورها لم يلبث ان تراجع ، تدريجيا، اثناء عهد بني امية .. فقد دخل الاسلام فئة واسعة من الموالي ، مما احدث خلخلة في بنية المجتمع العربي المبني ، اساسا، على النظام القبلي . لكن هؤلاء الموالي التفوا حول القبائل ، لايجاد مكان لهم في بنية المجتمع العربي .. وقاموا بالعمل الوظائفي والمهني في المدن والقرى ، وتشكلت منهم طبقة العمال . بينما ترفع العرب عن كل هذه الاعمال واعتبروها غير لائقة بهم .

وعلى الرغم من منع الدولة الاموية زواج الموالي بالعربيات ، الا انها لم تحل دون زواج الرجال العرب من نساء الموالي .

واخذ نظام القرابة العربية يتفكك مع العلاقات العائلية الجديدة ، ضمن نظام الزواج الجديد وتبدل الوضع الاقتصادي واتسعت الهوة الفعلية بين العرب والموالي فمقاليد الامور الاقتصادية ـ العمل والوظائف ـ والتي بدأت تدريجيا منذ بداية عهد الرق ، اصبحت بيد الموالي ، الذين يشكلون طبقة فعلية تكون العمود الفقري للاقتصاد العربي ، هذا بالاضافة الى تفكك علاقات القرابة الفوقية العربيه. ولعل ذلك من ابرز الاسباب التي ادت الى تراجع كلي للدولة العربية ، وعلى كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتراجع بالتالي دور المرأة العربية .

وبدأت تتكون في عهد **الوليد** نواة **نظام الحريم** ، وفرض الحجاب على العامة ، اما نساء الخاصة فقد كن سافرات ، وان قيدت عملية خروجهن خارج البيت .

وكان افول نجم الدولة العربية وصعود الترك ايذانا بمزيد من تفاقم الجهل والتخلف ، وتمثل نهاية العصر العباسي منتهى الانحطاط الذي وصلت اليه المرأة فحجبت تماما وسجنت في البيت وسدت في وجهها الكوى والنوافذ ..

Digitized by Birzeit University Library

وكان دور المرأة العربيـــة في العصر العثماني استمرار لدورها في نهـــاية العصر العباسي ، وفقدت المرأة العربيـة اصالتها واستكانت للوضع الجديد ..

وبقيت على حالها هذه حتى مرحلـة الانتقال من العصر العثماني الى عصر الاستعمار الغربي في اوائل القرن ..

■ دور المرأة العربية الحديث

ادى النضال ضد الاستعمار ، من اجل تحرير الاجزاء المغتصبـة من الوطـن العربي ومكافحة الصهيونية والرجعيـة العربيـة ، والنضـال من اجل تحرير الاقتصاد العربي من هيمنة الاقتصـاد الامبريالي ، وكافة النضالات الامبريالية.. ادى ذلك كله الى انخراط الجمـاهير العريضة في مجمل النضـال العربي ، واستقطب ، وبزخم واضح احيـانا ، قطاعات نسائية واسعة للنضال السياسي ملتفة حول شعارات الثورة العربية ، في تحرير الوطـن وبناء المجتمـع العربي التقدمي الموحد . ورغم ان نضال المرأة هذا قد بلغ ، وفي كثير من الاحيان ، حد حمل السلاح الا انه ، بمجمله ، لم يتعد المشاركة الرديفـة ، وليس المشاركـة السياسيـة الاساسيـة ، الاشتراك في المظـاهرات ، والاعتصام ، والعنايـة بالجرحى ، ومساعدة المناضلين .. الخ .. وعلى اهمية هذا الدور الا انـه لا يشكل الا جـزءا محدودا من مجمـل النضال ، وليس دورا متكاملا حاسما في دائرة الفعل .

ونستطيع القول ان النضال ضد الهيمنة او شبه الهيمنة الامبريالية، والنضال ضد الطبقات المستغلة قد ادى الى تطور فـي بنية المجتمـع العربي . وادت التغييرات الاقتصادية الى خلخلة البنى العشائرية العائلية القديمة ، وافسحت المجـال لنمو علاقات اجتماعية جديدة عبر فـرز طبقي جديد .

ان تخلف الزراعة في الريف العربـي وتمركز الصناعة في المدن ، على جنينيتها ، ومحدوديتها ، ادى الى نزوح اعداد هائلة من العمال من ابناء الريف العـربي الى المدينة ، نتيجة لضيق اسباب المعيشة . وتزايد عدد السكان في المدن تدريجيا ، بحيث يصبح من الصعب ايجاد اعمـال لهذه الجيوش من العمال . وتتسع دائرة العاطلين عن العمل ، سنويا .

وحيث ان الرأسماليـة تقف امـام تناقضاتها عاجزة عن حل مشكلاتهـا : العمل ، العمال ، البطالة ، التضخـم ، الاسواق ، الاجور ، فان ازمة الاقتصاد العربي المتخلف المرتبط بعجلة الاقتصاد الرأسمالي في عصر انهيار الامبريالية ، تبقى دون حل .

وتتداعى في المدينة وفي احيـاء العمال والكادحين بالذات ، الذين فقدوا ارتباطهم بالمجتمعات الريفية ، تتـداعى العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعيـة ومخلفات المجتمع العشائري القديـم . وعلى ارضية بؤس العمال وجوعهم تولد الثورة ، فالوطن لم يتحرر بعد ، والارض لا زالت سليبة ، وسنوات النضـال من اجل التغيير الاجتمـاعي لم تصـل بالجماهير الى الشبع والحرية .

■ هل غير الوضع العربي الجديد دور المرأة العربيـة ؟

رغم التغيير في الواقع الاقتصـادي والاجتماعي ، الا ان حقوق المرأة العربية في الاسرة والمجتمع لم تتبـدل ، فهي لا زالت تعاني من التمييز ضدها .

وكانت المرأة العربيـة دائما خـارج دائرة التغيير ، في الواقع العربي المتغير، وبقي دورها هامشيا .

Digitized by Birzeit University Library

فحق التعليم والانتخاب ، والعمل ، بالنسبة للمرأة العربية ، وتطوير الاحوال الشخصية ، وعلمنتهـا ، كل ذلك ليس كاف للحكم على تطور المرأة ، في مجتمع ذي اطر تقليدية ، كمجتمعنا العربي ، الا اذا كانت المـرأة قد حصلت على تلك الحقوق عبر نضالات منظمة لاحـزاب ومنظمات وقوى جذرية ، تؤمن ، ايمـانا مطلقا ، بضرورة انهـاء التمييز ضد المرأة وانهاء استغلال الانسان للانسان ، ضمن رؤية استراتيجية لقضية التحرير والديمقراطية والعدالـة ، ككل مترابط · فتحريـر المرأة لا ينفصل عن تحريـر الجماهير المستغلة ، وانهاء الاضطهـاد بكافة اشكاله · ذلك ان مفهوم الحرية لا يتجزأ · وهذا ، قطعا ، لا يتم الا عبر التنظيم الثوري التقدمي الصحيح ·

ان اولئك الذين يطرحون مسألة تحرير المرأة كمسألة مستقلة بذاتها ، لا يهدفون الا الى تشويه النضال الحقيقي لجماهير النساء ، في مجمل النضال الجماهيري لبلادنا · واذا حسنت النوايا فانهـم يؤكدون على ضرورة استمرار دورهـا الثانوي ، الملحق بالنضال التحـرري ، كرصيد جاهز ، دوما ، للتحرك بالاتجاه الذي يشاؤه هـؤلاء ، تمامـا كدور البروليتاريا الرثة التي تستخدمها السلطة البرجوازية كرصيد دائم وثابت لها ·

اقول ذلك رغم ما للنضـال النسائي من خصوصية تتعلق بصميم التغيير في البنى الفوقية (الاخلاق ، القيم ، الثقافة) والتي يستمر النضال من اجل تطويرها وتغييرها ردحا طويلا من الزمن ، قبـل وبعد اجراء التحـولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية · والتي لهـا اسبابها الضاربـة الجذور في بنية مجتمعنـا العربي المتخلف وتاخره ·· واؤكد هنا ان قضية المرأة ، كما اطرحها الآن ، ليست مسألة خاصة بالمرأة ، فهي قضية الرجل ايضا · فقضية الواحد هي قضية الآخر · وعلاقة السيد بالمسود ، هنا ، ترتد سلبـا على السيد · اذ ان الامر لا يفهم الا ضمن العلاقة المتكاملة التي تربط الرجل بالمرأة ، ومردودها سلبا وايجابا يقع على كلا الفريقين ·

ان عدم اعتراف الرجل بموضوعيـة اضطهاد المرأة وعدم التسليم لها بحقوقها الانسانية في المجتمع ، لهو دليل واضح على الاضطهاد الذي يعانيه الرجـل ، نتيجة لخضوعه واستسلامه لاشكال القهر الوطني والاجتماعي ، وللقيم والمفاهيـم والاخلاق التي ليست ، في جوهرها ، الا انعكاسا لاشكال هذا القهر ·

ذلك اننا لا نستطيع رؤية هذا الموضوع منفصلا عن النظرة الشمولية لمجمـل النضال التحرري العربي ، الذي ما فتىء يراوح بين المد الثوري وبين الانتكاس والتقهقر ·

ولقد كان للطبيعة البرجوازية للطبقات التي قادت النضال العربي وللقوى التي تحكمت في مسار هذا النضال ابلـغ التأثير على وضع المرأة العربية · ذلـك ان التغيير الاقتصـادي والاجتمـاعي والسياسي لم يكن تغييرا جذريا ، فقـد كان محكومـا ، دائما ، بالموقف الطبقي للبرجوازيات الحاكمة ، ولا زالت حقوق الطبقات المضطهدة تفتش عن تعبيراتهـا النضالية ، التي لم تأخذ دورها الفعلي ، بعد ، في تغيير الواقع العربي واعطـاء النضال الثوري بعده الحقيقي ·

لذلك فان العبء الاكبر في هـذا الموضوع يقع على الطلائع النضاليـة التي تطـرح نفسها ممثلة للطبقـات المضطهدة ·

ان الاحزاب السياسية والمنظمـات الثورية العربية ، لم تعط ، حتى الان ، الاهمية اللازمة لمسألة تحرير المـرأة ، ويتضح ذلك في افتقار برامجها الداخلية

Digitized by Birzeit University Library

لمعالجة جدية لموضوعة المرأة او الاهتمام بقضيتها ، على مستوى التثقيف الداخلي وتربية الكوادر . فلا زالت قوانين الاحوال الشخصية العربية تتحكم بمصير وكرامة المرأة العربية ، فتعدد الزوجات ، وقانون الطلاق وحق الارث ، والشهادة ، تؤكد التبعية والاستلاب الكامل للمرأة العربية ، او لا زالت الاعراف والتقاليد تقف حائلا دون تقدم المرأة ، ومشاركتها في بناء المجتمع العربي .

كما ان اقبال المرأة العربية على التعليم لم يغير من حقيقة واقعها ، ذلك ان التعليم لا يرفع مستوى المرأة الا بمقدار ما يؤهلها للمشاركة الفعلية في الانتاج والعمل .

ولا يزال عمل المرأة العربية يخضع لاعتبارات اجتماعية واقتصادية تحول دون اشتراك المرأة بشكل واسع في الانتاج .

فلا زال تخلف الصناعة العربية يحول دون افساح المجال لاستخدام القوى المنتجة ، رجالا ونساء . ولا زال مجتمعنا العربي يرى ان مكان المرأة هو البيت ، ومهمتها الانجاب والعمل المنزلي ، فحسب . هذا اضافة الى عدم مساواة المرأة العاملة في الاجور وعدم الاهتمام الكافي بأوضاعها كام . ولا زالت تشريعات العمل ، المعمول بها في كثير من الاقطار العربية ، تهمل الاهتمام باجازة الوضع ، وتضع قيودا شديدة على استخدام النساء المتزوجات ، كما يتم الاهمال الكامل لدور الحضانة ورياض الاطفال ، وما الى ذلك من مشاريع ترفع الاعباء عن كاهل المرأة ، وتفسح المجال امامها لممارسة دورها الفاعل في المجتمع العربي . ان التغيير الذي اصاب المجتمع العربي ، لم يؤثر تاثيرا فعليا على دور المرأة العربية . ذلك انه لم يكن تغييرا جذريا ، ثم ان العلاقات الانسانية ، كما اوضحت سابقا تتغير بوتيرة اشد بطئا ، بما لا يقاس ، عن وتيرة التغيير الاقتصادي ، كذلك فان التغيير الاقتصادي لا يحتم ، فورا ، حدوث التغيير الفوقي ، وهو بحاجة الى نضال جاد ، من اجل تغيير النظرة القديمة للاشياء .

ان مشاركة المرأة في النضال السياسي والاجتماعي ، وتحررها من الاستغلال الرأسمالي ضرورة اساسية لمشاركتها في المجتمع ، وهذا لا يعني ان مجرد انخراط المرأة في العمل سيغير العقلية السائدة والتميز ضد المرأة . ان ذلك تراث تقليدي يحتاج الى زمن طويل من اجل تغييره ، والى جهود متواصلة من قبل القوى الثورية .

لذلك يجب العمل ، بالاساس ، على ضرورة النضال من اجل تغيير مفهوم المرأة حول دورها ، ولكن لا يجب ان تغيب عن اذهاننا ان اضطهاد المرأة في مجتمعنا ، ادى الى قصور ذاتي لديها ، كما ادى الى تأخر سياسي للجماهير النسائية ، نتيجة للابتعاد المزمن عن المشاركة في الحياة الاجتماعية ، والاستسلام الكامل لدورها التاريخي واعتباره دورها الوحيد (الامومة - العمل المنزلي) .

وتقع على القيادات الثورية اي على الرجال الذين يقودون النضال التحرري - مسؤولية تطوير نضال المرأة ، وتوسيعه ليشمل المشاركة الفعلية في النضال السياسي والاجتماعي الذي تخوضه القوى التقدمية العربية في المجتمع العربي . الا ان ذلك لا يعفي القيادات النسائية من مسؤوليتها في هذا الموضوع .

ان وضع المرأة في مجتمعنا اسوأ ، بما لا يقاس ، من اوضاع العمال المسحوقين ، سواء من ناحية الاعراف

Digitized by Birzeit University Library

والقوانين او التربية ·

وتقبل المرأة ، بدونية وضعها هذا ، دون مناقشة ، باعتباره امرا بديهيا · ان الشرط النسائي هذا ، والذي يستمر على حاله اجيالا واجيالا ، يغدو ، في النهاية عادات ، وتجعلها الوراثة والتربية تبدو طبيعية في نظر المرأة والمجتمع · لذلك ، فان الجهود التي تبذل لتوعية المرأة على حقيقة وضعها ودعوتها لممارسة دورها الفعلي شاقة ومضنية ، فهي تستسلم لواقعها بقدريه عجيبة ·

■ خلاصة

ان النضال العربي يلقي على عاتق المرأة العربية مسؤولية نضالية اساسية ، في مجمل النضال العام من اجل تحرير الوطن العربي ، وبناء مستقبله التقدمي · فهي تشكل نصف هذه القوى الثورية العربية ·

ولكن ذلك لا يعفيها ، مطلقا ، من نضالها الخاص لتحسين وضعها في قلب هذا النضال · فدور المرأة العربية لا يمكن ارجاءه ريثما تتحقق الاهداف الكبرى للثورة العربية ، وهي ايضا لا تستطيع ان تسهم اسهاما فاعلا وحقيقيا ، في هذه الثورة ، ما لم يفسح امامها المجال واسعا من اجل المشاركة ·

ذلك ان تحقيق اهداف الثورة في التحرير ، وبناء الاشتراكية ، لا يعني التغيير الآلي لدور المرأة · الامر الذي لا يمكن ان يحدث الا بالنضال الجاد الطويل،والذيله **خصوصيته** والتيلا يجوز القفز عنها ·

فنضال المرأة العربية من اجل تغيير القوانين ، وخاصة قوانين الاحوال الشخصية ، وتعميم التعليم ، وتربية الكوادر ، واتاحة فرص العمل والمشاركة السياسية والاجتماعية والنضال الجاد ضد مخلفات المجتمع القديم الذي يكرس استلاب المرأة ـ مهمات ملحة ، تصب في الانسان للانسان ومن اجل بناء المستقبل العربي التقدمي ·

ان نضال القوى الثورية العربية ضد الاقطاع ومخلفاته ، لا يعني النضالات الاقتصادية فقط ، بل يتعداها الى تغيير كامل في علاقات الانتاج ، وهذا بدوره يمس صميم القيم والتقاليد القديمة ويرسي اسس قيم جديدة تماما · كذلك فان النضال ضد الرأسمالية والاستعمار والصهيونية ، يعني النضال ضد الاخلاق والقيم التي فرضتها الرأسمالية ، وفرضها الاستعمار ، ويفرضها الوجود الصهيوني في مجتمعنا العربي · وهذا يحتم نشوء علاقات وقيم واخلاق جديدة ، تنمو وتزهر على ارض الثورة · والنضال ضد التخلف العشائري والطائفية والاستغلال بكافة اشكاله ، يشمل النضال ضد النظرة المتساوية تجاه المرأة ، لافساح المجال امامها للمشاركة الفعلية في الثورة ·

وهذا النضال ، الذي يتمتع بخصوصية بالغة في قلب النضال العربي ، يلقي عبئا كبيرا ومتميزا ، على عاتق المرأة العربية المناضلة وعلى القوى الثورية والجذرية · ونستطيع القول بأن ثورية اي برنامج تنظيمي ، لكافة القوى والاحزاب والمنظمات العربية تقاس بموقفه من قضية المرأة ، ومدى ممارسة تلك القوى لهذا الموقف ·

■ دور المرأة الفلسطينية

لدى الحديث عن دور المرأة الفلسطينية يجب الا ننزلق الى الفصل القسري بين دور المرأة الفلسطينية ودور المرأة العربية بصورة عامة ، رغم ما للدور الفلسطيني من مميزات خاصة ، ناتجة عن الدور

Digitized by Birzeit University Library

الخاص للشعب العربي الفلسطيني في مجمل حركة النضال العربي .

ذلك ان الاوضـــاع الاجتماعية التي تتحكم في دور المرأة الفلسطينيـــة هي نفسها التي تحكم مسيرة المرأة العربيـــة ككل ، مع بعض الفروقات الدرجية ، وما لهذه الاوضاع من تاثير على ساحـــة النضال الفلسطيني ، نتيجة لواقـــع التشتت الذي يتعرض له شعبنا ، ممـــا يخضعـه لتناقضـات الواقـع العربي وللمؤثرات الاجتماعية المختلفة التي تطبع الواقع النضالي الفلسطيني بطابعهـــا المميز ، ليتخذ سمات مختلفة باختـلاف الاقطار التي يتوزع عليها شعبنا العربي الفلسطيني .

ان دراسة اوضاع المرأة الفلسطينية لا يمكن ان يفهم ، عن طريق توضيح مدى مشاركتها في الانتاج ، كما في اي بلد اخر ، يتمتـع بوحدتـه الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية ، بـل برؤيـة السمـــات الخاصـــة لشعبنا العربي الفلسطيني ، من حيث انـــه شعب سلب ارضه ، وحرم من حقه في تقرير مصيره، وما استتبع ذلك من اثار اجتماعيـــة واقتصادية وسياسية .

لقـد بدأ دورهـــا يكتسب شخصيته وملامحه الخاصة منذ وعد بلفور ، سنة ١٩١٧ ، الذي تعهدت ، بموجبه ، بريطانيا بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . ولقد جاء في المـادة الثانية من صـك الانتداب « ان الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي ... »

ووضعت الحركة الصهيونية بناء على ذلك ثلاث قواعد للعمل في فلسطين قبـل ١٩٤٨ وفرضت على المستعمرين الصهاينة الالتزام بها : ـ

● **العمل العبري** ، اي تشغيل العمال اليهود فقط ، واستثناء العمال العـرب كلية في المشاريع والمؤسسات الصناعيـة المختلفة .

● شراء منتجات الاراضي اليهوديـة فقط وعدم التعامل تجاريا مـــع السكان العرب الفلسطينيين .

● **افتداء الارض** ، اي العمـــل على شراء الارض من ملاك الاراضي الغائبين، في الغالب ، وتوطيـــن المهـــاجرين الصهاينة .

وقد ادت عملية الاستيلاء على الارض وعلى العمل الى تحويل عـــدد كبير من الفلاحين الصغار الفلسطينيين الى طبقة من العمال المزارعين المسحوقين المعدمين، تعاني من القوانين الجائرة التي تحرمها العمل .

وقد ادى ذلك الى هجرة اعداد كبيرة منهم الى المدن ، وعرض انفسهم في سوق العمل المأجور ، وبأسوأ شروط .

ولم يكن حال العمـــال الفلسطينيين الذين يعملون في الصناعة افضل من ذلك، وكان للسياسة الاستعمارية الهادفة الى تهويد العمل العربي ، اثرها البالغ على مجمل التطور الاقتصادي والصنـــاعي للعرب ، وعلى عدم اتساع حجم الطبقـة العاملة .

وانعكس ذلك على وضـــع المـــرأة الفلسطينية ، فكانت الوحدات الاقتصادية الفلاحية الصغيرة هي عمـــاد الاسرة ، وكان للمرأة دورها في انتاج السلـــع الزراعية التبادلية الى جانب الرجـل ولكن ، بعد تحول قسم كبير من الفلاحين الصغار الى عمال زراعيين ، تضـاءلت مساهمـــة المـرأة .

وكان عدد العاملات الفلسطينيات في المصانع والمستخدمات في المرافق العامة واجهزة الدولـــة يشكل نسبة ضئيلة ، بالقارنة مع عدد العاملين من الذكور ، وهذا يرجع الى قوة التقاليد ضمن دائرة

Digitized by Birzeit University Library

مجتمع متخلف اقتصاديا ، كالمجتمع الفلسطيني ، حيث تضيق فرص العمل للجميع ، والى تدني نسبة المتعلمات من النساء ·

ولقد دفع بؤس هذه الاوضاع المرأة الفلسطينية الى تخطي الصعوبات وتخطي التقاليد ، والتصدي للمهام النضالية المقدسة التي افترضها واجب الدفاع عن الوطن وعن المصير ·

وكان نضالها ، منذ البداية ، نضالا سياسيا واضحا ، فلقد التفت النساء حول شعارات **الغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية لفلسطين ، ووقف الاستيلاء على الارض الفلسطينية وطرد الانتداب البريطاني** ·

وبدأت بتشكيل تنظيمها الخاص سنة ١٩٢١ ، وفي سنة ١٩٢٩ اتمت تشكيل **الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني** في كافة مدن وقرى فلسطين ، وعقد مؤتمره الاول ، الذي حضرته ٣٠٠ سيدة

وكانت قرارات المؤتمر حاسمة وواضحة ضد الانتداب البريطاني وضد تهويد فلسطين · هذا ولعب الاتحاد دورا هاما في اطلاق مبادرات النساء داخل الحركة الوطنية الفلسطينية في ذلك الوقت · وكان للمرأة الفلسطينية مشاركتها الفعلية في النضال المدني والعسكري · ان احدا لا يستطيع انكار دورها الفاعل في المشاركة مع النقابات الفلسطينية ، في الدعوة الى اضراب سنة ٣٦ ودورها في انجاحه ، وقد وقع العبء الاكبر في انجاح هذا الاضراب على عاتق نساء الريف ، اللواتي ضاعفن انتاجهن ، من اجل سد حاجات البلد والمقاتلين ·

وكان للمرأة في الريف دورها المشرف في توفير التموين الكامل للثوار · ولقد عمدت النساء الفلسطينيات الى بيع حليهن ، ومصاغهن ، واشترين السلاح للثورة ·

وكن يحملن المؤونة والعتاد للثوار في الجبال ، ويقمن بنقل الرسائل · واخفاء المناضلين ، وتسهيل تحركهم والعناية بالمجرحى ·

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل ان بعضهن حملن السلاح ، وصعدن الى الجبال ، يقاتلن ، جنبا الى جنب ، مع الرجل · وسجل تاريخ النضال الفلسطيني ، بشرف ، سقوط شهيدات في تلك المرحلة البكرة من النضال الفلسطيني ، وهن يحملن سلاحهن ، دفاعا عن عروبة فلسطين · ودخلت المرأة ، وبزخم كبير ، الخلايا التنظيمية السرية التي شكلها الشهيد **الشيخ عز الدين القسام** ··

ولم تتوقف عن تنظيم الاجتماعات السياسية ، والندوات ، والمظاهرات ، والاعتصامات ، والاحتجاج، وقيادة برامج المقاطعة للبضائع الاجنبية والصهيونية على وجه الخصوص ·

وتبقى مواقفها البطولية في مذبحة دير ياسين ، ومذابح قبية ونحلين ، ومعارك حيفا ، والقدس ، ويافا ، وكل مكان مشعلا يضيء طريق المناضلات الفلسطينيات والعربيات ·

وتبقى اسماء شهيداتنا الاول : **ساطمة غزال ، وحلوه زيدان ، وجوليت زكا ، وحياة البلبيسي ، وجميلة صلاح ، ونبيه عطيه** نجوم تضيء طريق نضال المرأة الفلسطينية الطويل ·

وبقيت المرأة الفلسطينية تناضل ، جنبا الى جنب ، مع الرجل ، طوال فترة الانتداب البريطاني ، متصدية لمخططات الاستعمار والصهيونية المتلاحقة ، وفي مقدمتها قرار تقسيم فلسطين ··· وكانت مشاركتها هذه ترتفع بارتفاع وسخونة الاحداث التي تعصف بالوطن ، وتتراجع كلما خفت حدة المواجهة ·

Digitized by Birzeit University Library

وظلت وتيرة مشاركتها الجماهيرية في المسيرة النضالية تتأرجح بين الاندفاع العفوي والارتباط المنظم حتى عام النكبة ٠

■ دور المرأة الفلسطينية بعد النكبة سنة ١٩٤٨

بناء على وثائق الامم المتحدة كان ما يقرب من خمسين الف يهودي ، يعيشون في فلسطين سنة ١٩١٧ ، يملكون ٢ ٪ فقط من اراضي فلسطين ٠

وفي عام ١٩٤٧ وصل عددهم ، نتيجة للهجرة ، الى ٣١ ٪ من عدد السكان ٠ ولكن الاراضي التي كانوا يملكونها شكلت ٦ ٪ من ارض فلسطين ٠ وكان لا بد من الاستيلاء على الارض بالقوة وبالمذابح ٠ وطرد اكبر عدد من اصحاب البلاد الشرعيين ٠ وشنت الحركة الصهيونية ، بمساعدة الانتداب البريطاني ، حربها سنة ١٩٤٨ ، وحرم شعبنا من حق الدفاع عن نفسه ، بتواطؤ الانظمة العربية حينئذ ، وتمكنت من الاستيلاء على ٧٧٫٤ ٪ من مساحة فلسطين ٠٠

وحرم شعبنا العربي الفلسطيني بالقوة ، من حقه في تقرير مصيره ، وحقه في العيش على ارضه وفي وطنه ٠

وادت عملية اقتلاعه هذه ، من قبل الامبريالية والصهيونية ، وتواطؤ القوى الرجعية العربية ، الى كسر واعاقة النمو الطبيعي للعملية التاريخية الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ، واحداث خلخلة مصطنعة حادة لبنية المجتمع الفلسطيني ٠

فلقد كان الفلاحون الفلسطينيون ، مثلا ، يشكلون ثلثي السكان قبل النكبة. فانخفض عددهم الى نحو ٢٠ ٪ من مجموع السكان ، يتواجد معظمهم في الضفة الغربية وغزة والارض المحتلة في سنة ١٩٤٨ ، واضطرت اعداد كبيرة من شعبنا للاقامة في المخيمات والاحياء الشعبية الفقيرة في المدن العربية التي تم نزوحهم اليها ٠

ثم كانت هزيمة ٦٧ ، التي استكمل فيها العدو الصهيوني عملية استيلائه على الارض الفلسطينية ، بالاضافة الى اجزاء اخرى من الوطن العربي ٠

ولا زالت عملية طرد شعبنا من ارضه من اجل اقامة المستوطنات الصهيونية الجاهزة لاستقبال المهاجرين الجدد ، مستمرة ، ولا زالت الصهيونية تواصل سلب وتجاهل الحقوق التاريخية لشعبنا في وطنه ، وتتصدى لضرب النضال الوطني الفلسطيني والعربي ، لمنع شعبنا من تحقيق استقلاله السياسي والاقتصادي ٠

لقد ادى التشتت الجغرافي الفلسطيني الى التشتت الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، في اكثر من بلد عربي وادى ذلك ، بدوره ، الى التداخل مع الاوضاع العربية ، ويتباين هذا التداخل من بلد الى اخر ، تبعا لمستوى التطور في كل بلد ، وتبعا للدور السياسي الذي يلعبه الفلسطينيون وتأثيره على نوعية التحولات الطبقية التي طرأت على التركيب الاجتماعي العام للفلسطينيين ، والمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية لكل بلد ٠

لقد خلقت هذه العوامل وغيرها ، والناجمة عن عملية الاقتلاع الصهيوني ، سمات مميزة ومتعددة فيما يتعلق بالتركيب الطبقي الجديد للفلسطينيين بعد النكبة ٠٠

وانهار الاساس المادي للمجتمع الفلسطيني ، فقدت الجماهير وسائل انتاجها ، من ارض وما عليها ، كليا ، وادى ذلك ، بالضرورة ، الى تغيير كبير في العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل النزوح ، والى اعادة فرز طبقي

Digitized by Birzeit University Library

للمجتمع الفلسطيني · ورغم حدة التغيير الذي اصاب الاساس المادي الاقتصادي ، الا ان التحولات في البناء الفوقي حافظت على وتيرة بطيئة في التحول ·

ذلك ان التغيير الذي حصل ، على ضخامته ، لم يكن نتيجة لثورة اجتماعية تجرى تحولات ايجابية في الاساس الاقتصادي لمصلحة القوى المنتجة ، بل كان على العكس من ذلك تماما ، ذلك انه افقد هذه القوى ، بالذات ، وسائل انتاجها ، وقطع استمرار نموها الطبيعي ·

وادى فقدان معظم الاسر الفلسطينية لمصدر رزقها الى الحاجة لعمل النساء ، بل كان عمل المرأة هو المورد الاقتصادي الوحيد لدى العديد من الاسر الفلسطينية، ولا يزال ·

لقد تغير دور المرأة الفلسطينية الاجتماعي بعد الهجرة ، نتيجة للضرورات الاقتصادية ، وما كان مرما بالامس (العمل وخروج المرأة من البيت) اصبح حجة اجتماعية ملحة · وفتحت امامها فرص التعليم وابواب الجامعات ، ونالت قسطها الوافر من العلم والمعرفة · وعليه فان حاجة المجتمع الفلسطيني لعمل المرأة هي التي اتاحت لها مجال العمل · واتاحت لها ، في نفس الوقت ، فرص العلم والمعرفة ·

كان العلم ، ابان الانتداب مقصورا على الذكور ، ثم اصبح متاحا لبنات الاسر الموسرة ، تحصل عليه الفتاة مثلما يحصل المرء على الكماليات ، اذ لا حاجة لها به · كن يذهبن الى المدرسة من اجل اكتساب مزايا جديدة ومتفوقة ، تتيح لهن فرصا افضل للزواج ، ولم يكن العلم من اجل العمل او اكتساب المعارف ·

واحتاجت الاسرة الموسرة قبل النزوح لتشغيل بناتها بعد النزوح وفقدت المرأة الريفية مصدر رزقها الوحيد · الارض · وكان لذلك اثره البالغ على وضعها الاجتماعي اذ اضطرت اعداد هائلة من النساء الريفيات للعمل كخدم في المنازل ، وفي المرافق العامة ، وفي المصانع البدائية ، التي كانت قائمة عند النزوح ، كمصانع السجائر والاغذية والنسيج · ولقد دفع هذا الوضع الجديد المرأة الفلسطينية نحو طلب العلم ، والتدريب المهني ، واكتساب المعارف الجديدة التي تساعد على رفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي ·

ان عملية اعادة فرز دائمة تتم داخل المجتمع الفلسطيني · وتختلف نسبة توزيع العاملين على قطاعات العمل المختلفة من احصاء لآخر ، وهذا يدل على عدم ثبات بنية المجتمع الفلسطيني ، ودوام تخلخلها ، نتيجة لعدم الاستقرار· وتنخفض نسبة النساء العاملات في الاحصاءات الرسمية ، ولكن ذلك لا يشكل دلالة اكيدة على حجم العمل النسائي ذلك ان معظم العاملات ، خصوصا في الضفة الغربية وغزة ، غير مسجلات في السجلات الرسمية ، حيث انهن محرومات من الضمان الاجتماعي واجورهن رخيصة جدا · وعلى وجه العموم تتزايد نسبة مشاركة النساء في العمل في الضفة وغزة نتيجة للانخفاض المخيف في نسبة اعمار الذكور ما بين سن ٢٠ ـ ٥٠ سنة، واتاحة فرص العمل الجديدة التي يؤمنها الارتباط القسري بالاقتصاد الاسرائيلي ·

فلقد نجم عن الاحتلال ازدياد العاطلين عن العمل ، وانخفاض نسبة الاجور ، وهجرة اعداد كبيرة من العمال للخارج (خاصة الخليج العربي) · مما ادى الى تفتت البنية الاقتصادية والاجتماعية في الضفة الغربية والقطاع · ومما زاد الامور تعقيدا ان الضفة الغربية قد حرمت ، بالاساس ، من مشاريع التطوير

Digitized by Birzeit University Library

الزراعي والمؤسسات الاقتصادية ، مما ساعد على تهجير الشباب الى خارج فلسطين ، ضمن سياسة القضاء على الشخصية الوطنية الفلسطينية وتذويب شعبنا الفلسطيني في الكيانات العربية القائمة ، لطمس قضيته ، وادت الاحوال الاقتصادية التعيسة في قطاع غزة الى هجرة معظم الشباب للعمل في الخارج ·

■ المراة الفلسطينية والثورة

ولم يتوقف نضال المراة الفلسطينية لحظة واحدة ··· لقد تحملت قسوة الظروف جديدة ، وشظف العيش في المخيمات ، وصعوبة التصدي لمهام جديدة لم تتعودها من قبل · ثم وقفت ، بحزم ، متصدية لكل المخططات المشبوهة من قبل الامبريالية لتذويب قضية الشعب الفلسطيني السياسية ، وطمس حقوقه الوطنية ، تصدت للاحلاف العسكرية ، وشاركت ، مشاركة فعالة وبارزة ، في النضال من اجل اسقاط حلف بغداد ·· واستشهاد البطلة **رجاء ابو عماشة** في القدس برصاص الرجعية ، سيبقى علامة فارقة ورمزا خالدا لبطولات المراة الفلسطينية التي لن تكف عن العطاء كما ان سجون الرجعية لا تزال تحفظ العديد من اسماء المناضلات الوطنيات والتقدميات ·

وتصدت المراة الفلسطينية ، بحزم ، لمخططات توطين الفلسطينيين خارج الارض الفلسطينية ، جنبا الى جنب مع الرجل ، واستطاعت الانتفاضات الجماهيرية من اسقاط تلك المخططات · كما شاركت ، مشاركة فعالة ، في التصدي للعدوان الثلاثي على مصر ، وقطاع غزة (خريف ١٩٥٦) ، واسهمت اسهاما ايجابيا ، في المقاومة السرية داخل قطاع غزة ، وفي المقاومة الشعبية دفاعا عن مدينة القاهرة ·

ولا بد ان نذكر ان الحركة النسائية العربية قد شهدت مدا عارما في مرحلة النضال القومي في تلك الفترة ، وكان للمراة الفلسطينية دورها في تلك الحركة، خاصة في صفوف الطالبات والمثقفات

وشاركت الفتيات ، بفعالية ، في **رابطة طلاب فلسطين** في القاهرة ، ثم في **الاتحاد العام لطلبة فلسطين** ·

وجمعت الاتحادات والمنظمات النسائية في صفوفها ، التي بعثرها نزوح الشعب الفلسطيني عن ارضه ، في محاولة لاستعادة دورها ، فكان لها مشاركتها الهامة في مجمل النضال الوطني والتقدمي في تلك المرحلة · وتشكلت العديد من المنظمات النسائية الجديدة على اسس تقدمية ، **كجمعية التقدم النسائي في غزة ورابطة المراة العربية في الاردن** ·

ونقل **الاتحاد النسائي الفلسطيني** نشاطه الرئيسي الى خارج الارض الفلسطينية بعد النزوح ، واتخذ من مدينة بيروت مقرا له عام ١٩٤٩ ، ثم قام بانشاء **مدرسة اسعاد الطفولة** في سوق الغرب لرعاية ابناء شهداء فلسطين وتعليمهم ·

واستمر الاتحاد النسائي يمارس نشاطه السابق في مدينة غزة والضفة الغربية والاردن ، لكنه في الضفة اخذ يعمل باسماء مختلفة نتيجة للوضع الجديد الرامي الى طمس اسم فلسطين من على خارطة العالم · وانشئت في مدينة القدس **دار الطفل العربي** لرعاية وتعليم ابناء شهداء دير ياسين ، **ودار اليتيم العربي ودار رعاية الاحداث** ، وعشرات المؤسسات المتعددة الاهداف ، لخدمة شعبنا المشرد المضطهد ، وللحفاظ على هويته النضالية ·

Digitized by Birzeit University Library

انطلاقة الثورة الفلسطينية

هزت الثورة الفلسطينية المجتمع الفلسطيني من جذوره ، وقلبت المفاهيم التي كانت سائدة لسنوات طويلة ·

كانت الجماهير تنتظر ان يأتيها التحرير عن ايدي الجيوش العربية ، وهي المرتبطة بالانظمة العربية وسياساتها · وطرحت الثورة الفلسطينية بديلها ،الذي ضرب في عمق الوجدان الشعبي العربي ، وانار الضوء في ليل الهزيمة « ان فلسطين والاراضي العربية المحتلة لن تحرر الا بحرب التحرير الشعبية ، وباسلوب الكفاح المسلح » ·

لقد وضعت الثورة الفلسطينية القضية برمتها ، في ايدي الجماهير ، واعادت الامور الى نصابها · لذلك دخلت الثورة كل بيت ، واذكت شرارة المقاومة صدور الجميع ·

والقى هذا الطرح الجديد تبعات جديدة على المرأة الفلسطينية ، فحرب التحرير الشعبية هي حرب كل الجماهير الشعبية، مما يجعل النضال من اجل التحرير مهمة تضطلع بها المرأة الفلسطينية ، على قدم المساواة مع الرجل ، ولا يعقل ان يعزل قطاع بكامله عن شرف التصدي لهذه المهمة ·

وكان دورها اثر اطلاقة الثورة ، استمرار لدورها منذ بداية القرن ، فهي لم تنقطع عن النضال لحظة ، ولم تبخل لحظة بالعطاء ·

فقد شاركت ، مشاركة فعالة ، في الكفاح المسلح داخل الارض الفلسطينية المحتلة ، وشاركت في الانتفاضات المتتالية ، متصدية للاحتلال الصهيوني للارض الفلسطينية · واتسعت مشاركتها، على مدى سنوات الثورة وحتى الآن · وتعمقت جذورها في الارض الفلسطينية ·

سقطت **شادية ابو غزالة** اثناء اعدادها لعملية عسكرية ، وسقطت **دلال وهي** تقود اجرأ عملية فدائية بطولية ، وسقطت **منتهى الحوراني** ، والعديد من البطلات اللواتي تلقين بصدورهن رصاص الاحتلال ·

وهناك مئات الاسماء ، لبطلات من بنات شعبنا ، ساهمن مساهمات مشرفة في الكفاح الشعبي المسلح ، بعضهن لا زلن نزيلات سجون الاحتلال الصهيوني ، يعانين ، يوميا ، ابشع عمليات التعذيب الوحشي ، بل ان حياة بعضهن مهددة في كل لحظة ، نتيجة للمرض الناتج عن التعذيب **كمريم شخشير وعايشة عوده وعايده عوده** ·

ان عشرات الاسماء لاخوات لنا ولكنهن لا زلن صامدات داخل زنازينهن محكوم عليهن بالسجن مدى الحياة مؤمنات بحتمية انتصار شعبنا ، وبفجر التحرير ·

وثمة جديد كل يوم في النضال البطولي الذي يخوضه شعبنا ضد مؤامرات التسوية الاستسلامية ، وضد الاستيطان الصهيوني المستمر لارضنا الفلسطينية ·

كما ان نضال المرأة الفلسطينية في الاردن ، اثناء معارك ايلول وما سبقها ولحقها من معارك حيث شاركت المرأة الفلسطينية مشاركة فعالة في التصدي للنظام الرجعي الاردني وحملت السلاح دفاعا عن الثورة في كافة المواقع لابلغ تاكيد على القدرات الهائلة التي تتمتع بها المرأة الفلسطينية بكافة طبقاتها الشعبية وعلى الايمان المطلق بضرورة مشاركتها في مسيرة التحرير ·

فلقد شاركت المرأة في الاردن ، مشاركة واسعة ، في النشاطات السياسية والتنظيمية والاجتماعية · والعلامة الفارقة في نضال المرأة في الاردن في شموله قطاع المرأة بكافة طبقاته الثورية في

Digitized by Birzeit University Library

الاماكن التي امت فيها التنظيع الثوري ، ولكن خروج الثورة من الاردن حال دون اتساع الظاهرة وشمولها وتجذيرها. وبقيت التجربة خالدة في صفحات نضال المرأة الفلسطينية . رغم ان ظروف النضال في الاردن كانت تختلف ، تماما ، عن ظروف النضال داخل الارض المحتلة . فالمرأة داخل الارض المحتلة في مواجهة يومية مباشرة مع العدو ، اما المرأة في الاردن فكانت معنية بالاعداد المستمر للثورة ، وحمايتها ضد مؤامرات التصفية .

لذلك ، فان سلطة التقاليد والعادات القديمة تتهاوى ، بالمواجهة المباشرة ، ولا يمكن ان يعطي الفرد فرصة للتفكير في هذه المواجهة ، وبحدود التحليل والتحريم. وتستبيح ضرورة المقاومة كل اجراء ضد العدو الذي يستبيح الارض والانسان والقيم .

اما في الاردن فان ظروف المعركة كانت تسمح بتردد الاهل ومناقشة سلطاتهم وسلطانهم بالنسبة لمشاركة المرأة جدارتها بالمشاركة ، بل اكسبها من العذابات والمعاناة القاسية ، التي كان لها مردودها على عمل المرأة ، فتمرد المرأة على سلطة الاهل ، والانخراط في الثورة ، كان عملية صعبة ، استغرقت جهدا ووقتا . ولكن سرعان ما اثبتت المرأة جدارتها بالمشاركة بل اكسبها العمل النضالي ثقة واحتراما لدى الجميع . مما كان له اثره الفاعل في اجتذاب الكثيرات الى الثورة .

وزاد صمود الثورة ، واتساع قواعدها الشعبية ، من معدلات تدفق الجماهير النسائية الى الثورة .

الا ان انحسار المد الثوري وتصفية المقاومة في الاردن اديا الى ضرب الحركة النسائية الفلسطينية ، في الصميم ، واجل عملية النمو الطبيعي في دور المرأة في العمل النضالي .

ولا زالت المرأة الفلسطينية تتصدى ، ببسالة ، لمخططات تصفية الثورة الفلسطينية في لبنان من قبل الصهيونية والقوى الفاشية والطائفية ، في آن .

ولقد شاركت ، مشاركة لا تنسى ، في معركة تل الزعتر ، وقدمت عشرات الشهيدات ، اللواتي سقطن دفاعا عن المخيم ، ودفاعا عن الثورة ، فمنهن من حملت السلاح ، ومنهن من حملت الماء للاطفال والمقاتلين .

ان بطلة كنسيمة عواضة بترت قدمها بقذيفة في تل الزعتر ، وعولجت بالملح والماء ، نتيجة لنفاذ الدواء ... ثم اصيبت بغرغرينة فقطع جزء من ساقها .. ثم امتد الالتهاب ، فقطعت ثالثة ، ورابعة ، وخامسة ، وسادسة وسابعة ، ولم يبق ، الآن ، من ساقها الا بعض من فخذها ورغم تهديد الموت ، فهي واثقة من انها ستحيا ، وواثقة من النصر ، ولم تفارق البسمة شفتيها ، رغم ان اولادها قد قضوا شهداء في تل الزعتر .

ان مئات الاطفال قد ذبحوا امام امهاتهم واخواتهم ، وعشرات الامهات ذبحن امام اطفالهن . لكن صمود شعبنا لا اعظم من ان يوصف، لقد تجاوز المأساة .. صعودا نحو الصمود ، ونحو الطريق الى فلسطين وحرية الانسان .

ولا زالت المرأة في مخيمات جنوب لبنان تعاني تجارب الاقتلاع والنزوح المتكرر دون انقطاع . انها تعلم علم اليقين ، ان مخططات العدو ترمي الى محوها عن خارطة الوجود ، ورغم ذلك فان ارادة الحياة لديها اقوى من الموت ، الذي يتربص بها في الغارات المتكررة جوا وبرا وبحرا ، او في اقتحام الارض، كما حدث اثناء احتلال الجنوب .

ان هذا العطاء العظيم من قبل المرأة

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينية ، يجب الا يأخذنا في الحماس بعيدا · فالارث التاريخي ، الذي بقي من مخلفات المجتمع الاقطاعي والعشائري ، لم تجر تصفيته بعد ·

وظروف المعيشة داخل المخيم وخارجه، وطبيعة حياة الاسرة الفلسطينية والتقاليد والعادات التي تكبل المرأة والمسئوليات التي يطرحها العمل المنزلي وتربية الاطفال كلها معوقات تحول دون مشاركة النساء النشيطة في الثورة ·

ان القهر القومي والاستلاب الاجتماعي والاقتصادي ، الذي تنؤ باعبائه المرأة الفلسطينية ، لا بد ان يوظف ، في طريقه الصحيح ، لمصلحة نضال المرأة ·

ذلك ان مشاكة المرأة الفعلية في الثورة لاتعني البطولات الفردية ولا المشاركة العفوية بل المشاركة المنظمة والدؤوبة لجماهير النساء في كل المهمات الثورية·

والتصدي لهذا الموضوع بالذات يكشف مدى الغبن والاضطهاد والاستلاب الذي تعيشه المرأة الفلسطينية ، وحين اتحدث، هنا ، عن المرأة لا اتحدث عن الطلائع النضالية من نسائنا الفلسطينيات ، اللواتي أتاحت لهن ظروف اجتماعية وطبقية معينة امكانيات المشاركة البارزة في الثورة ، رغم ما لهؤلاء من وضع بائس خاص بهن وبظروفهن ، ولكني أتحدث عن عشرات الالاف من النساء الفلسطينيات اللواتي هن بحاجة الى التفاتة الثورة ، التفاتة حقيقية نحوهن· فلقد كانت مشاركة المرأة الفلسطينية في الثورة ، ومنذ البداية ، بمبادرة من قبل المرأة نفسها ، ولم تتوجه الثورة نحو تنظيم المرأة ، بل كان تنظيم المرأة **مستهجنا ومرفوضا من قبل الكثير من كوادر الثورة الفلسطينية وقياداتها · ان سلوك فصائل حركة المقاومة الفلسطينية تجاه المرأة يكرس ، يوميا ، تخلف المرأة السياسي ·· ويكرس في نفس الوقت تخلف الثورة تجاه موضوعة المرأة ·** ذلك ان موضوعة المرأة بكاملها لم تحظ بجانب من اهتمام الثورة ·

ولم تجرؤ المنظمات الجماهيرية كما لم يجرؤ **الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية** ، على طرح هذا الموضوع ، بجدية ، لخضوعة (للتابو) الكبير ، الذي فرضته الثورة حول هذا الموضوع ·

ان موضوعة المرأة لا يجوز ان تظل في دائرة المحرمات ، ويبقى النضال النسائي يراوح مكانه ، عاجزا عن التصدي لكل طموحات نساء شعبنا وطموحات جماهيرنا ·

لقد اصاب التغيير الكبير مجتمعنا الفلسطيني ، تخلخلت البنى الاجتماعية القديمة وتداعت ، وافسح المجال ، واسعا، امام عمل المرأة ، وخطت خطوات حثيثة نحو التحرر الاقتصادي ، وقبول وضعها السابق داخل الاسرة والمجتمع نتيجة لذلك ·

وهذا يعني ان تغييرا كبيرا اصاب المفهوم الخاص بدور المرأة · الا ان البعض ، وحتى هذه اللحظة لا يريد ان يعترف بضخامة هذا التغيير ·

ان مشاركة المرأة في الثورة ، ومشاركتها في العمل العسكري ، الذي تم حتى الآن داخل المدن ·· لا يدل ، فقط، على مدى التغيير الذي اصاب مجتمعنا ، بل ويدل ، ايضا ، ان مجتمعنا لا يخطىء في تقييم مسائله القدسة ، وفي مقدمتها موضوعة الثورة ، ومن يتصدى لحمل هذه المسؤلية · لكن هذه المسألة ترتبط ، ارتباطا وثيقا ، بمد الثورة وجزرها · وفي مثل هذه الحالة نستطيع ان نرصد ، بموضوعية ، موقف الجماهير من قضية المرأة ، الذي يتحرك كالبوصلة·

ان قوة التقاليد ، التي تحد من امكانيات المرأة وتنتقص من دورها ، تعود لها قوتها وسطوتها في فترات الركود

Digitized by Birzeit University Library

الثوري · لذلك لا بد من اخراج العمل النسائي من دائرة العفوية ابان الانتفاضات والثورات ·

ان استنهاض الجماهير ، وتنظيم النساء، لا يعني تحدي التقاليد والتصدي لها ، ولكنه في الوقت نفسه ، لا يعني ، اطلاقا، الخضوع للتقاليد بخيرها وشرها · ذلك ان كثيرا من التقاليد والقيم والافكار تحمل طابعا شديد السلبية بخصوص المرأة ، مما يقف حجرة عثرة في وجه نضالها ·

اضافة الى ذلك ، فان الكثير من هذه القيم والتقاليد والافكار السلبية الخاطئة قد تسللت الينا عبر عصور الانحطاط وعهود الاستعمار ·

ان الخضوع لها والاستسلام لنطقها يعني القبول بقيم دخيلة ، بعيدة ، كل البعد ، عن مكونات تراثنا وعن طبيعة شعبنا ·

ان ضرورة العمل المكثف بين النساء لا يزال ضرورة ملحة ، يجب على الثورة ان تكثف الجهود من اجلها ·

كما يجب تدعيم الاجهزة المتخصصة في العمل النسائي مع التركيز على المكاتب الخاصة بالمرأة ··

اننا بحاجة الى جهود خاصة تبذل من اجل بناء المجتمع الفلسطيني على اسس نضالية ، الى جانب قتال العدو ·

ان النضال الخاص في صفوف النساء يجب ان يجرى ، اساسا ، من اجل تربية القوى النسائية القيادية من بين صفوف آلاف النساء ·

والتخصص في هذا العمل مهمة شاقة ومضنية ، ولعلها اشق ، بعشرات المرات، من غيرها من المهمات ·

انني لا ادعو لتنظيم مستقل للمرأة ، فلدينا **الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية** · اننا بحاجة الى اتحاد او تنظيم يتمتع بحد من الاستقلال الذاتي داخل صفوف الثورة ، فنحن مضطرون للاخذ بعين الاعتبار تخلف المرأة وعبوديتها داخل الاسرة · ولا يمكن حل العقدة بالقفز فوق الواقع ، والادعاء بان ليس هناك ضرورة للعمل المستقل في اوساط النساء او ان المرأة ليست بحاجة الى العمل في صفوفها من اجل توعيتها بدعوى انها تعي القضية اكثر من المثقفات ! ! او ان المرأة الفلسطينية مسيسة بحكم واقعها !! ان المسألة لا تحل بهذه الطريقة التبسيطية ولدينا حركة نسائية لا زالت متخلفة ، رغم تراثها الطويل · والنساء المنظمات يشكلن نسبة ضئيلة في فصائل المقاومة الفلسطينية · ولا يعنيني هنا حجم النساء اللواتي يخرجن للتظاهر او للتطوع كلما ارتفعت حدة الاحداث ، لان العفوية التي تخرجهن الى الشوارع في سخونة الاحداث هي نفسها التي تشكل عامل الحذر ، في حالة هدوء الاحداث ·

ان الذي يجب أن يتفق عليه هو وسائل واساليب التحريض والنضال ، الواجب اتباعها في صفوف النساء ·

فتلك النظرة اللامتساوية تواصل عزلها للمرأة ، وتستمر عملية عدم المساواة في الظروف الحياتية ، بالنسبة للرجل والمرأة في الاسرة وفي العلاقة بين الجنسين كما وانها تحتل دورا ثانويا في مجالي السياسة والعمل الا نتاجي ·

ان نسبة مشاركة المرأة في الاتحادات الشعبية الفلسطينية لا تزال محدودة جدا· ونسبة مشاركتها في المراتب التنظيمية العليا لدى فصائل المقاومة المختلفة متدنية جدا · ولا مكان لها في قيادة هذه المنظمات ·

وينعكس ذلك ، بوضوح ، حين نطالع نسبة مشاركتها في **المجلس الوطني الفلسطيني** · فمن اصل ٣٠٠ عضو ، مثلت القطاع النسائي ، في المجلس الاخير، ١٢ سيدة فقط ، ان ذلك لا يعكس سوى

Digitized by Birzeit University Library

تخلف نظرة الرجل في الثورة تجاه المرأة الفلسطينية ودورها ، ولا يصدر الا عن موقف ايديولوجي رجعي · ونعود هنا بالذاكرة قليلا الى الوراء ، حيث ان **المجلس الوطني الاول** ، الذي عقد في مدينة القدس بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٦٤ ، كان قد اتخذ قرارا ينص على اشراك المرأة الفلسطينية العربية في جميع مجالات العمل التنظيمي والنضالي ومساواتها بالرجل ، في جميع الحقوق والواجبات ، من اجل تحرير الوطن ·

ومنذ ذلك التاريخ ، وعلى مدى السنوات الخمس عشرة لم يلتفت **المجلس الوطني الفلسطيني** ، ولم تلتفت قيادة الثورة الى هذا القرار ، الذي بقي حبرا على ورق ·

فحتى هذه اللحظة ، ورغم ان القوانين طورت لمصلحة النساء ، حتى في اشد بلدان العالم تخلفا ، الا ان قوانين **منظمة التحرير** الخاصة بهذا الموضوع بقيت على حالها ! وترتفع سنويا ، نسبة النساء العاملات في مؤسسات **منظمة التحرير** . وفي مؤسسات فصائل الثورة ، ورغم ذلك ، فان الانظمة الداخلية لهذه المؤسسات تخلو من اي اشارة خاصة بموضوعة المرأة ، ذلك ان هذه الانظمة موضوعة للرجال فقط · لذلك فان قضيتها ، كأم ، تسقط من اعتبار هذه المؤسسات ولم تتوفر بعد ، اي اهتمامات جدية بدور الحضانة ، ورياض الاطفال ، ومراكز الامومة والطفولة ، وكل ما يتعلق برفع الاعباء عن كاهل المرأة العاملة وفسح المجال امامها ، لتوسيع مشاركتها في مجالات العمل الثوري المختلفة ·

انه لا يجوز التمادي في اسقاط قضية المرأة بهذه الصورة · فلا بد ان تكون حاضرة ، دائما ، على جداول اعمال المجالس الوطنية وكافة الاجتماعات التي تعقد لبحث قضايا شعبنا · ذلك ان شعبنا لا يحيا حياة سياسية فقط ، فله اوضاعه الاجتماعية والمعاشية التي يجب ان تنال حقها من الدراسة والبحث واتخاذ القرارات · ولا اريد ان اتعرض هنا للامراض التي تفتك بالواقع الفلسطيني، وعلى وجه الخصوص بواقع المرأة ، والتي يتم القفز عنها يوميا ··· فان لذلك بحثا آخر ·

واتساءل كيف نستطيع ان نخوض حرب الشعب ، دون مشاركة عشرات الآلاف من النساء الفلسطينيات نصف الشعب ، وكيف نستطيع ان نحرر الارض ، ونبني وطن المستقبل الحر الديمقراطي ، الذي لا يعترف بالفوارق العرقية والطائفية ، دون انهاء الفوارق الانسانية والتمييز ضد المرأة · **ان المرأة الفلسطينية بحاجة للاعتراف بدورها ، وبحقوقها من قبل الثورة** ·

وهي ليست بحاجة الى برامج خاصة بها، فلدينا الآف البرامج الجميلة الواعدة، والكوادر النسائية تعرف ان **السبيل الوحيد للوصول الى تحرير المرأة يمر عبر الالتحام الكامل بالثورة** ، حيث، وعبر النضال ، تجري عملية التحول الايجابي لدى دور المرأة ، الذي يساهم ، في الوقت نفسه ، في تحديد مسار الثورة ونتائجها ·

لكن هذا الامر ، بالذات ، لا يجري تلقائيا · بل يحتاج الى جهود فعلية ، من قبل قيادات الثورة ، وتوجها في برامجها الداخلية تجاه المرأة ، وعلى مستوى تربية الكوادر من الجنسين ·

هذا، بالاضافة الى ان القيادة الفلسطينية مطالبة بمعالجة جادة للاوضاع الاجتماعية للشعب الفلسطيني · والعناية بتنظيم حياته الاجتماعية (وانا لا اقصد هنا اسر الشهداء والجرحى فحسب) ذلك انها معنية ، وحتى الآن ، بالجانب

Digitized by Birzeit University Library

السياسي من حياة شعبنا فقط . ان هذا الشعب الذي يبذل دمه رخيصا من اجل الثورة . وهو على استعداد ان يبذله في كل لحظة . لهو على استعداد ان يحمل التقديس للقيم والنظم التي تنتهجها . ولكنها قصرت في هذا المجال .

لقد تداعت على ارضية الثورة القيم الاقطاعية والعشائرية ، وتتداعى ، يوميا، القيم الرأسمالية . مكونة ايديولوجيا جديدة . **ايديولوجيا** خاصة بالطبقات الثورية . صاحبة المصلحة الحقيقية في النضال وفي التحرير .

ان اخلاقا ثورية جديدة ، تنمو على ارضية الثورة . في مواجهة القيم القديمة التي تحملها القوى المضادة للثورة .

والثورة لا تستطيع تدعيم مواقعها الاجتماعية والسياسية . في نضالها المستمر . الا بواسطة هذه القيم الروحية الجديدة التي تتناسب ومهامها . والقول باننا في حركة تحرر وطني . حيث لا يجب التصدي للمهام الاجتماعية ، او ان التغيير في القيم يجب ان يسبقه بالضرورة، تغيير في القاعدة الاقتصادية. ليس سوى كلاما مردودا على اصحابه . وليس له اساس من الصحة . فلقد علمتنا تجربة التاريخ **ان القيم الجديدة تبنى في قلب النضال الثوري ، وليس بعد انجاز المهام الثورية .**

ان الثورة الفلسطينية فصيل اساسي وطليعي من فصائل حركة التحرر الوطني العربية . والمهام المطروحة على عاتق هذه الحركة متعددة ومتشابكة ، يترافق فيها النضال من اجل تحرير الاجزاء المغتصبة من الوطن العربي . مع مهام تحرر الاجتماعي . ذلك ان مهام النضال العربي لا تقف عند حدود النضال من اجل تحرير الاجزاء المغتصبة من الوطن العربي ، بل تتعداها الى النضال من اجل تصفية النفوذ الامبريالي وانهاء التجزئة والتفرقة الطائفية والقومية والعشائرية ، وانهاء التمييز ضد المرأة واستغلال الانسان للانسان .

ان الثورة الفلسطينية معنية ، مباشرة، بالقضايا الملحة المطروحة على عاتق قوى الثورة العربية . فلقد اثبتت معارك لبنان والاردن ، ذلك التلاحم الرائع بين النضال الفلسطيني ونضال الجماهير العربية . المعنية ، مباشرة ، بقضية التحرر وبنضالاتها الاجتماعية اليومية ، في الوقت نفسه .

من هنا فان التصدي لحل المشكلات الاجتماعية لشعبنا يصب مباشرة في قلب النضال المباشر لقوى الثورة العربية ، ويدفع النضال العربي قدما نحو تحطيم اصنام استغلاله .

ولا يسعني الا ان اؤكد ، مرة اخرى، بان **تحرر المرأة الفلسطينية مرتبط ، اساسا ، بالنضال من اجل تحرير الطبقات المستغلة** . وانهاء التمييز بكافة اشكاله ، سواء بسبب الدين او العرق او الجنس . وطالما ان الثورة الفلسطينية قد طرحت حلها الانساني للقضية الفلسطينية ـ الحل الديمقراطي العلماني ـ فانه يترتب على الثورة الفلسطينية وعلى المرأة الفلسطينية ان تعمل منذ الآن من اجل ارساء اسس المساواة في المجتمع القادم .

Digitized by Birzeit University Library

التحول الطبقي في ظل الانتداب *

طلال اسعد

ترجمة : خزامى نصّار

تطور الوضع الطبقي للفلاحين العرب ضمن بنية تاريخية اجتماعية معينة ، ويتضح ذلك بتحليل صلة نمط الانتاج الرأسمالي بآخر غير رأسمالي ، ومن الضروري ، في هذا المقال ، ملاحظة كون جنوبي سوريا لم تضم وحدات تتمتع باكتفاء اقتصادي ذاتي ، خلال الحكم العثماني · لم يكن سكان الريف في المنطقة التي اصبحت فيما بعد تعرف بفلسطين تحت الانتداب ، ينتجون من المحصول ما يكفيهم فقط ، بل للطبقات المالكة ايضا · وبالرغم من ان معظم المزارعين ، عموما ، يمكن ان يستهلكوا ما ينتجون ، الا ان المزارعين في فلسطين لم يستهلكوا كل ما كانوا ينتجونه · وكانت الدولة العثمانية هي الجهة المباشرة التي تستولي على الفائض ، وذلك عن طريق سماسرة الضرائب ، وفيما بعد عن طريق ملاكين التزموا بجبي الضرائب ** · فمنذ بداية القرن التاسع عشر تورطت الدولة العثمانية (وبشكل خاص في سوريا الجغرافية) بعلاقات مع السوق الاوروبية الرأسمالية ، مما زاد من حاجة الاتراك الى الفائض المنتزع من الفلاحين ، وساعد على تغيير الصيغة القديمة لعلاقات الانتاج ، وسهل تدفق الفائض ·

قبل قرون من هذا التحول ، كان اقتصاد المنطقة يتميز بمصانع المدن ، والتجارة بين المسافات البعيدة ، والطابع الزراعي المتميز من منطقة الى اخرى ، والاسواق المحلية

★ هذا المقال مترجم عن :

Talal Asad , Class Transformation Under the Mandate . MERIP REPORTS (Washington) No. 53 , December , pp. 3 - 8.

★★ فئة طبقية من الملاك العقاريين تلتزم امام الدولة بجبي الضرائب من المزارعين ، في حين تقتص لنفسها جزءا من الاموال المجباة ·

Digitized by Birzeit University Library

للانتاج الزراعي واليدوي · لكن انتاج الفلاح كان وحده ، المرتبط بطريقة غير مباشرة (حتى لو كان ارتباطه مباشرا فبصورة هامشية) ، بنظام تداول اقليمي وقاري ·

وتلتصق ارض القرية بالقرويين (نظام الحمايل) ، بشكل نموذجي ، وتعمل بها مجموعة من العائلات تربط روابط نسب من طرف الاب بين رؤوس هذه العائلات ، وهي التي حددت الضرورة المشتركة وقانون تقاسم الارض من جيل الى اخر (نظام المشاع) · وتشكل العائلات مع بعضها البعض ، وحدات انتاج واستهلاك(١) · والتفاوت الناشىء عن نظام توزيع الملكية هذا لا يحدد الوضع الطبقي لمزارعي القرى · ولهذا يجب الالتفات الى قوى وعلاقات الانتاج غير الرأسمالي الضعيفة المرتبطة مع النمط الرأسمالي الاوروبي الاقوى ، بما لا يقاس · ان القوى هي التي تنتج الفائض ، والعلاقات هي التي تحدد نموذج الاستيلاء والسيطرة على الفائض الناتج · وفي هذا المعنى ، فان قوى وعلاقات الانتاج تأخذنا ، بالضرورة ، الى خارج نطاق سكان القرية ·

في زمن الدولة العثمانية كانت اعلى الضرائب تفرض على الاراضي الفلسطينية الاكثر خصبا (الاراضي الساحلية والسهول ، ومرج ابن عامر) · ولكن ، بالرغم من هذه الحقيقة ، فهذه اكثر الاراضي ازدحاما بالسكان · وبعكس المناطق الاخرى ، المعرضة لعدم انتظام سقوط الامطار وللرياح الصحراوية المؤذية ، فان اقصى التقلبات في المحصول لا تسبب مشكلة للفلاح · وهكذا ، فان النتيجة المؤكدة لمحصول جيد ، مقابل جهود الفلاح كانت شرطا لخضوعه لستغليه ·

خلقت محاولة الدولة العثمانية تسجيل سندات ملكية الاراضي ، لاسباب تتعلق بالضرائب (بدأت العملية عام ١٨٥٨) ، نموذجا في التغيير ، ادى الى ايذاء الفلاحين · اذ كان القصد هو تأمين تسجيل السند بأسماء المزارعين مباشرة ، ورفض اي وسيط بين الحكومة والملاكين الصغار ، لتتمكن الدولة من الاستئثار باقصى حد من الضريبة لنفسها· ولكن ، في حالات كثيرة ، « خاف الفلاحون من ان تكون عملية التسجيل مقدمة لطلبهم الى الخدمة العسكرية ، او لاغراض تتعلق بالضرائب ، فزيفوا الكشوفات الرسمية ، وسجلوا الاملاك اما باسم رئيس العشيرة ، او باسم احد افراد العائلة ، الذي يمكن ان لا تنطبق عليه شروط الخدمة · عمليا ، تجاهلوا سندات الطابو ، واستمروا في اتباع نظام المشاع ، معتبرين حاملي السندات القانونية هم المالكين الحقيقيين للارض »(٢) ·

---

(١)

CF . D . Warriner , « Land Tenure Problems in the Fertile Crescent » in C . Issawi (ed.) *The Economic History of the Middle East : 1800 - 1914* , Chicago , 1966 , PP . 75

(٢)

D. Warriner . *op. cit.*, p. 75

Digitized by Birzeit University Library

يمكن فهم الاهمية الطبقية للتغيرات التشريعية فقط عند اعتبار « **قانون الارض** » لعام ١٨٥٨ مؤشرا على زيادة معدلات انتاج الفائض من قبل المنتجين الفلاحين · ان بناءه الفوقي ، وصفته غير الجوهرية ليسا الا خداعا · ففي المناطق الاكثر انتاجا ، وخاصة في السهول الاشد خصبا وازدحاما بالسكان ، اعاد « **قانون الارض** » علاقات الخضوع بين المزارعين المدينين والمرابين (تجار او نبلاء) ، وعززها · وهكذا ، اصبحت الارض اداة لمضاعفة استيلاء المستغلين على انتاج الفلاح ، وليس سببا لسوء فهم قانوني وخداع ، فحسب ·

ان ضعف صناعة الفلاح اليدوية ومصانع المدن (وبخاصة النسيج) في وجه المنافسة الاوروبية ، خلال القرن التاسع عشر (٣) ، زاد من اعتماد الفلاحين على الارض ، ومن ثم اتجهوا نحو التخفيف من موقفهم المنافس ، فيما يتعلق بالارض الاكثر خصبا وغناء (بالذات المناطق حيث الملكيات الواسعة هي السائدة) · ان قدرة المزارعين على زيادة كمية الفائض من الانتاج ، مهما كانت على مضض ، بدأت تميل نحو الطلب المتزايد على الطبقات المدنية غير المنتجة لاستهلاك المنتوج الزراعي ـ جزئيا ، بشكل مباشر ، وايضا في التبادل مع البضائع المستوردة من اوروبا الرأسمالية ·

وبشكل عام ، استمرت هذه الحركة خلال النصف الاول من القرن العشرين ، الا انها اصبحت اكثر حدة وتعقيدا بعد الحرب العالمية الاولى، مع التوسع المضطرد لانتاج رأسمالي ضمن الاراضي الفلسطينية ، وتركزت ، في البداية ، في تزايد المستوطنين الاوروبيين (اليهود) في شكل استعمار اوروبي (بريطانيا) ·

■ تاسيس نظام اوروبي (انجليزي)

وضع انشاء نظام اوروبي (انجليزي) فوق ارض فلسطين المتطلبات الاساسية لزرع قطاع اوروبي (اليهود) رأسمالي (٤) · والنمو المطرد لهذا القطاع ، والذي تم الحفاظ

---

(٣) Cf. I. M. Smillanskaya « The Disintegration of Feuda Relations in Syria and Lebanon in the Middle of the Nineteenth Century » in C. Issawi (ed.) *The Economic History of the Middle East : 1800, - 1914*, Chicago, 1966.

(٤) ٦٠ كانت فلسطين قبل الحرب بلدا زراعيا ، في الاساس · والصناعات التي ظهرت، فيما بعد ، كانت ذات طابع زراعي · والصابون والخمر ، البدائيتي التصنيع كانتا الصناعتين الوحيدتين المنتشرتين بشكل واسع · وكانت اعداد كبيرة من الصناعات التقليدية ، والتي تعتمد على استخدام اليد او الحيوانات ، منتشرة ايضا ، وتتضمن هذه : عصر الزيتون ، نسج السجاد والبسط ، والملابس العربية ، وغطاء الرأس ، وصباغة الانسجة ، وصناعة الزجاج ·

Digitized by Birzeit University Library

عليه ودعمه في البداية عن طريق المستوطنين الاوروبيين والرأسمال الاوروبي يمثـــل مستعمرة في مفهومها القديم (شمال امريكا ... الخ) في بعض نواحيه ، هو ، توسع مستقل بذاته نسبيا لرأسمالية مركزها اوروبا ، كنظام انتاج وبناء هيكلية قوة . اذا اخذ السكان بعين الاعتبار ، فان القطاع الاوروبي (اليهود) كان دائما اصغر من القطـاع الفلسطيني (العرب) ـ بالرغم من انه ، وبسبب الهجرة ، ازداد من ١٠٪ الى ٣٣٪ من اجمالي السكان ، خلال فترة الانتداب (٥) . الا ان الميزة الفعلية للدولة الاوروبية (انجلترا) المستعمرة ضمنت الامد الطويل للنمو الاقتصادي لنمط الانتاج الراسمالي ، على حساب النمط غير الرأسمالي ، بالرغم من انه حال دون القضاء التام على الاخير . واخفيت هذه

« ٧ ـ بعد الحرب العالمية الاولى ، عندما جلب المهاجرون اليهود معهم الى البلاد ، الرأسمال وخبراتهم الصناعية ، انشئت اعدادا من المصانع الصغيرة ، التي تنتج مختلف الادوات ، وبعض المصانع الكبيـــرة لانتـــاج الاسمنت ، الزيوت النباتيـــة ، طحين ، والجوارب النسائية .

« ٨ ـ في عام ١٩٢٧ ، بدأت سياسة حماية الصنـــاعة المحلية ، واصبح تعبير « الصناعات الوليدة » جزءا من اللغة الماليـــة في فلسطين . واعفيت الاليات ، وبعض المواد الخام والمواد شبه المصنعـــة ، التي تستورد لاستخدامها في الانتاج ، من الرسوم الجمركية ، بينما ، في حالات معينة ، زادت الضرائب على المواد الجاهزة . وحيثما كان من الصعب اعفاء المواد المستوردة للاستعمال في الانتاج المحلي والصناعة المحلية التي تصدر للخارج من ضريبة الاستيراد ، انشيء نظام لاذونات السحب ، يسمح ، في الحالات التي تم اقرارها ، باعادة رسوم الاستيراد المحصلة عند التصدير . وهذه الرسوم المعاد دفعها تشكل جزءا كبيرا من ضريبـــة الاستيراد المفروضة على المواد المستوردة ، والتي تستخدم في الانتاج المحلي . وشمل التصنيـــع الواســـع ، حينذاك ، استخراج الاملاح المعدنية من البحر الميت ، الطعام ، المشروبات ، السجائر ، التبغ ، مواد البناء ، المعادن ، الاثاث ، النسيج ، البضائع الجلدية ، الاسنان الاصطناعية ، الكبريت ، الملابس ، والمواد الكماوية ... »

Palestine Royal Commission Report (HMSO) , London , 1937, pp. 208-9.

(٥) استوطن معظم هؤلاء المهاجرين الارض ، لكن الغالبية العظمى منهم شكلوا ضغطا على السكان المدنيين في فلسطين . « زاد عدد الفلاحين ، ولكن نسبتهم الى مجموع السكان الكلي انخفضت من٦٥٪ فيعام ١٩٢٢ الى ٥١٪ فيعام ١٩٤٤ (٠٠٠) وغالبية سكان الريف مسلمون ، بينما غالبية المستوطنين اليهود قطنوا المدن ، حيث شكـــلوا نصف مجمـــل سكان المدن في فلسطين »

D. Warriner , *Land and Poverty in the Middle East*, London , 1948 , P . 55

وحسب غرانوت (*A. Granott*) ، الذي كان يكتب عن نفس الفترة تقريبا ، « وبالرغم من مرور عشرات السنين على بدء العمل في تقسيم الاملاك المجمعة ، الا ان نحو نصف

Digitized by Birzeit University Library

العملية الرئيسية باخضاع الطائفـــة اليهودية سياسيا ، اسوة بالسكان العرب ، للادارة الانجليزية · بمعنى اخر ، فان المفهوم لشكل سياسي ثابت في تاريخ الفلسطينيين · قبل وبعد عام ١٩١٨ (« كانت الطائفتان خاضعتين اولا للحكم العثماني ثم البريطاني ـ اي دائما لطرف اجنبي ») يغطي حقبة بنيوية حقيقية ، تتمثل بالانتداب ، لان الطائفة اليهودية المحلية القديمة (٦) ، كانت جزءا مكملا لبنية اجتماعية غير رأسماليـة، وكانت الادارة العثمانية المحلية جهازا لدولة غير رأسمالية ·

اظهر معظم الذين كتبوا عن فلسطين ، مرحلة الانتداب وكأنها مواجهة سياسية بين كتلتين قوميتين ، كل منهما تتطلع الى طرد الاخرى ، والهيمنة على اقتصادها (٧) ـ صراع سياسي انتهى اول مظاهره مع انتهاء الانتداب واقامة دولـة قومية مـن احدى الكتلتين المتنازعتين · ولكي ندرك التنظيم المتغير للفلاحين العرب ، فمن الضروري البدء بسرد مجموعة مختلفة من المفاهيم : الربط بين نمط انتاج رأسمالي وآخـر غيـر رأسمـالي ، بواسطة الدولة البريطانية المستعمـرة · انه ، فقط ، على ضوء هذه المفـاهيم تستطيع المظاهر المستمرة (مثلا تسجيل الدولة لسندات الاراضي الزراعية ، والتي بدأها العثمانيون

←

القرى في فلسطين ظل يملك اراضيه ، على الاقل رسميا ، بطريقة المشاع » ·

The Land System in Palestine , London , 1925 , P. 178 .

ويعمل معظم السكان العرب في الارض ، وما عدا بعض العمال المأجورين (وخاصة في مزارع الحمضيات) فان للغالبية السيطرة المباشرة على اراضيهم ـ في اشكال مختلفة من حقوق الملكية التي كانت سائدة ·

(٦) من ناحية ، البنية ، كما من الناحية الحضارية ، فان اليهود المدنيين في الدولـة العثمانية تميزوا عن المعمرين الاوروبيين الجدد · فالعديد منهم موظفو دولة ومزارعون دافعي الضريبة ، مع الرعايا العثمانيين المسلمين والمسيحيين · فمثلا « ان عائلة المصرفي (اليهودي) فرحي ، والتي كان لافرادها تاثير ملحوظ على الحياة الاقتصادية والسياسية في ولايتي دمشق وعكـــا ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، حيث امتلكت رمام عدة قرى (في فلسطين) ، كمزارعي دافعي ضريبة ·

A. N. Poliak , *Feudalism in Egypt, Syria, Palastine and the Lebanon 1250-1900,* London , 1939 , p. 52 , n. 5.

وسواء كانوا يعملون في التجارة او المؤسسات المصرفية او الحكومة ، فان جذور الطائفة اليهودية القديمة تكمن في نمط انتاج غير راسمالي ·

(٧) وهكذا فان كتاب :

S.N. Eisenstadt, *Israeli Society* , London , 1967.

يبحث في تطور الطائفة اليهودية ، خلال فترة الانتداب ، دون ان يتطرق ، فعليا ، الى العرب الفلسطينيين · وفي مقدمة كتاب :

←

Digitized by Birzeit University Library

وواصلها الانجليز) ان تكشف حركاتها المتناقضة · لان دولـة الانتداب الانكليـزي هي وليست الدولة العثمانية ، التي ارست المتطلبات الاساسية لنمو القطاع الرأسمالي النسبي والتام (٨) (بما فيه الصناعة والزراعة) ، على حساب القطاع غير الرأسمالي (ومعظمه من الفلاحين) في فلسطين ·

اعتمدت ادارة الانتداب بناء ماليا سهلا ، قوامه الاستيلاء على الفائض من القطاع غير الرأسمالي ، وتحيزه الجزئي الى توسيع القطاع الرأسمالي ·

كانت ضريبة الملكية الريفية ، بالرغم من انها لا تشكـل جزءا رئيسيا مـن موارد الحكومة ، تشكل عبئا كبيرا على المنتجين الفلاحين الذين يدفعونها (٩) · ويبدو ان نظام

⋙

The Arab Labour Force in Israel, Jerusalem , 1966 , Y . Ben Porath.

كتب المؤلف يقول « في فترة الانتداب شكل القطاعين العربي واليهودي ، فعليا ، وحدتين اقتصاديتين منفصلتين » (ص ١) · ومما لا يتعارض تماما مع هذه النظرية هو الايحاء ، من قبل كتاب آخرين ، بانه نتج عن تطور الهجرة اليهودية تأثير جانبي ، افاد الاقتصاد العربي المتخلف ـ انظر مثلا كتاب :

D . Horowitz , « *Arab Economy in Palestine* » In J . B . Hobman (ed.) *Palestine's Economic Future* , London , 1946 .

(٨) خلال فترة الانتداب ، ارتبط نمو القطاع الفلسطيني الرأسمالي ، بشكل واضح ، مـع تدفق الرأسمال اليهودي من اوروبا ·
(N. Halevi and R. Klinov - Malul , *The Economic Development of Israel*, New York , 1968 , pp. 21 - 2) .

والذي بقي معظمه في القطاع اليهودي ·
(E. Asfour , « The Economic Framework of the Palestine Problem » in W . R . Polk , D. M. Stamler and E . Asfour. ***Backdrop to Tragedy***, Boston. 1957. pp . 333 - 6)

« كانت اهم التغييرات في مجال الصناعة ارتفاع حصة الصناعة في الدخل القومي ، من ٢٦ بالمئة عام ١٩٣٦ الى ٤١ بالمئة عام ١٩٤٥ . وبشكل رئيسي على حساب قطاعـات البناء ، والتجارة ، والمال · وحيث ان الارقام الموازية للقطاع العربي تشير الى ان حصة الصناعة انخفضت ، من ١٣.٦ بالمئة الى نحو ١٠.٨ بالمئة ، فانه من الواضح ان ذلـك الارتفاع حدث في القطاع اليهودي فقط » ·
N . Halevi and Klinov - Malul ,*op. cit.*, p. 26.

(٩) في السنوات الصعبة ، وهي غير نادرة ، عجز معظم المزارعين عن دفع الضرائب ، حيث توجب على الحكومة ان تساعدهم بتقديم القروض لشراء البذور · وفي تقرير ، تقريبا ، كل تقرير سنوي ، صادر عن وزارة المستعمرات حول ادارة فلسطين وشرق الاردن ، على قيود مفروضـة على الضرائب التي عجز القرويون عن دفعهـا ، نتيجـة لسوء المحصول في بعض المنـاطق ·

Digitized by Birzeit University Library

الضرائب المفروض على الزراعة ، والذي طورته الادارة البريطانية (١٠) ، قد ساهم في زيادة ديون الفلاحين (١١) · ومع مرور الزمن تحول الدين من الدائنين الى الادارة البريطانية (١٢) · ومن الجدير بالذكر ، بان هذه الضريبة كانت تجبى على شكل نسبة مئوية ثابتة من صافي انتاج الارض (بدون تكاليف الانتاج) ، ولهذا ، فان المؤسسات الزراعية اليهودية التي تعتمد على رأسمال كبير ، دفعت ضرائب اقل نسبة الى الانتاج الاجمالي ، واحيانا لم تدفع اية ضريبة بسبب ارتفاع « اجور العمال » نسبيا (١٣) ·

(١٠) للمزيد من التفاصيل حول النظام البريطاني لموارد الارض انظر :
M . F . Abcarius , « The Fiscal System » in S . B . Himadeh (ed .) *The Economic Organisation of Palestine* , Beirut , 1938.

(١١) « تراكمت الديون على القرويين في الفترة السابقة للحرب (العالمية الاولى) ، ولكن بقدر اقل من تراكمها خلال الحرب » ·
G. Hakim and M . Y . El - Hussayni , « Monetary and Banking System ». in S. B Himadeh (ed.) , ***op. cit.***, p. 497

(١٢) بجانب مقرضي الاموال والحكومة ، فالمصدرين الرئيسيين للديون قصيرة الاجل للمزارعين العرب كانا جمعيات القروض التعاونية في القرى العربية (والتي كانت تقترض الاموال من **بنك باركليز** بنسبة ٦ بالمئة ، وتقرضها للاعضاء بنسبة ٩ بالمئة) كما كانت الفروع المحلية **لبنك باركليز** (تقرض بفائدة ٩ بالمئة) · « وبلغ مجموع الديون الموسمية المدمة من **بنك باركليز** ، خلال السنوات ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ : ٢٣٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني ، وتسدد الديون بالتقسيط ، ويستحق دفعها ما بين منتصف ايلول ونهاية كانون الاول» ·انظر:
G. Hakim and M.Y. Hussayni , *op. cit.* , pp. 498 - 500.

(يجب ملاحظة ان **البنك العثماني الزراعي** انتقد ، لاسهامه في عدم استقرار الفلاحين في فترة ما قبل الانتداب ، وذلك باقراضهم بفائدة مقدارها ٦ بالمئة · انظر :
A. Granott , op. cit., p. 60) .

ومغايرا لهذا النموذج المألوف لديون الفلاحين ، فان الديون في القطاع الزراعي اليهودي كانت عبارة عن استثمارات انتاجية · (انظر :
(G. Hakim and M.Y. Hussayni, ***op. cit.***, pp. 502 - 4)

(١٣) « ان لديها (المستوطنات الزراعية اليهودية) قوة عاملة تفق احتياجات العمل ، بالنظر الى هذا القدر من الاليات (···) ولا توجد اية تفاصيل عن الكشوفات المالية لسبع عشرة مستوطنة في منطقة حيفا ، والتي قدمت للحكومة ، خلال فترة الحرب ، لتبرير استمرار الحكومة في تقديم المعونات المالية (···) تظهر ··· بأن غالبية المزارع لا تغطي حتى النفقات الرئيسية او الايجارات ، وانه لا توجد اية مزرعة غير مدينة » ·
D. Warriner . ***op. cit.*** , pp. 69 - 70 .

Digitized by Birzeit University Library

وبتعبير آخر فان مستوى المعيشة المنخفض للفلاح العربي المنتج اصبح ، بشكل غير مباشر ، سببا في قيام الدولة بدعم المستوى المعيشي الاعلى للمهاجر الاوروبي العامل في الزراعة اليهودية ·

وتشكل الضرائب غير المباشرة الى حد بعيد ، اهم مصادر دخل الحكومة · ولكن معظم هذه الضرائب ، لانها مفروضة على الكماليات ، كانت مجحفة ، ويقع معظمها على كاهل اكثر السكان فقرا (الفلاحين العرب) ١٤ (انظر الجدول رقم ١) · وابعد من ذلك ، فان غالبية الملاكين العرب ، وطبقات الفلاحين غير المنتجة الاخرى تنفق الفوائض المكدسة ، بشكل واسع ، من خلال استغلال المزارعين العرب ـ وهكذا فان الضرائب غير المباشرة ، التي يدفعونها على البضائع المستوردة ، هي ايضا ، في جزء منها ، احد اشكال الضرائب غير المباشرة ، المفروضة على الفلاح العربي ·

ونقلت الحكومة تدريجيا ، اعباء الضرائب في القطاع الصناعي الى دائرة واسعة من المؤسسات التجارية ، والتي كان معظمها يهوديا (١٥) · وعمل هذا ، بشكل ثانوي ، في تأجير مشاغل الحرف العربية ، والتي ساعدت على تعزيز اقتصاد الفلاح المحلي (١٦)· وفي هذا القطاع ، ايضا ، كما في القطاع الزراعي ، ساعد البناء الاميري على تقوية

.....

(١٤) يجب الملاحظة ايضا بأن : (أ) لا تدفع قطاعات المهنيين والعاملين في الخدمات والتجارة ـ والممثلة دائما بشكل اوسع ، في الطوائف اليهودية عن العربية ـ ضرائب مباشرة ، ابدا (M.F. Abcarius , *op. cit* . , p. 566)

(ب) يحق للصناعات ذات الانتاج المخصص للتصدير ـ والتي يملك اليهود معظمها ـ يحق لها استرجاع الضرائب ، كما بينا اعلاه (في الهامش رقم ٤ · (ج) ان البيوت والمباني الصناعية المنشأة حديثا ـ تلك التي بناها ، بشكل رئيسي ، اليهود المهاجرون ـ معفاة من ضريبة الاملاك المدنية طوال السنوات الثلاث الاول ، بعد اتمام البناء· (M.F. Abcarius, *op. cit*, , p. 529) .

(١٥) انظر
B. Himadeh , « Industry » in S.B. Himadeh (ed.) *op.* , *cit* . , p. 225

(١٦) « جرى تحول كبير في بنية المؤسسات وطرق الانتاج ، وطبيعته · واختفت الصناعات المنزلية التي كانت تنتج البضائع التبادلية · والمتبقي من هذه الصناعات اقتصر، عمليا ، على شغل الابرة ، بكل اشكاله · وانخفض العدد النسبي للحرفيين المستقلين ، بينما زاد عدد الحرفيين المستخدمين في الورش والمصانع · وحل انتاج الالة محل الانتاج التقليدي » ·
Himadeh , *op. cit* . , pp. 223 - 4 .

Digitized by Birzeit University Library

اختلاف نسب الاجور بين العمال اليهود (المهاجرين) والعرب (المواطنين) السائد في القطـــاع الصنـاعي (١٧) ٠

قيل بأن حكومة فلسطين كانت تتبع سياسة اميرية محافظة جدا (١٨) ٠ يمكن ان يكون هدفيها الرئيسيين للانفاق هما : أ ـ « خدمات تطورية واقتصادية (مثلا ، تحسين المواصلات ، ووسائل الاتصـــال ، والموانىء ٠٠٠ الخ ، والتي تعطي ، نسبيا ، قيمة للانتاج الرأسمالي اكثر من الانتاج غير الرأسمالي) ٠ ب ـ الصيانة (مثلا ، المحافظة على ادوات الدولة القمعية ، والموجهة ـ اساسا وباستمرار ـ ضد الجماهير العربيـــة المنتجـة) (١٩) ٠ (انظر الجدول رقم ٢) ٠

ان النموذج الاساسي للدخل والانفاق للطبقات العربية غير المنتجة له نفس تاثيـــر حكومة الانتداب على الفلاحين العرب ـ اي اخضاعهم لزيادة مضطردة في الفـــائض والذي يعود جزء منه للقطاع اليهودي الرأسمالي ٠

اسهم تنامي الهجرة الاوروبية ـ بالرغم من بعض التقلبات ـ والقطـــاع الاوروبي (اليهودي) الرأسمالي ، في زيادة المصروفات ، والتي اثرت على العمل العربي بشكل معاكس (٢٠) ٠ وكانت نسبة البطالة في القطاع العربي تفوق ، كثيرا ، نسبتها في القطاع

---

(١٧) يمكن احراز بعض الامثلة حول اختلاف الاجور ، والتي تعمل الاتحادات اليهودية على استمرارها (وجميع هذه الاتحادات تقصي المواطنين العرب) من الحصول المأخوذ من: *Statistical Abstracat Of Palestine* , 1937 - 1938 ,

والمعاد ذكره في :

Himadeh , *op. cit.* , p. 284.

(١٨) By, e.g. R.R. Nathan, O. Grass, D. Creamer, *Palestine : Problem and Promise* , Washington , 1946, pp. 314 - 16

(١٩) ارتفعت نفقات « الدفاع » ، ما بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ، ارتفاعا حادا ، بزيـــادة مقدارها ١،٤٥١،٨٢٨ جنيه فلسطيني ، والتي شكلت ٤٣،١ بالمئة من الزيادة الاجماليـــة على كل البنود (انظر الجدول رقم ٢) ٠ ان هذا الارتفاع الملحوظ اوجبته ثورة الفلاحين والعمال العرب في الثلاثينات ٠ (انظر ايضا :

Barbara Kalkas , « The Revolt of 1936 : A Chronicle of Events » in I . Abou Lughod (ed) , *The Transformation of Palestine* , Evanston , 1971) .

(٢٠) « وفقا لذلك ، انخفضت الاجور الحقيقية للعمال العرب ، في ايلـــول ١٩٣٧ ، بنسبة ١٠ بالمئة بالمقارنة مع الاجور لعام ١٩٣١ ، بينما ارتفعت اجور العمال اليهود بنسبة ١٠ بالمئة ٠٠٠ انخفض الدخل المكتسب ، فعليا ، في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، اكثر ممـا ←

Digitized by Birzeit University Library

اليهودي (٢١) ، وبالرغم من الهجرة الواسعة لليهود الاوروبيين ، فان المؤسسات التجارية اليهودية الرأسمالية توسعت بسرعة ، الى حد استيعابهم جميعا ، بينما لم تنمو الاقسام الصغيرة للصناعة الرأسمالية في القطاع العربي ، بدرجة كافية ، لتستوعب الاعـــداد المتزايدة للعاطلين عن العمل ، القـــادمين من المناطق الزراعية المتأثرة بالكساد (حافظ عمال المدينة العرب على علاقات وثيقة مع قراهم الاصلية) ، ولفترة قصيرة ، خـــلال الحرب العالمية الثانية ، استفاد مالكو الاراضي واصحاب المزارع (بالاضافة الى طبقات اخرى في كلا القطاعين) من الارتفاع غير العادي في اسعار المنتجات المحلية ، الذي نجم عن الانفاق العسكري الواسع وبالرغم من الازدهار الاقتصـــادي خلال الحرب الا ان الطبقات الفقيرة عانت ، كثيرا ، بسبب التضخم المالي (٢٢) ، وبشكل عام ، فان ارتفاع التكاليف الناجم عن اتساع القطاع الرأسمالي المستفيد من الحمايـــة الجمركية ، شكل ضغطا شديدا على الطبقات العربية العاملة ، (انظر الجدول رقم ٢) ، وبما ان الاجور كانت تدفع ، بشكل عام ، عينيا (٢٣) ، عملا بنظام المحاصصة في الانتاج ، فان ارتفاعا في مجمل التكلفة للبضاعـة المحلية تعني ارتفاعا في قيمـــة الاجرة التي يدفعها المستأجر

←

تظهره ارقام جداول معدلات الاجور اليومية ، وذلك بسبب فترات البطالة وتقليل ساعات العمل ... قدر عدد العرب العاطلين عن العمل في سبع مدن مختـــارة ، في ٣١ كانون الاول ١٩٣٧ ، بنحو ٢١،٠٠٠ والعمـــال اليهود (بمـــا فيهم العمـــال الدائميـــن والمؤقتين) نحـــو ١٢،٠٠٠ » .

S.B. Himadeh , *op. cit.* , pp. 286 - 7

(٢١) كان احد الاسباب المباشرة في زيادة عدد العرب العاطلين عن العمل السبب فـــي انخفاض عدد العاطلين اليهود ، في نفس الوقت . وهكذا ، ففي اذار من عام ١٩٣٩ ، لاحظت مجلة *The Jewish Frontier* (جويش فرونتيـــر) ، بارتياح : « انخفض عدد العاطلين في صفوف اليهود ، كثيرا ، في نهاية عام ١٩٣٨ ، بسبب احلالهم مكان العمال العرب في الزراعة ، وبسبب زيادة الاجراءات الامنية والاشغال الحكومية ... في هذا العام تم استخدام العمال اليهود ، فقط ، في بساتين البرتقـــال التي يملكهـــا يهودا . هناك ٢٥،٠٠٠ عامل بزيادة ١٠ الاف عامل عن المعتاد » .

E. Asfour , *op. cit.* , p. 333.

(٢٢) انظـــر :

A.M. Hyamson , *Palestine under the Mandate* , London , 1950 , p. 179

(٢٣) « لم تكن الايجارات النقدية معروفة ، عمليا ، في البلاد ، وكانت العادة لتعـة في حالة الارض المزروعـــة ان ياخـــذ مـــالك الارض نسبة من الانتـــاج تتراوح بين الثلث والخمسين » . M.F. Abcarius , *op. cit* . , p. 524

Digitized by Birzeit University Library

لاصحاب الاراضي (٢٤) · خسر اصحاب المزارع المدينون والذين يرهنون محـــاصيلهم للتجار المرابين (٢٥) ، في الصفقات لاسباب مشابهة ·

يجب ونظر الى الاستعمار الصهيوني ، بالدرجة الاولى ، كتوسع ثابت لنمط انتاج رأسمالي (٢٦) · ولا تكمن النتيجة الاولية لعمليه التنظيم الداخلي في القرى العربيـــة في الطرد الفوري للفلاحين العرب من الاراضي المطلوبة لاستيطان الاوروبيين فقط ، او في طرد المواطنين العمال من المؤسسات التجارية الاوروبية ـ مع ان الحالتين حصلتا ـ بل

(٢٤) « يمكن ان تكون تكاليف الايجار قد ارتفعت في الريف » ·
A .Granott, *op. cit.* , p. 294

(٢٥) اهم فئة هي التجار الذين يقرضون المال ، وعندهم تتجمع الحبوب المحلية ، وهم الذين يقدمون القروض القصيرة ، المتوسطة الاجل للفلاحين ، بفائدة كبيرة · ويفرض على الفلاحين ، عادة ان يدفعوا ديونهـــم حالا ، بعـــد جمع المحصول حيـــن تكون الاسعار متدنيـــة · (انظـــر :
B . Veicmanas, « Internal Trade », in S .B . Himadeh, (ed.), *op. cit.* , pp. 363 - 4) .

كان بعض التجار الذين يقرضون الاموال ويتعاملون مع الفلاحين العرب يهودا ، الا انه غير معروف ما اذا كانوا يشكلون نسبة عاليـــة بالنسبة للمجموع ·(وكمرجـــع للعرب الفلاحين الذين يعيشون حول الخليل والمدانين للتجار اليهود ، انظر :
D. Duff , *Sword for Hire* , London , 1934 , p. 258) .

(٢٦) يقصد هذا التعميم ان يضم التعاونيات الزراعية (الموشاف) والتجمعـــات (الكيبوتز) ، والتي ، بالرغم من انها تميزت بدرجات متفاوتة في علاقات عمل واستهلاك غير رأسمالية ، الا انها محكومة بعلاقات وقوى انتاج رأسمالية · وهكذا ، ففي عـــام ١٩٤٨ ، علق د· **ويرنر**(D. Warriner قائلا : « لقد قيل الكثير عن الاختلاف بين هذين النمطين من التنظيمات ، ولكن ، في الحقيقـــة ، هناك خـــلاف حقيقي بسيط بينهما ؛ اذ يفضل الجيل القديم ـ مع بعض الميل للزراعة ـ التعاونيات ذات الرأسمال الصغير . بينما يفضل الجيل الاصغر المستوطنات الجماعية · ان المستوطنين في المزارع التعاونية مؤهلين لامتلاك مزارعهم بعد ٤٩ سنة من مدة الايجار من **الوكالة اليهودية** ، بينمـــا يبدو اعضاء المزارع التعاونية وكانهم عمال ، فقط · ولكن بما ان المزارعين في المستوطنات التعاونية لا يملكون الحرية في الزراعـــة ، او الاستثمـــار ، او البيع ، الا بحسب ما يملي عليهم ، فهم ، ايضا ، يعدون في مرتبة العمال ، في كل النواحي المهمة · تقرر لجنة من المستوطنين كافة التفاصيل الثانوية المتعلقة بنشاط المزرعة ، بينما يقرر خبراء من **الوكالـــة اليهودية** كافة الامور الهامة المتعلقة بالانتاج والاساليب الفنية لزراعة والتموين » ·
(op. cit . , p.68)

ولكن ما هو اهم ، فيما يتعلق بفلسطين ، ان مثل هذه المستوطنـــات عملت ، منذ البداية

Digitized by Birzeit University Library

تكمن في الطريقة التي سيطر فيها النمط الرأسمالي على النمط غير الرأسمالي . وبدت هذه السيطرة واضحة في (أ) نظام تحول منتظم للفائض من الفلاحين العرب الى الطائفة الاوروبية الآخذة في النمو والاتساع ، والتي تحققت ، اولا ؛ عن طريق اجهزة دولة الانتداب ،وطبقات العرب غير المنتجة ، (ب) التوتر السياسي ضمن تحالف طبقات العرب المهنية ، على نمط غير رأسمالي والصراع بين الحلفاء العرب من جهة ، والصهيونية وحكومة الانتداب (التي تمثل النمط الرأسمالي) من جهة اخرى (٢٧) . لهذا كان المعيار الاساسي لتحديد الموقع الطبقي للقرويين العرب ، هو التناقض ما بين قوى الانتاج وعلاقاته ، ضمن تشكيلة اجتماعية معينة ـ تدهور القدرة النسبية للمزارعين على توفير فائض ، تحت ظروف ضغط متزايد من اعلى (عبر الضرائب ، والفوائد ، والايجارات) ، بالاضافة الى وجود علاقات عمل غير مرتبطة بالسوق .

نتج عن تزايد الفائض ، المقرر على ضوء التحليل الاخير بالسيادة المتزايدة للنمط الرأسمالي ، الفروق الحادة بين القرية والمدينة ، التي لاحظها العديد من المراقبين في فلسطين ابان الانتداب . ويمكن اعتبار النمو السكاني السريع ، والذي حدده كثير من الكتاب كسبب « طبيعي » لتدهور الاوضاع الاقتصادية للفلاحين العرب ، يمكن اعتباره هنا ، كما في اي مكان اخر من العالم الثالث (٢٨) ، ردا فرديا من العائلة الفلاحية على مشكلة الفقر (٢٩) . وعلى اية حال ، فان الميل الى النمو الكلي للسكان العرب

←

وبشكل اساسي ، في انتاج القيم التبادلية (مما دفع بمعظمهم ، مع مر السنين ، الى التوسع في الصناعة ، انظر : (D.Warriner , *op. cit* . , pp. 70 - 1)

وان اعادة وسائل انتاجهم كانت دائما ، تحدد برأس المال .

(٢٧) كتب :

N. Weinstock, « The Impact of Zionist Colonisation on Palestinian Arab Society before 1948 » (in *Journal of Palestine Studies* . Vol . 11, No. 2, 1973)

حول طبيعة التناقضات الطبقية بين القلسطينيين العرب خلال فترة الانتداب ، الا انه لم يتطرق الى مشكلة تحويل الفائض . بالرغم من انه في اطار هذه المشكلة ، فقط ، يمكن ادراك الظروف التاريخية للتحالف والصراع الطبقي في فلسطين تحت الانتداب .

(٢٨) انظر مثلا :

M. Mamdami *The Myth of Pouplation Control* New York , 1972.

(٢٩) ان هذا الافتراض اولي . لكن الجدير بالذكر بأن الزيادة الديموغرافية كانت دائما ، اكبر في الريف منها في المناطق المدنية في فلسطين . انظر :

E. Hagobian and A. B. Zahlan, « Palestine's Arab Population » in *Journal of Palestine Studies* , Vol. 111, No. 4, 1974 .

Digitized by Birzeit University Library

الزراعيين مقابل تضاؤل مساحة الارض ، والافتقار الفعلي الى مصدر بديل للعمل المربح اصبح ، في ظل الانتداب ، حافزا لزيادة توفير الفائض · وكانت زيادة ديون الفلاحين للتجار ، والارتفاع في اسعار البضائع ، عوامل في هذه الزيادة ·

لم تقدر التحليلات · حتى الان ، بأن تراكم رأس المال في القطاع اليهودي في فلسطين ، يمكن ان يفسر كلية ، او حتى بشكل رئيسي ، بتدفق الفائض المنتزع من القطاع العربي · فالاستنتاج هو ان تطور البنية الطبقية للاخير (وايضا الموقع الطبقي للفلاحين العرب) لا يمكن فهمه ، الا اذا تم ربطه بعملية الفائض المنتزع من الفلاحين ، والتي نتجت ، بالضرورة ، عن تبلور النمط الرأسمالي في قلب النمط غير الرأسمالي من الانتاج ، داخل تركيبة اجتماعية · وفي اقصى تجريدها ، يمكن تلخيص النهاية كما يلي : في نمط الانتاج غير الراسمالي تتم عملية الانتاج بدون عوائق (اي ان انتاج القيم يتم للاستهلاك المباشر) او تعترض عن طريق التداول البسيط (الانتاج للسوق للحصول على قيم اخرى للاستهلاك) · في نمط الانتاج الرأسمالي ، فان عملية الانتاج تعترض بالتداول المركب (الانتاج للسوق ، في سبيل الحصول على قيم لاستبدالها بقوة عمل ، ووسائل الانتاج في السوق ، من اجل انتاج محاصيل اكثر للسوق ··· الخ) · لكن عملية الانتاج الرأسمالية ، هي الاخرى ، يتم اعتراضها بما يتم التفاوض عليه ، من « استبدال » ضريبة الارباح بقيم توفرها الدولة · في فلسطين تحت الانتداب ، كانت هذه القيم (الخارجية) تتوفر ، بشكل واسع ، من خلال الفائض المنتزع من قطاع كان انتاجه ، اساسا ، غير راسمالي ـ مثلا ، قادر على انتاج الفائض دون تكديسه · ان مثل هذا التراكم ، كما حصل في قطاع العرب ، بقي ، بشكل رئيسي ، في منطقة التداول ؛ وكان لهذا غير منتج · يعني النمو في نمط الانتاج الراسمالي زيادة ، وان غير مباشرة ، في الضغط على نمط الانتاج غير الرأسمالي ـ في مجال التداول (طبقات المدنيين العرب غير المنتجة) والانتاج (المزارعين العرب والمهنيين) · ولكن حالما فسخ الانتداب البريطاني الذي سوى روابط نمطي الانتاج ، المجال للسيطرة « السياسية » للقطاع الرأسمالي (اليهود) ، وللوحدة المباشرة للتركيبة الاجتماعية ، كان لا بد الحاق الدمار التام بنمط الانتاج غير الرأسمالي · وهنا ايضا يوجد تصدع في البناء ·

■ **قطاع اليهود في فترة الانتداب ·**

في فترة الانتداب لم يكن اليهود يبحثون عن العمال العرب ، بل عن الاراضي العربية · وبسبب خضوعها السياسي للادارة البريطانية ، فان مثل تلك الارض يمكن ان يستولي عليها ، فقط ، عن طريق تبادل السوق ـ عملية بطيئة وغير مرضية سياسيا (٣٠)·

---

(٣٠) لمزيد من التفاصيل حول اكتساب الارض ، انظر :

WLehn , The Jewish National Fund »(in *Journal of Palestine Studies , Vol* 111, No. 4, 1974)

من الواضح ان الصهاينة ادركوا ، بان احدى العوائق في طريق شراء الارض كان ←

Digitized by Birzeit University Library

ومع بداية عام ١٩٤٧ ، كانت الاراضي التي يملكها اليهود تشكل نحوا من ٩ـ١٢ بالمئة من مجموع الاراضي الصالحة للزراعة (٣١) ·

وخلال حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، حيل بين العمال العرب ووسائل الانتاج المسيطر عليها مباشرة · ، اشارت لجنة انتوفيق (التابعة للامم المتحدة) ، والمرسلة الى فلسطين في تقريرها (عام ١٩٤٩ ـ ٥٠) ، بأن اكثر من ٨٠ بالمئة من الاراضي التي تحكمها اسرائيل تمثل اراضي تعود للاجئين العرب ، حيث ان اكثر من حوالي ٤،٥٧٤،٠٠٠ دونم كانت صالحة للزراعة ، (٣٢) · وتحملت الاقطار العربية المجاورة والامم المتحدة الخسائر السياسية والاقتصادية الناجمة عن فقدان الارض ، الذي تم بالطرق العسكرية ·

وهذ عام ١٩٤٨ ـ ٤٩ ، وفيما بعد ، اصبح قطاع اليهود (القائم على نمط الانتاج الرأسمالي) هو المسيطر سياسيا ، ضمن التركيبة الاجتماعية القائمة · ولم تعد المؤسسات اليهودية تطرد العمال العرب الذين تراجع موقعهم ـ بل على العكس · يمكن تحقيق الفرصة الجديدة للاستغلال ، المباشر ، للعمال العرب ، فقط عن طريق نظام تخفيض الزراعة العربية في اسرائيل · وهكذا ، فثمة نقطتان رئيسيتان في التحول الراديكالي للموقع الطبقي للفلاحين العرب في اسرائيل :

١ ـ **المصادرة الواسعة للاراضي العربية** (١٩٤٨ ـ ١٩٤٩) : وهذه جانب ، الغنيمة الرأسمالية ، في تطور قطاع اليهود ، والتي بها حطم نمط الانتاج غير الرأسمالي المحلي· وفي السنوات الاولى تم حجز المزارعين العرب ، الذين يشكلون مصدر ايدي عاملة رخيصة، في المعسكرات ، وفرضت الرقابة عليهم ، عبر تراخيص العمل التي تصدرها الادارة العسكرية ·

٢ ـ **خفض الزراعة العربية** : بتأسيس دولة اسرائيل ، تحول نموذج الانتاج الزراعي في قطاع (اليهود) الرئيسي ـ من الزراعة الكثيفة المختلطة الى الانتاج الصناعي الواسع (٣٣) · ان السعر المميز لانتاج العرب الزراعي ، والقروض الاقل ، وتقديم المساعدة الاقل للمزارعين العرب ، والمصادرة القانونية للاراضي العائدة الى العرب

.....

⇛

نظام امتلاك الارض المشاع بين الفلاحين العرب ، أنظر مثلا : ·

(٣١) ***Palestine Royal Commission Report*** , 1937 , p. 268.

J. Ruedy, « Dynamics of Land Alienation » , in I. Abu - Lughod (ed.) , *op. cit.* , p. 134.

(٣٢) J. Ruedy , *op. cit.* , p. 135.

(٣٣) S.N. Eisenstadt , *Israeli Society* , London , 1967 , pp. 140 - 1

Digitized by Birzeit University Library

الاسرائيليين (٣٤) ، كل هذا اسهم بقسط كبير ، في احباط القطا المتبقي من المزارعين العرب التقليديين · وبالمقابل فان ارتفاع تكاليف سلع الانتاج الزراعية علاوة على التناقض النسبي في رأس المال للعرب في اسرائيل ، بشكل واسع، على العمل المحلي الرخيص ، كما في جنوب افريقيا(٣٥) ، بل ان اسرائيل تستفيد كثيرا من الاحتياطي الملائم من العمال العرب · ويعاني العمال العرب من نسبة بطالة مرتفعة (٣٦) ، ويحصلون على مستويات ادنى من الاجور عن اندادهم من العمال اليهود (٣٧) ، على ان وجود قطاع زراعي في القرى العربية – على الرغم من ضعفه – حال دون اتساع الهوة بين مستوى معيشتي العرب واليهود في اسرائيل · بمعنى اخر ، لما كان هذا القطاع يساعد في المحافظة على المعدل المنخفض لاجور العمال العرب ، لذا كان على اسرائيل عدم السماح بزواله تماما ·

.....

(٣٤) « تشرف شركة (هيئة ارض اسرائيل) « Israel Land Authority » على اكثر من ٨٠ بالمئة من كل الارض المزروعة ، واكثر من ٩٠ بالمئة من المناطق التي يزرعها اليهود ··· وتفرض الهيئة ايجارات على الفلاحين تقل ، كثيرا ، عن متوسط الايجار الاقتصادي » ·

S.N.Eisenstadt , *op. cit.* , p. 79.

وكانت الهيئة تؤجر لليهود فقط · بالنسبة للسعر المميز ، وقروض الحكومة المتوفرة ، ··· الخ انظر الارقام في الكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية ، والتي استخدمها :
S. Jiryis , *The Arabs in Israel* , Beirut , 1969 , pp. 165 - 163 .

وبالنسبة لمصادرة اسرائيل للاراضي العربية ، انظر :

D. Peretz , *Israel and the Palestine Arabs* , Washington , 1958.

وخاصة الفصل التاسع ·

(٣٥) انظر :

H. Wolpe , « Capitalism and Cheap Labour - Power in South Africa » in *Economy and Scciety* , Vol. 1, No. 4, 1972 .

(٣٦) انظر :

A. Hovne , *The Labour Force in Israel* , Jerusalem , 1961,

الجدول الموجز ص ١٣ لليهود ، والجدول رقم ٩ ، ص ٣٠ للعرب ·
وللحصول على تفاصيل اكثر انظر :

Y. Ben - Porath, *op. cit.* , Chapter 5.

(٣٧) لاحظ الكاتب اليهودي ، اهرون كزهين ، (Aharon Cohen) بأن « الاجور المدفوعة للعمال العرب لم تعادل مطلقا تلك المدفوعة لليهود ، حتى ولو كان العرب يؤدون نفس العمل » ·

←

Digitized by Birzeit University Library

وكانت بوادر التضخم المالي بادية في الاقتصاد الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٩ ، بالرغم من انخفاض حصة الرواتب اعتبارا من ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ (٣٨) · وبتأثير من هذا الضغط اخذ النساء والاطفال في القرى العربية في البحث عن العمل · ويعيش كثير من الفلاحين العرب في مستوى ، اعلى من مستوى معيشتهم في الثلاثينيات ، لكن عجزهم عن السيطرة على وسائل انتاجهم الاجتماعية تبدو واضحة ، حيث انه لا يمكن للعديد منهم استخدام قوة العمل بشكل انتاجي في ارضهم ، الا بعد ان تمر عبر علاقة تبادل ، والتي لا تشكل جزءا من تنظيم القرية العربية ، اذ هي جزء ، لا يتجزأ ، لنمط الانتاج الرأسمالي ؛ الذي يسم المجتمع الأسرائيلي ككل ·

وهكذا ، مثلا ، اجر عدد كبير من الملاكين الصغار ، ثلث افضل قسم من الارض في احدى القرى الى شركة زراعية يهودية (الارض التي وصلت اليها الادوات الزراعية ووسائل الري ··· الخ) · وتوظف هذه الشركة نحو ما يقارب من مئة فلاح ، كان معظمهم « ابناء المالك الحقيقي للارض التي يعملون بها » (٣٩) · وبهذه الطريقة اصبحت ارض الفلاح (حيازته) اداة في ايدي الرأسماليين لتحقيق قوة العمل ـ **على نسبة من الاستغلال** ، اكثر مما كان ممكنا عندما كانوا فلاحين مالكين منتجين ·

Israel and the Arab World , 1964, p. 530.

وكتب ابنر كوهين ، (Abner Cohen) يقول « اجمالا ، لم تكن اجورهم (اي العرب) ادنى من المعدل الرسمي للاجور ، الا انهم يعملون بجد اكثر ، واحيانا ، يعملون لساعات اطول » ·

(٣٨) N. Halevi and R. Klinov - Malul , *op. cit.* , p. 275 (Table 83 .)

(٣٩) Abner Cohen , *Arab Border Villages in Israel* , Manchester , 1965 , p. 31 .

Digitized by Birzeit University Library

الجـــدول رقـم - ١ -

القيمة المالية للضرائب المباشرة

الضريبـــة	١٩٣٣ - ٣٤ المبلغ ج٠ ف	١٩٣٣ - ٣٤ بالمئة من مجمل الدخل الحكومي	١٩٣٤ - ٣٥ المبلغ ج٠ف	١٩٣٤ - ٣٥ بالمئة	١٩٣٥ - ٣٦ المبلغ ج٠ ف	١٩٣٥ - ٣٦ بالمئة	١٩٣٦-٣٧ المبلغ ج٠ف	١٩٣٦-٣٧ بالمئة	١٩٣٧ - ٣٨ المبلغ ج٠ف	١٩٣٧ - ٣٨ بالمئة
الرسوم الجمركية	١ر٨٦٨ر٥٩٨	٤٨ر٩٠	٢ر٦٠٠ر٣٧٠	٤٩ر١٠	٢ر٧٥١ر٢٤٦	٤٩ر٠٣	٢ر٠١٩ر٤٧٩	٤٤ر٩٣	١ر٩٩٩ر٦٩٧	٤٢ر٢
الرسوم المفروضة على الكبريت	١٧ر٧٤٠	٤٧ر٠	٢٣ر٨١٧	٤٦ر٠	٣٠ر٩٣٣	٥٥ر٠	٢٨ر١٣٦	٦٣ر٠	٢٨ر٥٥٢	٦ر٠
- على الملح	١٢ر٩٥٠	٣٤ر٠	١٤ر٤٥٠	٢٧ر٠	١٦ر٤٠٠	٣٠ر٠	١٣ر٢٥٠	٢٩ر٠	١٥ر٦٥٥	٣ر٠
- على التبغ	٢٣٧ر٨١٢	٦ر٢٣	٢٧٤ر٠٥٥	١٨ر٥	٢٥٧ر٦٩٤	٦٠ر٤	٢٢٣ر٥٨٥	٤ر٩٧	٢٣٧ر٥٥١	٥٠ر٥
- على الخمور والمشروبات الروحية	٥٠ر٠٥٧	١ر٢٢	٥٨ر١٣٩	١ر١٠	٦٧ر٧٢٣	١ر٢١	٧٩ر١٠٩	١ر٧٦	٧٢ر٣٣٨	١ر٥
- رسوم الطابع	٧٠ر١٦٠	١ر٨٤	١٠٥ر٥٢٤	١ر٩٩	١٢٤ر٤٧٧	٢ر٢١	٨٨ر٩٣٩	١ر٩٨	٩٨ر٣٤٧	٢ر١
- المجموع	٢ر٢٥٧ر٣١٧	٥٩ر١٠	٣ر٠٧٦ر٠٨٥	٥٨ر١٠	٣ر٢٤٨ر٤٧٣	٥٧ر٩٠	٢ر٤٥٢ر٤٩٨	٥٤ر٥٦	٢ر٤٥١ر١٤٠	٥١ر٧

M.F. Abcarius, «The Fiscal System» in S.B. Himadeh (ed.), *The Economic Organization of Palestine* , Beirut, 1938, p. 530)

Digitized by Birzeit University Library

الجـــدول رقـم ـ ٢ ـ

القيمة النسبية لمختلف نفقات الخدمات الحكومية . ١٩٣٣ ـ ٣٨ (**النفقات الحقيقية**)

	١٩٣٣ ـ ٣٤		١٩٣٤ ـ ٣٥		١٩٣٥ ـ ٣٦		١٩٣٦ ـ ٣٧		١٩٣٧ ـ ٣٨	
	المبلغ ج٠ ف	بالمئة من المصروفات	المبلغ ج٠ ف	بالمئة من المصروفات	المبلغ ج٠ ف	بالمئة من المصروفات	المبلغ ج٠ ف	بالمئة من المصروفات	المبلغ ج٠ ف	بالمئة من المصروفات
١ ـ الدفاع	٧٦٩ر٠٤٨	٢٨ر٤	٨١٥ر٩٩٦	٢٥ر٣	٨٤٣ر٩٤٢	٢٠ر٠	٢٢٠ر٨٧٦ر٢	٣٦ر٦	٩٠٦ر٨٩٥ر١	٢٦ر١
٢ ـ الادارة	٥٩٧ر٦٠٢	٢٢ر١	٩٤٨ر٠٤٣	٢٣ر٢	٩٥٩ر٠٦٤	٢٧ر٧	٢٥٨ر٤٢٦ر١	٢٠ر٧	٢٣٥ر٥٤٥ر١	١٦ر٩
٣ ـ الخدمات	٩٩ر٩٨٥	٣ر٧	١٠١ر٨٣٩	٣ر١	١٠٥ر١٥١	٢ر٤	١١٤ر٨٩٣	١ر٩	١٢٨ر٦٨٠	١ر٨
٤ ـ الخدمات الإجتماعية	٣٢٣ر٨٣٢	١٢ر٠	٣٨٥ر٠٠٦	٩ر١١	٤٣٤ر٠٥٩	١٠ر٢	٤٧١ر٥١٣	٧ر٨	٥٣٨ر٣٤٠	٧ر٤
٥ ـ التنمية والخدمات الاقتصادية	٩١٤ر٣٨٨	٢٢ر٨	١٧٩ر١٢٦ر١	٥ر٣٦	٨٩٣ر٩٨٥ر١	٤٤ر٧	٧٩٤ر٠٧ر٢	٣٢ر٠	٤٨٨ر٢٢٨ر٣	٤٧ر٨
المجموع	٧٠٤ر٨٥٥ر٢	١٠٠ر٠	٢٣٠ر٠١٠ر٣	١٠٠ر٠	٤٢٣٦ر٢٠١ر٤	١٠٠ر٠	٦٠٧٣ر٥٠٢ر٦	١٠٠ر٠	٢٩٧ر٦٨٨ر٧	١٠٠ر٠

M.F. Abcarius. «The Fiscal System» in S.B.Himadeh (ed.). *The Economic organization of Palestine* . Beirut. 1938. p. 546)

Digitized by Birzeit University Library

علاقة الدولة بالجنوب اللبناني
مرحلة ما قبل الازمة

فرحان صالح

لا شك ان هناك عاملين اساسيين ، كان لهما الدور الاول في تفجير الوضع اللبناني ، وبالحدة التي عرفها لبنان خلال عامي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ • واول هذين العاملين موقف السلطة من القضايا الوطنية ، والثاني الموقف من القضايا الاجتماعية • وان كان للعامل الاول علاقة جدلية بالثاني ، كذلك بالنسبة للعامل الثاني ، الذي يغذي الاول ، ويتبلور ، سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، من خلاله • ولا شك ان هذين العاملين تجليا ، اكثر ما يمكن ، على صعيد الجنوب ، ـ فالاعتداءات الصهيونية (اضافة للخطر الصهيوني ـ الواضع نصب عينيه الجنوب من اجل احتلاله) تركزت على الجنوب ، كما ان القضايا الاجتماعية اول ما تفجرت في الجنوب وموقف الدولة من هذه القضايا ، واضح، سواء في مرحلة ما قبل الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، ام بعد الاحتلال الصهيوني ، حيث مشاكل مزارعي التبغ ، ١٩٦٨ عيترون ، و ١٩٧٣ النبطية ، ومن ثم احداث بليدا وبنت جبيل ١٩٧٤ ، واحداث صيدا بعد ذلك ١٩٧٥ ، الى ان نصل للوضع الراهن ، حيث الموقف من الجنوب ، موقف من لبنان ككل ، وحيث موقفنا من لبنان ، هو ، بحد ذاته ، موقف من الوضع العربي • فهل نحن جزء من هذا الوضع ام لا ؟

ان موقفنا من الجنوب سيتحدد على اساسه الكثير من الامور الراهنة والمستقبلية • لهذا سنتناول الخلفية والابعاد الحديثة وشبه المباشرة لوضع الجنوب ، وذلك من خلال علاقة الدولة في هذه المنطقة ، وممارساتها هناك حتى بدء ازمة ١٩٧٥ •

Digitized by Birzeit University Library

تجلت علاقة الدولة ، سياسيا واقتصاديا بالجنوب ، منذ بدء الاستقلال ، من خلال المسائل التالية :

١ ـ خطط الدولة الاقتصادية ، سواء عبر المشاريع المختلفة ، أم عبر قطاع الخدمات والتجارة .

٢ ـ النواب الذين كانوا يجسدون السلطة التشريعية للدولة .

٣ ـ اجهزة السلطة ، خاصة العسكرية .

٤ ـ علاقة الدولة بالاحزاب ، وبالمقاومة وبالمؤسسات الشعبية

★★★

الدولة وعلاقتها الاقتصادية بالجنوب :

اقتصاد وواقع الجنوب صورة مصغرة عن اقتصاد وواقع الريف اللبناني ومدنه ، حيث يعتمد اهالي الجنوب البالغ عددهم حوالي النصف مليون مواطن على عدة مصادر للعيش ، اهمها الزراعة ، والحرف الصناعية ، والوظائف الحكومية ، اضافة الى الداخيل الاخرى من المهاجرين .

الزراعة :

اعتمد القسم الاكبر من سكان الجنوب حتى نهاية الخمسينات على الزراعة . وشكلت المصدر الاساسي الاول لمعيشتهم . اذ تبلغ مساحة الجنوب ٢٠٢٤٠٠ هكتار ، بينما لا تتجاوز الاراضي المزروعة ثلث المساحة ، استصلح منها ٣٨٤٦١ دونما في كل محافظة الجنوب (١) . علماً ان حصة القطاع الزراعي من الدخل العام للجنوبيين ، مرتفع جدا ، اذ يعتمد اكثر من ٥٠ ٪ من سكان الجنوب على الزراعة ، خاصة زراعة التبغ . فاحصاءات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ، بينت ان في الجنوب ٣١،٠٠٠ الف رخصة تبغ ، يستفيد منها اربعون الف مزارع ، ويزرعون ٥٨٣٥٠ دونم ، ويبلغ الانتاج ٦،٦٩٠ مليون كلغ ، ثمنه خمسون مليون ليرة لبنانية . اما الامكنة التي يصدر اليها التبغ فهي اميركا وفرنسا وبريطانيا . حيث تأخذ اميركا من التبغ الصدر ٨٥ ٪ و ١٥ ٪ لفرنسا وبريطانيا . والباقي من الانتاج حوالي الـ ٦٠ ٪ يصنع قسم منه داخليا والباقي يتلف ويحرق (٢) .

مما سبق نرى ان حوالي ثلث السكان في الجنوب يعيشون من هذا المورد ، حيث الدولة عبر شركة الريجي تنتهج سياسة لا يمكن وصفها بأقل من انها متواطئة ، على السكان فقط ، وبل تتعدى ذلك ، لتتحكم بمصير ومستقبل الجنوب ارضا وشعبا ومستقبلا .

فسياسة الدولة من خلال شركة الريجي ، يمكن رؤيتها بوضوح من خلال التاريخ الطويل لهذه الشركة ولعلاقتها مع الجنوب .

ان شركة الريجي ، هي امتداد للمصالح الاجنبية في لبنان ، وبالتالي فانها امتداد للسياسة الاجنبية في لبنان ، فعبرها ، يصار للتحكم سياسيا بوضع الجنوب ، ومن ثم اقتصاديا ، فهي امتداد للقطاع التجاري الكمبرادوري ، هذا القطاع الذي كان مرتبطا في البدء بالمصالح الفرنسية ، وحاليا بالمصالح الاميركية ، وبالتأكيد فان شراء الامريكيين للقسم الاكبر من التبغ الخام ،

---

١ ـ فرحان صالح **جنوب لبنان واقعه وقضاياه** ـ بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

٢ ـ احصاءات اللجنة التي تشكلت من اجل شراء التبغ لعام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ .

Digitized by Birzeit University Library

واعادته مصدرا لنا بأعلى الاسعار ، يبين مدى التغني بالاستقلال وبالسيادة اللبنانية. كذلك فان النظر الى النقطة الرابحة الاميركية في الجنوب ، والمهام التي تقوم بها هناك ، تبين لنا عبر ذلك مدى علاقة الاميركان بما يحصل حاليا على صعيد الجنوب ، فضلا عن ذلك فان هناك محاولات للسيطرة على الصحافة اللبنانية من قبل شركة الريجي ، وذلك عبر الاعلانات التي تعطى لهذه الصحف مقابل السكوت والتضوع .

ان وضع شركة الريجي هذا ، ادى منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وحتى اليوم ، الى انتفاضات وثورات قام بها الفلاحون ضد هذه الشركة . وهذا ما دعا النائب عمر بيهم عام ١٩٢٩ الى تشبيه شركة التبغ - في المجلس النيابي - وخلال المظاهرات الشعبية ضدها : « بالعلق يمتص من جيب المواطن ليراته ، كأنما هذه الليرات دم فاسد في جسمه لتحسن اسالته خشية ان يتغلب على صاحبه كجرثومة موت فتاكة . وهذا مما دفع النائب يوسف سالم الى القول « فان لم نتق من اليوم الشر وقعنا في المكيدة ، وكانت النتيجة قتل الفلاح المسكين الذي ينحت الصخر ليعيش ، وفي قتله قتل للبنان » (١) .

فشركة التبغ ، اولا تتحكم ، وليس فقط بتحديد المساحة المزروعة تبغا ، وبل في تحديد الرخص ، ولمن تعطى ، وكيف توزع ، وشركة التبغ تحدد سعر الكلغ ، علما ان هناك « تمييزا في الاسعار . فاصحاب الرخص الكبيرة ، ومعظمهم من النواب ، أو من المفاتيح المهمة لسياسة السلطة في الجنوب ، لهم اسعار مختلفة عن اسعار بقية الفلاحين في الجنوب . كما ان شركة الريجي تعطي اسعارا دونية من سنة الى اخرى للمزارعين الفقراء كما ان شركة التبغ تحاول من سنة الى اخرى تقليص زراعة التبغ ، وذلك بهدف رفع الكميات المستوردة من التبغ الاجنبي ، والاميركي خاصة . وهذا مما يؤدي وباستمرار الى المزيد من هجرة الجنوبيين ، سواء نزوحهم الى بيروت ، او الهجرة الى الخارج ، البلاد العربية وسواها من الدول في امريكا ، وافريقيا وأوروبا .

يقول النائب يوسف الزين في المجلس النيابي عام ١٩٤٨ حول شركة التبغ ما يلي : ان شركة الحصر يهمها جني الارباح دون النظر الى مصلحة البلاد ، لهذا ارجو الحكومة ان تنظر لمصلحة المزارع اللبناني بعطفها ، وهو الذي يغذي صندوقها من عرق جبينه ، راجيا رد اقتراح ادارة الحصر بتنزيل ثمن الشراء وبقائه على اساس سعر ٩٤٦ ، لكي يبقى المزارعون محافظون على زراعتهم » (٤) .

ومن الملاحظ ان هناك رخصا تعطى لاناس غير فلاحين ، وحتى ليس عند بعضهم ارض ، وبل من اجل المتاجرة بهذه الرخص ، علما ان ٧٦ ٪ من المزارعين يرخص لهم بزراعة اقل من دونمين ، والمساحات التي يشغلونها نسبتها ٥٤ ٪ من مجموع المساحات المزروعة تبغا . فيما يشغل ٢٤ ٪ الباقون ٤٦ ٪ من مجموع المساحات (٥) .

ان مواقف السلطة لم تكن عمليا بعيدة عن مصالح الامريكيين والصهاينة . فالدولة لم تنظر ابدا للجنوب كامتداد جغرافي وسياسي اجتماعي للبنان ، وبل كان ينظر الى

---

٣ - **دراسات عربية** - الواقع الاجتماعي لجنوب لبنان - فرحان صالح - العدد (٧) ، ١٩٧٢

٤ - عطوفة يوسف بك الزين - كفر رمان - **الوشاح الاكبر** - ص ٤٣ - ١٩٦١ .

٥ - فرحان صالح ، **جنوب لبنان** - ص ٩٢ - مرجع سابق .

Digitized by Birzeit University Library

جبل عامل « على انه شبه مستعمرة للبنان وكان هم المسؤولين في ذلك الزمن ان لا يعيش بل ان يكون نسخة من الاستثمار ، والاستعمار ، لذلك حرموا ابناء جبل عامل النور والماء ، وعزلوه عن بقية المناطق ، ليوهموا سكانه ان هذا الجبل خطر عليهم ، وليتركوا ابنائه خطرا على انفسهم » (٦) ويضيف محمد قره‌علي ان « جبل عامل قطعة غالية خصبة من الارض في مدى الجنوب اللبناني هي الطريق الواسعة الى فلسطين ، يعيش فيها عشرات الالوف من البشر ، يحلمون ولكن دون ان يتحقق حلم من احلامهم ، ويحمون مستقبل بلادهم بصدورهم وقلوبهم ، دون ان يكون بين اولياء الامر صدر او قلب يعرف قيمة هذا الاخلاص ويجاري هذا الجهاد » (٧) ·

ان سياسة الريجي ، لم تكن عمليا الا جزء من سياسة الدولة تجاه الجنوب ، وبالتالي من سياسة الدول الاستعمارية ، حيث مصالح القوى الموجودة في السلطة لم تكن عمليا الا جزء من سياسة هذه الدول ·

■ الزراعة الساحلية ـ الحمضيات :

تمتد زراعة الحمضيات على طول الساحل الجنوبي ، وتبلغ مساحة الارض المزروعة حمضيات ٦٤٠٠ هكتار ، موزعة على ٣٠٢٧ بستان ، وقد بلغت قيمة انتاج الحمضيات في الجنوب ٥٥ مليون ليرة ، وتتوزع الحمضيات على ٧٧ قرية ، يملكها ٢٢٣٢ ملاكا · اما الانتاج الجنوبي من الحمضيات فيقدر بحوالي (٨٣٠)الف طن سنويا يصدر منها للدول العربية ١٠٪ والى الدول الاشتراكية ٢٥ الف طن(٨) · هذا ، ويشكو مزارعو الحمضيات من مجموعة مسائل :

١ ـ ان زراعة الحمضيات تواجه ازمة تشتد يوما بعد يوم ، بسبب ارتفاع اسعار الاسمدة ، والمبيدات للحشرات ، وتدني الاسعار التي يفرضها المحدرون الذين اتفقوا فيما بينهم على حساب المزارع والضامن ·

٢ ـ انخفاض صادرات الحمضيات ، خاصة الى سوريا والاردن ، فمن اصل ٦٧ ٪ كانت تستورد سوريا من الكمية المصدرة للخارج عام ١٩٦٣ ، انخفضت الكمية الى ٥٦ ٪ عام ١٩٦٩ ، وانخفضت واردات الاردن من ١٧ ٪ الى ٩ ٪ خلال المدة ذاتها ·

٣ ـ المنافسة الصهيونية للانتاج اللبناني ، اذ تتدفق الحمضيات من الاراضي المحتلة عبر جسر الملك حسين ، بحجة انها من انتاج غزة والضفة الغربية · وهذه المنافسة ادت ليس فقط الى انخفاض الواردات للبلدان العربية ، وبل الى امور اخطر من ذلك · اذ ان وزارة الخارجية اللبنانية اكتشفت عام ١٩٦٩ ان الحركة الصهيونية تورد الانتاج الصهيوني الى دول العالم على انه انتاج لبناني ، وتحت اوراق مزورة ومستندات · وقد اكتشف ذلك خلال زيارة وزير الخارجية اللبنانية ليوغوسلافيا عام ١٩٦٩ ، ومطالبته

---

٦ ـ محمد قره علي ـ رايت وسمعت ـ بيروت مطابع دار الكشاف ـ ١٩٥١ ، ص ١٥٩ ·
٧ ـ المرجع السابق ، ص ١٥٩ ·
٨ ـ راجع دائرة الاحصاء المركزي ـ مكتب الفاكهة ، ومجلة الانباء (بيروت) ١٩٧١ ، العدد ١٠١١ ـ وكتاب جنوب لبنان ، ص ٨٦ـ٨٧ـ والمقابلة التي اجرتها جريدة المحرر مع رئيس تعاونية المزارعين في الجنوب ـ عفيف الصلح ـ ٢٤ ك١ ١٩٧٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

بتنفيذ الاتفاقات التجارية معها ، ففوجيء بتقديم اوراق من وزارة الخارجية اليوغوسلافية ، تثبت انها تستورد الكمية المطلوبة · وخلال التحقيقات التي تمت بعد ذلك تبين ان هناك تواطؤا يتم عبر بعض التجار اللبنانيين مع العدو لبيع الحمضيات الصهيونية في اسواق يوغوسلافيا على انها من انتاج لبناني (٩) ·

٤ ـ ضعف المساعدات التي تقدم من قبل الدولة للزراعة عامة ، سواء بالنسبة لاصلاح الاراضي، ام بالنسبة لتسليفات المقدمة لهذا القطاع · اذ رغم ان الزراعة في الجنوب تشكل المصدر المعيشي الاكبر لمعيشة السكان ، فنرى ان حصة الزراعة من الموازنة العامة اللبنانية تبلغ ٢ر٣ لعام ١٩٧٤ ، في حين ان الانتاج الزراعي يعطي ٦٥٠ مليون ليرة من اصل الدخل العام البالغ ٦ر٥ مليار ليرة لبنانية ، كما ان مساهمة الانتاج الزراعي في الجنوب لعام ١٩٦٩ ، بلغت ١٤١ مليون ليرة من اصل ٥٢٥ مليون ليرة اعطاها القطاع الزراعي في لبنان (١٠) ·

■ **سياسة الدولة من خلال نواب الجنوب :**

حافظت الدولة ، على تحالف الزعامات الطائفية ، حيث الغلبة فيها للموارنة حسب مواثيق الاستقلال لعام ١٩٤٣ وبنوع خاص على العلاقة مع بعض ابناء العائلات الذين مثلوا الجنوب منذ بداية الانتداب وحتى الفترة الراهنة : الاسعد ، الخليل ، الزين ، عسيران · وكان يهم السلطة الرضوخ الكامل من سكان الجنوب امام ما حصل عام ١٩٤٨ ، وذلك من خلال الرضوخ للاحتلال الصهيوني لفلسطين ولجزء مهم من الاراضي اللبنانية في الجنوب، وتريد من الزعامات السياسية ابقاء الوضع الراهن في الجنوب وتكريسه وحسب عرف الدولة «فالجنوب يجب ان يستسلم للاعتداءات الصهيونية فهذا مصيره» «وسبب الاعتداءات هي الثورة الفلسطينية ؟ ووجود الشعب الفلسطيني ؟» «ومواجهة هذه الاعتداءات لن تؤدي الا الى احتلال الجنوب» علما ان الاعتداءات الصهيونية ضد جنوب لبنان وسكانه ليست جديدة ، ففي عام ١٩٤٩ تقدمت القوات الصهيونية باتجاه بلدة بليدا ـ قرب بنت جبيل» فاذا بنا امام بلد انقلب عاليه سافله · لقد دمرتها القنابل اليهودية تدميرا ذريعا ، حتى ان المسجد التاريخي الذي هو فيها قد تهدم بعضه · لقد دخلنا اليه ورأينا بأعيننا ، ولمسنا بأيدينا مواضع الالغام التي وضعت فيه ، وتفجرت حتى زلزلته ، ولكنها لم تطبقه على ارضه · ان هذا المسجد وقف بوجه عشرة قرون ونيف، ولم يزل · اما نقوشه ورسومه ومعالمه التاريخية فقد شوهتها القنابل والالغام · وقد محت بعضها ، واهل البلد وعددهم ١٧٠٠ نسمة ، لا يزالون يعيشون عالة على القرى المجاورة» « بينما ينظر اليهود اليهم عبر الحدود ويضحكون عليهم ومنهم · بالامس استدعى اليهود اربعة اشخاص من بليدا ليسألوهم شيئا ما ـ ولما وصلوا « داعبوهم » باطلاق اربع رصاصات · ولما سألوهم السبب اجابوهم : لكي يتوهم اخوانكم هناك اننا

---

٩ ـ خليل ابو رجيلي ـ **الحمضيات في فلسطين المحتلة** ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية مركز الابحاث ، ص ٧٤ ـ ٩٧ ·

١٠ ـ **مجلة الطريق** ـ العدد ٤ ـ ١٩٧٧ مصادر التمويل في الزراعة اللبنانية ـ د· فرج الله محفوظ ـ وفرحان صالح ، **مرجع سابق** ، ص ٨٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

صرعناكم !· ومر مزارع من عيناث مع قطيعه على الحدود ، وما هي الا دقائق حتى كان فتى عيناثا نمر على الحاج ودوابه العشر اثرا بعد عين · لقد صرعتهم دورية يهودية عابرة · وحتى الان لم يجر اي تحقيق في هذا الحادث ! » ويضيف ، وما هي الا دقائق حتى كنا داخل فسحة غرس في وسطها سبعون لوحة تحمل سبعيا اسما لسبعين ضحية للم ابناء حولا عند عودتهم الى بلدتهم رفاتها وعظامها من تحت الانقاض ومن الدروب والمغاور · نعم وجدنا فجأة امام مزرعة من اجداث فاح عبيرها حتى لتكاد تشم في الرياحين والازهار التي نبتت على سطحها طيب متعقد نزالها (···) لعلك ايها القارىء ادركت ان هؤلاء الشهداء السبعين هم صرعى العدوان الصهيوني يوم اجتياز الاراضي اللبنانية · ولا اريد ان احدثك عن الاسباب والدوافع التي حملت ابناء اسرائيل على قتل هؤلاء ونسف بيوتهم وتشريد من سلم من عدوانهم لان حديث البطولة طويل عريض ، (١١) ·

اننا ، وان كنا نعود لذكر هذه الوقائع ، فالسبب هو اعادة تذكير هؤلاء النواب الذين نسوا التاريخ القريب من جهة ، ونسوا الارض التي احتلها العدو الصهيوني وهي « المنارة ، هونين ، صلحا ، قدس ، تولا ، المالكية » ، وما سياسة الدولة الا الرضوخ للعدو الصهيوني ، اذ لم يصار ابدا لا الى تدريب وتسليح السكان والى توجيه الجيش اللبناني للتنسيق مع المقاومة والجبهة الشرقية ، ولا الى تحصين المناطق الحدودية بالملاجىء وتشجيع الاهالي على المواجهة والصمود من خلال تأمين مقومات الصمود ، السياسية والاقتصادية ، بل على العكس ، ذلك فقد وقفت الدولة ضد القوى المتوجهة لحماية الارض والدفاع عن النفس، كماحرضت الدولة قسما من الاهالي ضد القسم الاخر ، وقسما ضد الثورة الفلسطينية ، اذ ان السلطة كانت تعبىء الاهالي ضد العرب، خاصة السوريين والفلسطينيين ، اكثر مما كانت تعبيء ضد العدو الصهيوني ·

والجنوب ايضا يجب ان يرضخ اقتصاديا لهيمنة قطاع الخدمات والتجارة ، وبالتالي للهيمنة الاجنبية ، وقد تجلى ذلك من خلال العجز في الميزان التجاري والذي بلغ عام ١٩٦٦ ، اي قبل وجود المقاومة ١٦٢٣ مليون ليرة لبنانية (١٢) · والمظهر الثاني تجلى في كون الجنوب المخزن الرئيسي لتزويد قطاع الخدمات والتجارة بالآلاف من الايدي العاملة الرخيصة ، والتي تركت الجنوب ، ونزحت الى مخيمات البؤس في « الشياح والنبعة ، والمسلخ ، وتل الزعتر ، والرواس» وسواها من مخيمات البؤس حول بيروت ، حيث تجاوز عدد النازحين حوالي الـ ٢٥٠ الف نسمة · كما ان الجنوبيين شكلوا العنصر الرئيسي من موظفي البلديات في بيروت والضواحي ، كذلك حمالي المرفأ ، ومن البوبيجية وسواها من الاعمال المشابهة· وفي بيروت كان الجنوبي مشردا من بيته وارضه في الجنوب اولا · والسبب كما يقول « محمد قره علي وخلال استعراضه لوضع الجنوب في كتابه رأيت وسمعت » الجنوب يحتكر الاهمال والحرمان » ، وصيدا بحاجة الى الاصلاح في المرفأ وفي الطريق وفي البناء بل الى ترميم بعض الاحياء ، ولا سيما وانها ستصبح بعد اشهر المدينة الرئيسية الاولى المجاورة لمثلث الذهب الاسود ،

١١ ـ محمد قره علي ، **رأيت وسمعت** ـ ١٩٥١ ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ١٦٥ ·
١٢ ـ راجع **دراسات عربية** ـ العدد ٤ ـ د· هشام بساط ، تطور الاقتصاد اللبناني ، عام ١٩٧٠ ·

Digitized by Birzeit University Library

البترول ، وفي صور « ها نحن على «البص» مدخل صور · واماما مئات البيوت النموذجية التي اعدتها الحكومة في يوم من الايام لهاجري الارمن مشرعة الابواب خالية عد ان غادرها سكانها الى وطنهم الام روسيا ، حقا ان مدينة صور بحاجة الى الاصلاح العام ليشمل الطريق والبيت والمدرسة والنور » ، ويضيف « عند وصولنا الى برعشيت وجدنا ان عين الماء في هذه البلدة هي في وسط المقبرة · وعلى هذا فنحن نشرب في مطلع الصيف ذرات عظام الآباء والابناء ، وفي الشتاء عصارة الاجساد ! وهذه العين كجاراتها ايضا تبعد عن اول بيت في البلدة نصف ساعة وعن اخر بيت ساعة كاملة · وعلى المراة ان تقضي ساعتين لتحمل الى بيتها شربة ماء · ولا تنفرد برعشيت بهذه النعمة فلها اخوات منها : كفركلا ، حبوش ، النبطية ، زبدين ، حاروف ، وغيرها كثيرة · وفي بنت جبيل بلدية يرأسها قائمقام صور · فالبلدة بحاجة الى الماء والكهرباء والى مستشفى حكومي لانها البلد الوحيد الذي تكتنفه اكثر من مئة قرية يخضع سكانها لرحمة اطباء المنطقة ، وانها بحاجة الى اقنية تقيها جيوش البرغش والذباب · حقا هناك من يسعى ليبقى « الجنوب عضوا مشلولا » · «وهذه عيتا ، وهذا ماءوها الاحمر القاني ، والناس من حوله تحوم كالفراش على السراج · وهذه رميش وقد هام اهلها في البراري والقفار يبحثون عن الماء · وهذا مخفر رميش ايضا وقد اعدت له الحكومة عشر ليرات في الشهر ثمنا للماء ؟ » وهذه عيترون على قربها من الطريق العام ، تذهب الى بعض القرى التي ما يزال في ابارها وعيونها حثالة من ماء تبتاع الجرة الواحدة بثلاثة قروش فلسطينية لا لبنانية طبعا ! (···) انني اقف في ساحة عيترون ، حيث في هذه البلدة لا ماء ولا طريق ، ولا هاتف ، وكهرباء ، وبريد وجميع وسائل الحياة بأبسط اشكالها · اضافة الى ان ٨٠ ٪ من ابناء جبل عامل مصابون بالرمد التراخوما ، ومنشأ هذا تلوث المياه بالجراثيم ·· ويضيف عند وصوله الى مرجعيون قائلا « وهذا مرج الخيام ومن ورائه شبعا حيث تتدفق المياه العذبة كما تدفقت الحكومات المتعاقبة بمواعيدها على ابناء الجنوب بايصال هذه المياه الى قراهم » (١٣) ·

هذا هو واقع الجنوب في بداية الخمسينات ، وهذا هو سبب نزوح وهجرة الآلاف منهم اذ عند نزوح الاهالي الى بيروت كان هناك واقع اكثر مأساوية ، حيثلم تقدم لهم الخدمات الاولية من صحية واجتماعية وثقافية وغيرها ، بل استغلوا في مناطق تواجدهم اشنع استغلال سواء حيث يعملون ، ام من قبل الملاكين الذين يؤجرون العقارات بأسعار مضاعفة ·

لقد عرضنا ما سبق من واقع الحال لنبين علاقة الدولة عبر الامتدادات السياسية لها ، آلا وهم النواب والاجهزة العسكرية والادارية، تجاه هذا القسم من اللبنان ـ الاخضر الذين يتغنون به · فالدولة كانت تريد الوصول لاقصى حد من الاستغلال السياسي الاجتماعي للجنوبيين خاصة ، ولبقية سكان الريف اللبناني عامة ، والامثلة كثيرة رخص التبغ والتي كانت تعطى للمحاسيب والازلام من النواب ، ومثلا اخر فان الدخول في السلك العسكري ، فان للنواب الرأي الاخير بهم « يبلغ عدد العسكريين الجنوبيين الذين دخلوا الجيش حوالي نصف عدد الجيش ، علما ان الجندي يجب ان يجسد

١٣ ـ راجع قره علي ـ المرجع السابق ، ص ١٤١ ـ وما بعد .

Digitized by Birzeit University Library

اقصى ما تطمح اليه السلطة والزعامات السياسية والعسكرية من الولاء والرضوخ ، كما عليهم ان يجسدوا الامتداد السياسي للدولة ولنفوذها ، والامتداد الانتخابي للزعامات السياسية الجنوبية ، كما ان القوى العاملة ضمن ادارات الدولة والمدرسين فان اوضاعهم مشابهة ، رغما عن ان جهاز الخدمة المدنية خفف كثيرا من ذلك خلال بداية انشائه ، ولكن في المراحل الثانية عادت الواسطة والولاءات الى ما كانت عليه سابقا ، واصبحت الاجهزة والتي كان ولاؤها للسلطة ، اصبح ولاؤها ونفوذها تستمده من الزعامات السياسية مباشرة · مثلا على ذلك كامل الاسعد وكميل شمعون حيث في المراحل الاولى كانا محاربين من العهد الشهابي ، الا انهما في المرحلة الثانية اصبحا لهما الامر والنهي في كل شيء · اذ تجسدت السياسة الشمعونية من خلال كاظم الخليل في الجنوب ، ولكونه احد المخططين لسياسة الدولة ·

■ **الجيش والجنوب وسياسة الدولة :**

كان الهدف الاساسي للجيش اللبناني ، خلال المرحلة التاريخية السابقة من انشائه حماية الوضع الداخلي والعلاقات الخارجية القائمة · وبالتاكيد فان العلاقات الداخلية تجسدت في حماية العلاقات اللاديمقراطية المتجسدة في امتيازات طائفية مهيمنة على الوضع سياسيا واقتصاديا وثقافيا ومتجلية بوضوح في حماية الزعامة المستفيدة من الامتيازات · وهذه السياسة بالتاكيد ادت الى افادة حيزجغرافي محدود لم يتعد منطقة جبل لبنان الا قليلا ·

والجنوب كان الزاوية ، او المنطقة الاكثر اعوجاجا في الوضع اللبناني لانه محاذ للارض الفلسطينية ، ولان سكانه يشكلون بطموحاتهم وعلاقاتهم امور تتعدى الواقع الراهن الى الافاق القومية الرحبة ، فهو امتداد جغرافي وسكاني وسياسي واقتصادي لفلسطين وسوريا ، ولم يكن بمستطاع القوى المعادية ان تخلق اوضاعا لمصلحتها في حال عدم السيطرة الصهيونية على فلسطين ، فالحركة الصهيونية موجودة لحماية التجزئة والتخلف والعلاقات اللاديمقراطية ومساعدة القوى المرتبطة بالنفوذ الاجنبي في الوطن العربي ·

كما ان الجنوب كغيره من المناطق المتخلفة الاخرى من لبنان يشكل امتدادا للطموحات الوحدوية والقومية مع سوريا وفلسطين ومصر والمنطقة العربية ، هذه الطموحات والتي تجلت في النضال المشترك، ضد الاستعمار العثماني ومن ثم الانجليزي ـ الفرنسي ـ ومن ثم الصهيوني · وما دام الوجود الصهيوني مستمرا. فان احد ابرز مظاهر استمراره وجود مناطق محاذية له ضعيفة متخلفة ، ووجود قوى مرتبطة بالنفوذ الاجنبي تبقي هذا الوضع ، كي يسهل للعدو الصهيوني السيطرة عليه في اي وقت يشاء ، وكما حصل في جنوب لبنان اخيرا· وكي يسهل في الوقت نفسه دعم القوى الداعمة للعدو الصهيوني والمحافظة على حسن الجوار معه ، والاردن ولبنان امثلة على ذلك ·

اذا الجنوب اللبناني ووجود القسم الاكبر من الجيش هناك وفرض حالة الطوارىء الدائمة على الجنوب ، اضافة لرهن الاقتصاد اللبناني برمته للسوق الاجنبية ، سواء عبر شراء الامريكيين للقسم الاكبر من انتاج التبغ ، ام عبر قطاع الخدمات ـ والتجارة ، حيث باسم الحرية الاقتصادية يتم استيراد كافة المنتوجات

✱ ـ راجع مذكرات سامي بك الصلح ـ ص١٠١ ـ الجزء الثاني ـ مكتبة الفكر العربي ، ١٩٦٠ ·

Digitized by Birzeit University Library

الاجنبيـــة مما يؤدي باستمرار الى ضعف وتيرة لا التطور الحرفي والصناعي في لبنان بل وحتى الضعف الدائم والمستمر في القطاع الزراعي · يقول سامي الصلح في مذكراته « هناك عشرة من كبار التجار فقط كان معدل ربحهم في السنوات الثلاث الاولى من الحرب الثانية ٨٨ مليون ليرة · وان هناك ايضا عشرين تاجرا كان معدل ربحهم فيها ٢٠ مليون ليرة والبـــاقي ٤٢ مليون من نصيب بقية التجار » ★ وجاء في كراس صدر عن المؤتمر الوطني لعام ١٩٥٢ بان « ارباح ٢٦ شركة قد بلغ ٥٠ مليون ليرة تذهب كلها الى الخارج بفضل سياسة المبدأ الحر التي دافع عنها وزير المالية اللبناني في درس موازنة السنة الحالية · علما ان الرساميل الاجنبية قد بلغت ٩٣ ٪ ازاء ٧ ٪ من الرساميـــل الوطنيـــة العاملة في الحقل الاقتصـــادي الوطني ، وهذا الخطر اضاع استقلال البلاد الاقتصادي الذي هو دعامة كل استقـــلال سياسي (···) · يظهر من خلال ما سبق ان سياسة النظام ليس في تأخير وعدم تنمية الاقتصاد اللبناني ككل بل في التآمر على الاقتصاد الوطني لمصلحة الخارج الاجنبي · ويضيف سامي الصلح في مذكراته ان سبب الازمات المالية « التي توالت على هذه البلاد فهزتها وسببت هجرة زهرة شبابها ، ناشئة عن سياسة تجزئة الوحدة الاقتصادية ، وهذا ما جعل السلطات المنتدبة منذ بدء عهـــد الانتداب ، تقر الوحـــدة الاقتصادية بين سوريا ولبنان ، ثم ان المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية التي عقدت عام ١٩٣٦ ، اقـــرت مبـــدأ الاشتراك الاقتصادي بين سوريـــا ولبنان ، وايجاد هيئة مشتركة بين البلدين لاستلام التشريع والادارة التي كانت لفرنسا ولحساب دول الشرق في الشؤون الاقتصادية والمالية »★ · لهذا فقد طلب المؤتمر الوطني اللبناني عام ١٩٥٢ برد العلاقة مع سوريا الى روح ميثاق القاهرة وبتعزيز احـــكام هذا الميثاق واعطائه في الحياة العمليـــة معانيه الكاملة » ·

ان سياسة الدولة العسكرية لم تكن عمليا الا لحماية هـــذا الوضـــع ، والامتيـــازات الطائفية التي شوهت كل شيء اول ما بدأت على صعيد الجيش ، فالجيش حيث قيـــادته كلها من نسق واحد ، وهـــذا النسق هو لحماية علاقـــة الطائفة المارونية ببقيـــة الطوائف ووظيفتـــه ، (حيث قاعدتـــه الاساسية هي من ابناء الفلاحين الجنوبيين منهم ومن البقاع والشمال) هي لحماية لا المصالح الوطنية في الداخل، بل لحماية العلاقة المشوهة مع الوطن العربي الذي يشكل لبنان زاويـــة منـــه ، ولحمايـــة العلاقـــة مـــع الخـــارج : الاســـواق الرأســـمالية الاجنبية وذلك باقامـــة علاقـــات غير متكافئـــة ما بين المنطقة العربية والخارج عبر لبنان ·

يقول العقيد فؤاد لحود في كتابه مأساة الجيش اللبنـــاني « لقـــد كان الجيش انضباطيا ، واثبت ذلك في محاولة انقلاب القوميين ، **لكن الدولة لم تقم بواجبها تجاه هذا الجيش ولم تفكر بتقويته** وتعزيزه ، رغم ظهور الخطر الصهيوني · وحجتها كانت ان لبنان بلد مسالم لا يحارب وبالتالي لا ضرورة لتقويته · وان دور لبنان تجاه القضيـــة الفلسطينية ينحصر في اطـــار الديبلوماسية فقط · ان هذا الوضـــع سبب انشقاقا في صفوف اللبنانيين · قسم طلب ان يستمـــد لبنان القوة من الضعف والاغلبية كانت من المسيحيين · اما القسم الثاني ، واغلبيته من المسلمين فقد عارض هذه النظرية « لذلك لم يعزز الجيش كما هو مفروض ، ولم ينظم كما كان يجب ، وكما يتناسب مع امكانيات وبطولات افراده وقابليته **ليلعب دورا بارزا**

★ ـ الصلح ـ مرجع سابق ـ ص ١٧٤ ·

Digitized by Birzeit University Library

في اطار الدفاع العربي المشترك ، بل بالعكس اشترعت له قوانين لتقيده بعزلة عن الشعب ، وجعلته خارجا عن سلطة الدولة ، فكان لهذا التصرف اوخم العواقب على مستقبل الجيش وبالتالي على كيان لبنان ، لبنان ، كما ظهر لنا واتضح في هذه الايام العصيبة ، (١٤)

مما سبق نرى ان عدم وضوح الهدف الوطني للجيش اللبناني ، في اطار الدفاع العربي المشترك ، كما يقول العقيد لحود ، السبب الاول والرئيسي لما مر على لبنان ، وليس الفلسطينيين ولا الشيوعيين ولا السوريين والمصريين هم السبب لا في انشطار الجيش ولا في الازمات التي مرت على لبنان . ويتكلم لحود عن عشرات الضباط الذين استقالوا احتجاجا على سياسة الدولة الطائفية ، هذا ويقول النائب شفيق بدر في المجلس النيابي «كنت اتمنى ان تستطيع وزارة الدفاع ان ترسل الى هذا الجيش بقبعة واحدة ، عليها العلم الاسرائيلي وقد اخترقتها رصاصة . فلو اوجدنا هذه القبعة لكنا نأمل بأننا ندافع ، واننا نقف تجاه العدو . ويقول الرئيس عادل عسيران ، لقد صرف على الجيش اللبناني منذ عهد الاستقلال حتى اليوم ما يزيد عن السبعة مليارات ليرة لبنانية . ونحن لا يمكننا بالرغم من هذه الاموال الكثيرة التي صرفناها ان ندافع عن قرانا . يهاجمنا الاسرائيليون في عقر دارنا . يهدمون بيوتنا يقتلون رجالنا ونساءنا ينسفون منازلنا ويقتلون شبابنا ولا يتحرك الجيش (٠٠٠) ان الشعب يدفع الاموال في سبيل الدفاع عن الوطن ، (١٥) .

وضمن اطار المناقشة يرى ادوار حنين ، ان لبنان عندما انشيء سنة العشرين وانشئت الجمهورية اللبنانية لخدمته ضمت اليه دساكر وسناجق واقضية ، منها كانت ولايات ، ومنها كانت قد فصلت منذ حين عن لبنان . اذ ضم الى لبنان الصغير ، فئات من الشعب ، لم تكن قد اعتادت على حكم لبنان الصغير ولم تكن قد هيأت نفسها لتتنازل عن انتمائها السوري ، او انتمائها الفلسطيني ، جبل الجليل ، او انتمائها الاخر عربيا كان او غير عربي ، (١٦) . من خلال كلام الامين العام للجبهة اللبنانية ادوار حنين نستطيع ان نفهم ان وطنية سكان المناطق ، والتي كانت خارج لبنان الصغير ـ جبل لبنان ـ مشكوك بها ، وبحاجة لاعادة صقلها مجددا كي تتقبل السلطة المارونية ـ سلطة الطائفة ـ سلطة القوى المرتبطة بالنفوذ الاجنبي . يضيف حنين مقترحا صيغة جديدة للبنان جديد يحلم به ، هناك صيغة يجب ان نفتش عنها ليلا نهارا ، وقبل كل شيء اخر صيغة تعطي كل لبناني سواء كان انتماؤه الى لبنان الصغير او كان انتماؤه الى الاقضية والدساكر والسناجق ، تعطي كل لبناني رغبة القبول بالكيان القائم ، وهذا امر يسير ليس فيه اي صعوبة ، على ان يجري على يد كبار من اللبنانيين ، يحق لهم كل من ناحيته ان يقبل ، ان يتنازل ثم يقبل ان يعطي ثم يقبل ، ان يأخذ ثم يقبل . ولهذا اسس اتيت على ذكرها مرارا في محاضرات لي (٠٠٠) (١٧) .

ان سياسة السلطة لم تكن الا بهدف حماية نفسها ، ولم تكن هذه السياسة تهدف

---

١٤ ـ النائب العقيد فؤاد لحود . **ماساة جيش لبنان** ـ ص ٢٢ ـ ٢٣ ـ ١٩٧٦ ، د٠ ت٠٠

١٥ ـ **ماساة جيش لبنان** ـ لحود ، ص ١١٠ ـ وما بعد وهذا الكلام مأخوذ عن مناقشات للمجلس النيابي ، حصلت في ٢٦ـ٢ـ١٩٧٤٠

١٦ ـ **المرجع السابق** ـ ص ١٤٨ .

١٧ ـ **المرجع السابق** ، ص ١٤٨ .

Digitized by Birzeit University Library

الى قتال العدو الرئيسي الذي يحتل جزءا من لبنان ، بل ويقتال الشعب الفلسطيني ، هذا الشعب الذي عمل ليس فقط من اجل تطوير الاقتصاد اللبناني خلال المرحلة الماضية بل من اجل المشاركة الفعلية في حماية جنوب لبنان . وحسب قول حنين فان سكان المناطق والتي هي خارج جبل لبنان وبدلا من نهج سياسة دفاع وطني كما يقترح لحود ، فان ما يطلبه حنين التأكد من وطنية سكان هذه المناطق على يد «كبار اللبنانيين» اي ان يجري لسكان هذه المناطق امتحانا في السلوك الوطني . السلوك الراضخ للهيمنة المارونية ، والراضخ للعدو الصهيوني ، وايضا للهيمنة الاقتصادية الاجنبية ، السلوك المتنصل من القضايا القومية العربية .

ان عدم التصدي للاعتداءات الصهيونية ، والتي ادت الى استشهاد الآلاف من الجنوبيين لم تكن الا ضمن هذا الاطار ، وبالتاكيد فان قتال العدو الصهيوني يعتبر خروجا على السلوك الوطني المطلوب، وبالتالي يتعارض مع التحالف مع الغرب ، كما تريد الجبهة اللبنانية والتي تحتكر الوطنية .

مما سبق نرى ان الجيش تريده الجبهة اللبنانية اداة لتنفيذ الخط السياسي لها ، هذا الخط الحامي لعلاقة الجنوب بهيمنة « الطائفة الوطن » . وهذا الخط المحدد علاقة لبنان باسرائيل من خلال حماية حدودها ، وبحجة ان لبنان «قوته في ضعفه». وهذا الخط الذي يعمل من اجل منع تطور علاقة لبنان مع الوطن العربي ، ومع ذلك فتوجهات السلطة تتعارض مع طموحات القسم الاكبر من العسكريين الضباط منهم والرتباء والجنود ، لانهم وبمعظمهم من فئات فقيرة وكادحة . وعندما تفكير قومي عربي متعارض مع الاحتلال الصهيوني لفلسطين وللتجزئة وللعلاقات اللاديمقراطية والتي تنتهجها السلطة اللبنانية .

واخيرا ان تصدي قسم من الجيش موجه بالسياسة اللاوطنية التي تتبعها السلطة ضد ابناء الجنوب الذين يهدفون الى التغيير ، يدل على ارادة السلطة ، ضد ابناء الجنوب، كما يدل ايضا على ارادة السلطة ، وكيف تريد توجيه الجيش ، وان الموقف من القضايا الاجتماعية ـ والوطنية التي مرت على لبنان لتعطي دلالة واضحة حول ما تريد السلطة من الجيش .

■ **الدولة ، الاحزاب المقاومة والجنوب :**

من المعروف ان سياسة السلطة تجاه القضايا الوطنية لا بد ان تتجسد من خلال قوى معينة ، وهذه القوى التي لها التأثير الاقوى ، هي القوى المرتبطة بالامتيازات الطائفية ، وبعلاقاتها مع الخارج على حساب المصالح الانتاجية لا في لبنان فقط بل في المنطقة العربية ، كونها تلعب دور وسيط ما بين الخارج : الاسواق الرأسمالية الاجنبية ، وما بين لبنان والداخل العربي . ولا شك ان هذه السياسة كانت على حساب المصالح الوطنية والقومية ، وعلى حساب بقائها تابعة وراضخة للاحتلال الصهيوني وللتجزئة وللتخلف الناجم عن التعاون مع الغرب على حساب الانتاج الداخلي اللبناني ـ العربي .

عبر هذه السياسة ، وباختصار ، تعاونت القوى هذه مع بقية اطراف الشعب اللبناني، لاعلى اساس المصير الوطني والقومي، بل على مصير الطوائف المشكل منها لبنان ، وبالتالي حاولت التبيان ان هذه الطوائف شريكة في السلطة ، ولكن شراكتها مع هذه الطوائف مرهونة بقدرة قيادتها على المحافظة على الاوضاع الراهنة وعلى اساس ان هذه الطوائف هي شريكة في الغرم لا في الغنم .

ان هذه السياسة هي ما حاولت السلطة تركيزه في علاقاتها مع الاحزاب الوطنية والقومية في لبنان ، ومع المنظمات الشعبية ومع المقاومة ، وقبلها مع الانظمة العربية . ومن خلال ذلك عملت السلطة على ملاحقة كل نشاط وطني ، سواء لتحسين اوضاع

Digitized by Birzeit University Library

السكان اللبنانيين ، ام للتصدي للاعتداءات الصهيونية ، ام لاقامة علاقات وتطويرها مع القوى القومية والوطنية العربية . وبسبب هذه السياسة عمل الكثير من الاحزاب على ربط الوضع اللبناني اقتصاديا وسياسيا بمحيطه العربي ، فكانت الوحدة الاقتصادية ما بين لبنان وسوريا والتي عملت القوى صاحبة الامتيازات على ضربها وانهائها في نهاية الاربعينات ثم قبلها المطالبة بالوحدة مع سوريا في العشرينات والثلاثينات ، مما ادى بالقوى الاستعمارية للعمل من اجل طرح البديل الاقليمي الانعزالي . وبعد الخمسينات تطور التصور الوحدوي القومي المعادي للتجزئة الاستعمارية وللنفوذ الاجنبي . وكان لا بد لهذه القوى صاحبة الامتيازات من ضرب هذا التطور ووضع حد له . وكانت حوادث ١٩٥٨ ، ومن ثم الحوادث التي حصلت بعدها خلال الوحدة السورية ـ المصرية ، ووقوف المناطق الاخرى مصيرا ومستقبلا مع هذه الوحدة ، وبالمقابل وقوف القوى الاخرى ضدها والتحريض لضربها . ومن ثم دخول قوى الثورة الفلسطينية الى لبنان ، ووقوف القسم الاكبر من الجماهير معها مما ادى الى ملاحقة وضرب القوى المتعاطفة مع الثورة، وكانت السجون والمعتقلات مليئة بالقوى المؤيدة للثورة ، بينما القوى المتعاونة مع العدو الصهيوني تسرح وتمرح .

وفي حين ان الدولة كانت تحارب الاحزاب الوطنية والقومية ، الا انها كانت تدعم وبقوة الاحزاب الرجعية والفاشية الاخرى ، وتهيء لها كل السبل لنشر افكارها ، فعلى صعيد الجنوب سادت السلطة جميع الاحزاب المرتبطة بالزعامات التقليدية ، وشجعتها كحزبي الكتائب والاحرار مثلا ومن ثم الاحزاب الطائفية والتي هي امتداد مشوه لسياسة السلطة الرسمية .

فالاحزاب القومية ، كانت ترى عدم امكانية حل المسائل السياسية والاجتماعية في لبنان ، الا ضمن الوضع العربي العام ، وبالتالي فان هذه الاحزاب كانت امتدادا للقوى السياسية القومية في الواقع العربي «مصر، سوريا ، العراق ، الخليج العربي ، الجزائر» . والاحزاب القطرية الوطنية، والتي كانت ترى ان حل المسائل الاجتماعية والوطنية ، يتم بمعزل عن العلاقة مع الوطن العربي . وفيما اذا كان النمط الاول من الاحزاب يرى في النضال من اجل الوحدة ، الطريق الصحيح الذي يجب العمل من اجله، ويرى ان الوحدة هي المدخل لحل المشاكل الوطنية والقومية وبالتالي الاجتماعية . فان الاحزاب الثانية ، كانت ترى ان حل المشاكل الاجتماعية ، يأتي من خلال التحالف مع كافة القوى الوطنية في الداخل ، كمدخل للتغيرات المطلوبة داخليا ولم تربط هذه الاحزاب الوضع الداخلي لا بقضية الوحدة ، ولا بقضية تحرير الارض المحتلة * . ان وضع الاحزاب هذا لم يؤد الى قيام جبهة وطنية بينها ابدا ، حتى في اشد المراحل صعوبة . فالعلاقات الجبهوية

---

* يرى الحزب الشيوعي ، ان الاصلاح الزراعي الذي يقترحه ، والذي يعتبر الحل الجذري للقضية الزراعية في لبنان لن تحققه الا سلطة تحالف الطبقات والفئات ذات المصلحة بتحقيقه ، لعلى قناعة تامة ان البرنامج المطلبي الواسع الذي يطرحه يمكن تحقيقه من حيث الاساس في المرحلة الراهنة ، وقبل اجراء تغيير حاسم في النظام اذا توصلت الفئات الاجتماعية صاحبة المصلحة في هذه المطالب في الريف الى تعبئة قواها وتنظيمها وناضلت بدأب وثبات في سبيلها بالتحالف الوثيق مع الطبقة العاملة

←

Digitized by Birzeit University Library

بين الاطراف هذه ، (رغما عن المتغيرات المهمة في سياسة بعض الاحزاب القطرية والتي تبنت نظرية العمل القومي ، المشوب بالغموض) كانت لقاء ولم تقم على اسس ثابتة ومدروسة ·

وبالتاكيد فان للسلطة دور في عدم وصول هذه الاحزاب لذلك · الا ان سياسة هذه الاحزاب لعبت دورا ايضا في عدم الوصول لعلاقات جبهوية متقدمة · ولقد كان لتكتيك السلطة التاريخي مع هذه الاحزاب ، عندما تواجه مدا وحدويا شعبيا قويا في البلاد ان تتقرب من الاحزاب القطرية من اجل تحييدها ، مع بعض التصريحات المطمئنة حول بعض المسائل الاجتماعية · وعندما تواجه مشاكل اجتماعية مستعصية ، ومدا شعبيا مطالبا بحل هذه المشاكل ، تتقرب من الاحزاب القومية بوعود معسولة وببعض البيانات حول تاييد القضايا الوحدوية والقومية ، قاصدة من ذلك تحييد هذه الاطراف · ان عدم قيام جبهة وطنية بين الاحزاب القومية والوطنية جعل السلطة تستمر في ممارساتها ، وجعل هذه الاحزاب فيموقف الضعيف سواء فيمعالجتها للمشاكل الوطنية والقومية ، ام بالنسبة للمشاكل الاجتماعية · وهذان وجهان لعملة واحدة في نهاية الامر ·

استمر هذا الوضع وهذه العلاقة ما بين الاحزاب والسلطة حتى ما قبل الاحداث الاخيرة ، وان كان قد دخل عامل جديد في نهاية الستينات ، المقاومة الفلسطينية ، لا كشعب ، فالشعب الفلسطيني وجد في لبنان بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، ولكن كممارسات جديدة لقوى سياسية بدأت تتعامل مع الاحتلال عبر خط حرب الشعب كما طرحته هذه القوى · وكان لا بد لهذا الطرح من ان يؤدي الى متغيرات في علاقة السلطة اللبنانية ـ بالشعب الفلسطيني ، فالسلطة كان يهمها ان يقدم لها الفلسطينيون كل الخدمات التي هي بحاجة لها ، دون ان تقدم لهم شيئا ، وبالعكس فقد عومل الفلسطينيون من قبل السلطة بشكل لاانساني، واعتبروا من الدرجة الثالثة حسب تعبيرات السلطة ، والبعض من القوى السياسية كحزبي الكتائب والاحرار ·

وبالتاكيد فلا بد لهذه المتغيرات من ان تؤدي الى طرح جديد للاولويات ، حيث كان الهدف السياسي بأن تحرير فلسطين له الاولوية فهو مدخل للوحدة ، ومدخل للمتغيرات الاجتماعية المطلوبة · والمقاومة بامتداداتها على الساحة اللبنانية ، لم يعبر عن خطها عبر حزب ، بل تعاونت مع جميع القوى دون استثناء · ويعود ذلك لمجموعة اسباب :

١ ـ ان طرحها لمهمات ، غير مهمة التحرير، سيؤدي بها الى صدام مع الانظمة اولا ومع الاحزاب ثانيا ، وهي كانت حريصة على عدم حصول ذلك · من هنا كان شعار « عدم التدخل في الشؤون الداخلية » والذي كان يهدف الى ان هذه الاحزاب وتلك الانظمة عليها ان تحترم الارادة الشعبية للفلسطينيين ، مقابل الالتزام بعدم التدخل في الاوضاع الداخلية لهذه الانظمة · ولتلك الاحزاب كما تقول المقاومة ·

٢ ـ الاعتقاد لدى قيادة منظمة التحرير ان

.....

⟹

والقوى الشعبية في المدينةو البلاد كلها ، الشيوعيون اللبنانيون ومهمات المرحلة المقبلة ص ٦٨٥ ـ منشورات الحزب الشيوعي ١٩٧١ · ولم يقل الشيوعيون اذا كانت اسرائيل تسمع بذلك ام لا ، كذلك الوضع العربي الذي كان له الدور المهم بالازمة اللبنانية ....

Digitized by Birzeit University Library

النضال ضد العدو الصهيوني سيجر البلاد العربية للمشاركة في النضال .

٣ ـ كان هناك شعورا ، وان كان جنينيا ، حول التداخل ما بين قضية التحرير والوحدة ، والقضايا الاجتماعية . وتجلى ذلك في « الارض لن يحررها » . كذلك كانت هناك مفاهيم بدائية جدا حول المسألة القومية تجلت بالشعار الذي رفع « الثورة فلسطينية القلب عربية الوجه والامتداد » .

من هنا فقد ادى دخول الثورة وعملها في المحيط المحاذي لفلسطين الى اعطاء مسألة الوحدة بعدا جديدا ، كما اعطى للمسائل الاجتماعية ابعادا جديدة وادى ، وان كان بالتدريج ، الى الشعور بالترابط بين مجمل هذه الشعارات ، وان كان الهدف السياسي هو الاساس باعتباره يعطي للمسائل الثانية بعدها الحقيقي .

وفيما اذا كان هناك من نقد حول مسيرة الاحزاب وخطها وعلاقاتها ببعضها بعضا ، فان هناك ملاحظات حول سياسة المقاومة وعلاقاتها وخطها السياسي .

فالواقع الفلسطيني ، هو جزء من الواقع العربي ، وامتداد له ، والواقع السياسي الفلسطيني صورة مصغرة عن الواقع العربي . وان عدم ربط الواقع الفلسطيني بالواقع السياسي والاجتماعي لتواجد الفلسطينيين رغما عن المحاذير التي ذكرت ، ادى الى تقوية الجذور الاقليمية ، والى الشعور الدائم خاصة لدى القيادة بضرورة ايجاد سلطة مستقلة وكيان خاص، مما ادى الى التعبئة السياسية على هذا الاساس ، ومعا ادى ايضا الى ضعف العلاقات الجبهوية وباستمرار بين اطراف العمل الوطني الفلسطيني . من هنا فقد كان الركض دائما وراء الانظمة العربية لا وراء الجماهير العربية ، والتي لها المصلحة الاساسية في التحرير والوحدة وتحقيق الديمقراطية الشعبية . وكان الركض وراء التناقضات العربية والعالمية لا من اجل تعميقها وصولا لثورة عربية ، تطرح القضية العربية برمتها بل من اجل المراهنة عليها، وفي القول انها تؤدي الى الدولة والكيان العتيد . وادى هذا في الواقع الى ضعف العلاقة والوضع الداخلي للمنظمة مع الجماهير العربية ، ان المراهنة على التوازنات العربية والدولية ، خاصة بعد حرب تشرين ، لدليل قاطع على السياسة الخاطئة التي اتبعت منذ ذاك .

نقول هذا ونحن ندرك جيدا ان الجذور الاقليمية لها امتدادات في الواقع الفلسطيني، وان دلت هذه الامتدادات على شيء فانها تدل على ضعف العمل القومي الوحدوي التحرري وعلى قوة الهيمنة الاجنبية والمرتبطة اضافة للوجود الصهيوني بحدود التجزئة ، وبوجود قوى اقليمية مستفيدة من هذا الواقع ومدافعة عنه .

اضف الى ذلك ان جذور العمل الاقليمي له امتدادات على الصعيد الفلسطيني مثله على الصعيد العربي ، كون مشاكل الفلسطينيين في البلاد التي نزحوا اليها مرتبطة بمشاكل الطبقات الاجتماعية في الوطن العربي ، اضافة الى ان مسألة التجزئة انعكست بحدة على وضع الشعب الفلسطيني . نقول هذا ونحن ندرك ان لب المسألة القومية مرتبط بقضية التحرير كما ان قضية التحرير مرتبطة على الصعيد الطبقي بوجود تحالف مجموعة طبقات لها مصلحة في العمل القومي العربي المشترك للتحرير . لان القوى التي ليس لها مصلحة مصلحة في النضال القومي التحرري تتحالف بين بعضها البعض للوقوف بوجه القوى التي لها مصلحة في التحرير والوحدة والديمقراطية الشعبية .

ان منظمة التحرير الفلسطينية وسياستها التي تجلت عبر اعتمادها العنف المسلح لتحرير الارض قد اعطت الاولوية لمسألة التحرير ، دون ان تربطها بقضايا الثورة

Digitized by Birzeit University Library

الاخرى · ان ذلك ، بالاضافة لاوضاع الاحزاب وعلاقاتها مع بعضها بعضا ، ادى الى عدم تطور التحالفات سواء على الصعيد الفلسطيني ، اذ هناك قوى عديدة خارج منظمة التحرير ، او على الصعيد اللبناني مرحلة ما قبل الازمة · وهذا ما ادى الى ضعف العلاقات الجبهوية اللبنانية ـ الفلسطينية وبالتالي العربية · نقول هذا ونحن ندرك ان هناك تحليلات واجتهادات تتناول هذه المسائل وتربطها ببعضها بعضا الا ان هذه التحليلات الصادرة عن البعض لم ترتفع لتصل الى ان تصبح الاتجاه الرئيسي المؤثر ·

وفيما اذا كنا نتكلم عن الوضع السياسي لقوى الثورة وللعمل السياسي في لبنان ، فان هناك قصورا واضحا في العمل السياسي على الصعيد العربي بهذا الاتجاه ، فالاتجاهات السياسية العربية لا زالت حتى الان دون هذا المستوى وهذا لا شك ينعكس على وضع الساحة اللبنانية ـ الفلسطينية ويؤثر فيه ، فالوضع العربي كل واحد مؤثر ومتأثر يفعل ويتفاعل يأخذ ويعطي ، ولا شك ايضا ان اية متغيرات في اية بقعة من الوضع العربي لها انعكاسات على الاجزاء الاخرى من الوضع ، احيانا انعكاسات سلبية ، واحيانا انعكاسات ايجابية ·

ولكن الوضع العربي اذا كان بالصورة الراهنة التي نراها ، لا يمنع من ان يصار لعلاقة واضحة بالتعامل معه عبر الثورة الفلسطينية وعبر الحركة الوطنية اللبنانية وهذه العلاقة لا بد ان تركز على القوى والحركات الشعبية القومية في هذا الوضع اساسا · وبسبب من عدم حصول ذلك اخذت العلاقة ما بين المقاومة والانظمة العربية والقوى الوطنية العربية طابعا رسميا ، ولم تتبلور لتشكل منحنا جديدا نحو وعي ظروف الثورة العربية والعمل من اجل تحقيقها · وان كان بشكلها الجنيني الاولي ، وان كان هذا يقتضي العمل من اجل التنظيم الطليعي العربي الواحد من جهة والجبهة الشعبية العربية الموحدة من جهة ثانية · ان المسألة صعبة جدا ، ولكن المرحلة السابقة لا بد من ان تدفعنا لتلمس البدايات الاولى بهذا الاتجاه ·

وفيما اذا لم يكن العمل بهذا الاتجاه فان ما حصل في الاردن ينتظرنا في لبنان ، وفي مناطق اخرى من الوطن العربي ، ظفار مثل اخر على ذلك ·

لقد كانت علاقة الاحزاب والمقاومة مع السلطة اللبنانية في مد وجزر وكان يحكم هذه العلاقة عاملين : داخلي وهو تأثير هذه الاحزاب على السلطة ، وعامل خارجي وهو علاقة السلطة مع البلاد التي تشكل هذه الاحزاب امتداد للعمل السياسي معها · ورغما عن وحدة هذين العاملين ، وجدلية التفاعل بينهما الا ان السلطة في لبنان كانت تحاول باستمرار الاستفادة من تناقضات الاحزاب بين بعضها البعض لضرب الجميع من جهة ، ولتقوية مواقعها من جهة ثانية · ولا عجب فالسلطة اللبنانية تطورت تاريخيا ، كما الاردن ، عبر وجود وتطور التناقضات العربية ·

ان القوى الاكثر اضطهادا من قبل السلطة كانت تلك المتعاطفة مع القضية الفلسطينية ـ ومع القضايا القومية والوحدوية في المنطقة العربية · ويعود ذلك لان الخطر الاساسي على الوضع السياسي للسلطة يأتي من القوى التي تطرح اولوية التحرير ، مع ما لذلك من استعدادات ، ومع ما لذلك من القدرة على التعبئة · ومع ما لذلك من انعكاس على وضع الاستغلال الاجنبي للاقتصاد اللبناني، كاقتصاد خدمات وتجارة تابع للاسواق الرأسمالية الاجنبية ، وعلى الطبقة التجارية لا في لبنان فحسب بل في المنطقة العربية كلها ، ومن ارتباط بمسألة الامتيازات الطائفية ، فقطاع الخدمات والتجارة اساسا هو امتداد للهيمنة الاجنبية في الداخل

Digitized by Birzeit University Library

اللبناني ـ والعربي ، وهو تعبير عن مدى التبعية للخارج ، وهو مؤشر جدا في وضع القطاعات المنتجة · فالواقع العربي ، واقع متخلف ومرتبط اساسا بالزراعة ، وبتطور اولي في قطاع الصناعة ، اضافة للمواد الخام والتي يشكل النفط الاهمية القصوى بالنسبة لبعض الاوضاع العربية ·

■ الازمات الاجتماعية وموقف السلطة منها:

ولو اخذنا الوضع اللبناني لرأينا بوضوح سيطرة قطاع التجارة والخدمات على الواقع في لبنان ، ولرأينا ان الريف في لبنان يعتمد مجمل سكانه حتى نهاية الخمسينات على الزراعة وفي هذا الواقع المشوه ، المنفصل عن الواقع العربي كما تريده السلطة ، مجموعة انماط اجتماعية يمثل بعضها مرحلة ما قبل العلاقات الراسمالية ، ويمثل بعضها علاقات شبه رأسمالية ، واحيانا رأسمالية · ونرى ان سمة التعايش تلك أبقت على استمرارية تلك العلاقات المشوهة عبر استمرارية سيطرة القطاع التجاري المرتبط بالنفوذ الاجنبي ·

ان قطاع التجارة والخدمات وبالاحرى الطبقة البرجوازية الكمرادورية بحاجة لاستقرار في الوضع الداخلي من اجل استمرار استغلالها وعلاقاتها مع الخارج · ولهذا فهي بحاجة لمهادنة العدو الصهيوني، لانها تستمد جزءا مهما من قوتها ومن سيطرتها منه · وهي بحاجة للمحافظة على العلاقات في الداخل ومع الخارج · وبالتاكيد فان الازمات الامبريالية كانت تنعكس بحدة على الوضع اللبناني ـ العربي · فالسلطة اللبنانية بدأت تخشى تطور النفوذ العربي في لبنان عبر المقاومة ، اضافة الى ان مسالة الاعتداءات الصهيونية على لبنان وموقف الدولة المتخاذل اتجاهها ، كان لا بد من ان يؤدي الى نهج ليس مهادن للمقاومة والقوى المتعاونة معها ، وبل يعمل ضدها مباشرة من اجل حسم ما يسمى بالعدو لها المتمثل بالشعب الفلسطيني كما بينت الجبهة اللبنانية ، وكانت احداث ١٩٧٣ المدخل لذلك · الا ان هذه التجربة كانت فاشلة ، ولا بد من التفتيش عن اسلوب اخر ، وكان تحضير الجبهة اللبنانية ضمن هذا الاطار وكي تكون البديل للسلطة من اجل تصفية وانهاء الوجود الفلسطيني ، وكما حصل في الاردن ، تحت سمع وبصر السلطة وفي ظل مساعدتها وبشكل فعال لعمل الجبهة اللبنانية باعتبار الجبهة اللبنانية تدافع عن السلطة وعن الشرعية ، بينما القوى الاخرى، والتي تدافع عن الارض وعن الجنوب من الاعتداءات والاطماع الصهيونية تقف ضدها · اضافة الى ان المسائل الاجتماعية تفاقمت خلال السنوات السابقة بشكل كبير جدا ، وبالتاكيد فان السلطة لم تستطع حل اي جزء من هذه المشاكل · مثلا انتفاضة العمال والتي حصلت عام ١٩٧٢ ، عبر معمل غندور وتوسعت بعدها لتشمل كل الوضع اللبناني ، وثانيا انتفاضة مزارعي التبغ في ٢٥ـ١ـ١٩٧٣ ، حيث رفعت شعارات وهتافات منها « يا للعار يا للعار جيش بيضرب شعبو بنار » و « هيدا حكم الزناكيل ضرب وقتل وتنكيل » و « نحنا بنتعب ليل نهار تنعطيم للسمسار » و « هلي عالريح يا ثورتنا الشعبية ، قمع وارهاب دولتنا اللبنانية » و حكم الافندي والبيك ضربه علي وضربه عليك » وقال حينها السيد علي مهدي ابراهيم « ان السلطة ارادت ان تجهض الحركة الشعبية بافتعال الحوادث والادعاءات الكاذبة من اعلى مسؤول فيها الذي هو رئيس الحكومة (٠٠٠) واضاف « ان ادعاء الحكومة ان بعثيين وشيوعيين ويساريين هم الذين حركوا الفلاحين هو ادعاء زائف اعتاد الشعب سماعه وعرف زوره وبهتانه · ولو بعث السيد المسيح اليوم والرسول محمد وطالبا بحق الشعب لقالت السلطة ان المسيح

Digitized by Birzeit University Library

ومحمد شيوعيان وبعثيان · واشار الى ان العمل الشعبي يتصاعد بعنف حتى تتحقق مطالب مزارعي التبغ » (٨) علما ان السلطة حينما تصدت للمتظاهرين بالسلاح مما ادى الى استشهاد المزارع حسن الحايك ، ونعيم درويش · كما قامت في عام ١٩٧٤ مظاهرة وحصل عصيان مدني في منطقة بنت جبيل ، ومطالبة باتخاذ اجراءات فعالة للدفاع عن الجنوب ، وذلك على اثر اعتداء اسرائيلي واسع على قرية بليدا مما ادى الى استشهاد كل من محمد موسى ، وعلي محمد العبد حجازي ، وحسن محمد حسين بشظايا المدفعية الاسرائيلية ، وتكلم في مهرجان عمل لتأبين الشهداء عدد من الخطباء شجبوا خلالها تخاذل السلطة في الدفاع عن الجنوب ومما قاله الشيخ محمد يعقوب « اننا لن نسمح بسياسة الطغاة وسياسة الصهاينة والامريكان بأن تفرض علينا حلولا من خلال نزوحنا وهروبنا » وتساءل بعدها « هل نحن فعلا جزء من لبنان ؟ ما هي مقومات بقائنا ؟ اذنبنا اننا نعيش على هذا الموقع الحدودي (٠٠٠) وبعد انتهاء الاحتفال طلب المحتفلون بالذهاب الى بنت جبيل والتعبير للمسؤولين عن واقعنا · وردد الالاف هتافات منها « باللعار باللعار فتحوا جبهة عبليدا » و « بالروح بالدم نفديك يا جنوب » كما اطلقت هتافات معادية لبعض الزعماء · وفي عيترون رافق المسيرة جزء من الاهالي كما انضم اليها قسم من اهالي حولا وميس الجبل ومجيبيب وعيناتا وعيتا الشعب · وحين الوصول الى بنت جبيل تصدت السلطة لهم ، مما ادى الى اقتحامهم للسجن والسرايا والمخفر والى اتلاف محتويات هذه المراكز كما قطعت حينها خطوط الهاتف · وبالتأكيد فان المطلب الاساسي للاهالي تركز حول قيام الدولة بمسؤولياتها تجاه الدفاع عن الجنوب (١٩) وتبع ذلك الاعتداء الاسرائيلي على بلدة الطيبة مما ادى الى استشهاد عائلة شرف الدين ومن ثم الاعتداء الاخر على كفرشوبا في ١٠ـ١ـ١٩٧٥ ، مما ادى الى مواجهة استمرت حوالي الاسبوع مع الاهالي والمقاومة ـ ضد القوات الصهيونية والى تدمير معظم منازل البلدة ، تبع ذلك ايضا حادثة صيدا في بداية شهر آذار ١٩٧٥ ، حيث تظاهر صيادو الاسماك مطالبين حينها بانهاء العقد مع شركة بروتين ، الذي يرأسها كميل شمعون ، والقاضي باحتكار صيد الاسماك على الشاطىء اللبناني وهذا ما ادى حينها الى استشهاد المناضل الشعبي معروف سعد · وقد طالب صيادو الاسماك بما يلي :

١ ـ حماية البحر من صيد الديناميت وسحب رخص الكومبريسا التي تقضي على السمك الكبير والصغير ، وخصوصا على المرعى ·

٢ ـ تحويل مصب المجارير عن البحر ، لان مياه المجارير تهجر السمك ·

٣ ـ تعميق المرفأ ، وجرف الترسبات منه ، وبالتالي ازالة الصخور من مدخله ·

٤ ـ تأمين الضمان الصحي للصيادين ·

٥ ـ منح النقابة قرضا لتؤسس هي مصانع لتعليب السمك وتطويره ·

٦ ـ انشاء تعاونية لصيادي الاسماك ، ومساعدتها في استقدام الخبراء · لكن انشاء التعاونية كان مشروطا بتحقيق مطالب البلدة ·

.....

١٨ ـ النهار ، ٢٦ـ١ـ١٩٧٣ .

١٩ ـ النهار ـ بتصرف ١٤ـ١٠ـ١٩٧٤

Digitized by Birzeit University Library

٧ ـ خفض رسم رخصة الزورق السنوية واعادتها الى ما كانت عليه سابقا (٢٠) .

ان الصيادين ووجهوا بموقف الدولة حيث ضربوا بالرصاص . مما ادى الى استشهاد البعض والى جرح البعض الاخر .

ومما عمق ازمة السلطة في لبنان ، هو البدء في بعض الدول العربية ، والتي انفتحت على الاسواق الرأسمالية الاجنبية ، مما ادى تدريجيا الى ان تأخذ هذه البلاد الدور اللبناني . مثلا على ذلك مصر حيث ان سياسة الانفتاح الاقتصادي تطورت تطورا مذهلا في عهد الرئيس السادات ، مما ادى الى ان يلعب الاقتصاد المصري دورا مشابها للاقتصاد اللبناني . كذلك دول الخليج والاردن .

ان هذه التحولات في هذه الانظمة ، رافقها تطور في الصلة والعلاقة مع الاسواق الرأسمالية العالمية اضافة الى مهادنة فتطور سياسي ـ اقتصادي مع هذه الاسواق خاصة الامريكية ، مما ادى ذلك تدريجيا ليس وفقط لمهادنة العدو الصهيوني ، بل الى حد القول بالاعتراف به وباقامة علاقات سياسية واقتصادية معه . ان هذه السياسة لم تكن تؤدي الا الى تشجيع وبل دفع الجبهة اللبنانية كي تتوجه وتقوم بما حصل خلال عامي ٧٥ ـ ١٩٧٦ .

ان علاقة الدولة بالاحزاب وبالمقاومة كانت كما سبق وذكر ، لهذا فكافة الاحزاب الوطنية والقومية ، رغما من الليبرالية المطلوبة لاستمرار قطاع التجارة والخدمات عربيا ودوليا ، كانت مضطهدة ومحاربة . ولحصر نفوذ المقاومة وضربه نفذت السلطة مجموعة مسائل (١) بدأت بتوجهات فعلية لاستقطاب اوسع الشباب ، تحت اسم انصار الجيش للدفاع عن الحدود الجنوبية ، الا ان هذه التوجهات كانت فعليا لمنع المقاومة ومحاولة عرقلة عملها في القتال ضد العدو الصهيوني . (٢) تجنيد آلاف المخبرين في جهاز المخابرات ما بين عام ٦٨ ـ ١٩٧٥ وذلك لمراقبة المقاومة والقوى المتعاونة معها . (٣) مجلس الجنوب وكان لبقاء واستمرار الامتدادات السياسية للدولة في الجنوب ، ولتنفيذ سياستها عبره ، ومن اجل تنفيس وضرب العمل الشعبي المتصاعد والمطالب بالدفاع عن الارض وبتحسين الاوضاع المعيشية للاهالي . وبالتالي لابعاد اكبر عدد ممكن من الاهالي عن العمل الوطني وعن التعاطف معه .

وفي حين ان الدولة كانت تشيع ان الخراب في الجنوب بسبب المقاومة ، الا ان اوضاع الجنوب قد استغلتها السلطة أبشع استغلال في علاقاتها العربية والدولية . بحيث ان الجنوب كان المنطقة التي تدر عليها المساعدات العربية ـ والدولية والتي قدرت بمئات الملايين من الليرات . بينما ما قدم للجنوب لا يسمن ولا يغني من جوع كما يقول عامة الناس . واخر مثل على ذلك ما قدم للدولة من الدول العربية بعد احداث كفرشوبا في بداية ١٩٧٥ ، اذ تجاوز المبلغ الـ ٤٠٠ مليون ليرة لبنانية ، ما بين مساعدات مادية وغيرها .

■ **الدولة والمنظمات والنوادي في الجنوب :**

ان المنظمات الاجتماعية من نوادي ومؤسسات صحية وكشفية من تلك الموجودة في الجنوب . نشأت وتبلورت من اجل تحسين اوضاع السكان الصحية والاجتماعية والثقافية لهذا فقد سنت السلطة قوانين صارمة من اجل الحد من نشاط هذه المؤسسات كما عملت حين كان الامر يفلت من يدها ، على محاربة كافة القوى الوطنية والقومية في هذه المؤسسات ، وذلك بمنع

٢٠ ـ النهار ـ ١٧ـ٣ـ١٩٧٥ .

Digitized by Birzeit University Library

اعطاء ترخيص حين كان احد الاشخاص من القوى الوطنية . وبالتالي فان السلطة كانت تجهد للسيطرة على كافة المؤسسات وتوجيهها لخدمة سياستها وتحقيق اغراضها . وفي حين ان في الجنوب ما يزيد عن المائة مستوصف مثلا ، الا ان هذه المستوصفات كانت اسميا ولم يكن لها وجود فعلي عمليا . كذلك بالنسبة للنوادي ، فالسلطة كانت تحاول بشتى الوسائل وضع كافة العقبات امام هذه المؤسسات من اجل تفشيلها ، فهي تمنع عنها الاطباء والادوية، والممرضات ، والمساعدات كما تمنع عن النوادي المساعدات المطلوبة من اجل القيام بالحدود الدنيا من النشاطات ، وحين تفشل هذه المؤسسات في القيام بأهدافها ، كانت السلطة تشيع ان المسؤول عن ذلك « الاحزاب، والتي تخرب كل عمل » و « الاحزاب لا يعجبها العجب » .

لقد كانت هذه المؤسسات كمداخل للعمل السياسي للدولة وكمداخل لمراقبة كافة التحركات المطالبة بتحسين الاوضاع المعيشية للسكان . كما ان القوى الوطنية استعملتها كمداخل ايضا للعمل السياسي لها وان كان بسرية مطلقة وبحذر كامل . وكانت الاحزاب عبر هذه المؤسسات تحاول ان تجسد الصورة التي تطمح لتجسيدها في علاقاتها مع الجماهير .

هذا وقد تطورت بعض هذه المؤسسات ، وكان لبعضها تاثير جيد ، واهمها المؤتمر الوطني لدعم الجنوب ، الذي ساعد في انشا عشرات المستوصفات في الجنوب ، كما عمل من اجل تنفيذ عشرات الملاجىء ، وفي تقديم بعض المنح المدرسية ، وبترميم بعض المدارس خلال المرحلة السابقة . ويلي ذلك النجدة الشعبية التي حصرت نشاطاتها في المجال الصحي . كما كان للنادي الثقافي للبنان الجنوبي نشاط ثقافي في بيروت .

كذلك للحركة الاجتماعية ـ المطران غريغوار حداد ـ نشاط صحي اجتماعي على صعيد الجنوب .

ان معظم هذه المؤسسات وغيرها من المؤسسات الصغيرة والمحلية التي تنهج سياسة وطنية حوربت من قبل السلطة ، ووضعت امام هذه المؤسسات كافة العراقيل سواء من حيث المعونة المقدمة لها ، ام من حيث محاربة القوى المؤثرة فيها ، والمشرفة عليها .

اخيرا

لقد وصف احدهم لبنان بشركة لاستيراد وتصريف الانتاج الاجنبي في الداخل لبنان، وفي الاقطار العربية المختلفة ووصف القوى السياسية عبر العائلات المسيطرة بأنها هي المسؤولة عن هذه الشركة ، اذ حين يموت الوالد ، يبرز مكانه ابنه لادارة شؤون هذه الشركة وبغض النظر عن صحة هذا الوصف او عدم صحته، فاننا ننظر الى الجنوب المنطقة الاكثر اهمية والاكثر حساسية ، ومن خلالها ننظر الى الوضع ليس فقط اللبناني، بل والعربي ايضا ونظرتنا الى الجنوب لكونه الزئبق لتحديد الموقف الوطني الصحيح داخليا ، وعربيا وحتى عالميا .

ان الجنوب الذي يحتضن القضية القومية الكبرى ، بعد ما تخلى عنها الذين كانوا يتاجرون بها ، كان مطلوبا ليس فقط من اسرائيل وبل ايضا من قبل القوى العربية المستسلمة لمخططات اسرائيل ، كان مطلوبا تدجينه . ان جنوب لبنان ، جنوب العرب كما وصفه البعض ، يبقى الزئبق بعد السيطرة العربية والدولية على لبنان ، فهو المحك للتوجهات الوطنية والقومية الصحيحة داخليا وعربيا . يبقى المحك للحاضر والمستقبل ، للتاريخ وللاجيال والتي لن تغفر .

Digitized by Birzeit University Library

القومية العربية وقضية فلسطين

عبد القادر ياسين

ضـــاعت فلسطن ، رغم كل هـــذا « الكم » العربي ، المنتشر من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي · ترى ، هل كان بامكان العرب الحيلولـــة دون ضياعها ؟ ام انهم اسهموا في اضاعتها ؟ وهل يجوز وضع كل العرب في سلة واحدة ؟ ام لا بد من التمييز بين الحكام وبين الجماهير ، بين الانظمة الوطنيـة وبين الانظمة العميلة ، وبين التقدمي والرجعي ؟

اعتقد انه للاجابة على هذه الاسئلة وغيرها مما يتعلق بهذا الموضـوع ، لا بد من عرض معالم الدور العربي في القضية الفلسطينية ، منذ نشأت فـــي التاريخ المعاصر وحتى مشارف الاحداث الجارية اليوم ·

حتى التقسيم

انقشع غبار الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) عن توزيع وتقسيم جديدين لبلاد المشرق العربي ، كان بجملته اقتطاع فلسطين من الجسم السوري، وانتداب عصبة الامم للاستعمار البريطاني على هذا الجزء المقتطع · على ان انتهاء الحرب تضمن ـ من جهة اخرى ـ جانبا ايجابيا لا دخل للامبريالية في صنعه ، ذلك ان حلول الاستعمارين البريطاني والفرنسي محل الاحتلال التركي في بلاد المشرق العربي ، وفر الاساس الموضوعي لالتقاء الحركات الوطنية في المشرق بمثيلاتها في الجزء الافريقي من الوطن العربي · فحتى وقوع الحـرب العالمية الاولى كانت تركيا تهيمن على المشرق كله ، في حين اقتسمت بريطانيـا وفرنسا وايطاليا الشمال الافريقي كله · وفي الوقت الذي استند وطنية المشرق

Digitized by Birzeit University Library

ـ بسذاجة عز نظيرها ـ الى الدوائر البريطانية والفرنسية ، نجد وطنيي الشمال الافريقي العرب وقد استجاروا بتركيا ، كل من الاستعمار الذي تعاني منه بلاده ! مما باعد بين الحركات الوطنية المشرقية وشقيقاتها العربية الافريقية · اما وقد توحد العدو ـ بعد الحرب ـ فان الحركات الوطنية العربية الآسيوية والافريقية غدت مهيأة للالتقاء ، بعد طول تباعد ·

واخذت البرجوازيات والطبقات العاملة العربيـــة في النضوج ، مما عزز اسس هذا الالتقاء · وظهرت شعارات القومية العربية في انحاء متفرقة من الوطن العربي ، متفاوتـة الانتشار والتأثير ، وعـلى حساب شعارات « **الجامعـــة الاسلاميـــة** » ·

على انه ما كان لبلاد ترزح تحت نير الاستعمار ان تهب لنجدة شقيقة لهـا تعاني من النير نفسه، وان كان مضاعفا (استعماري ـ صهيوني) · لكن التضامن مع شعب فلسطين اخذ يتسع ويتزايد مع كل انتفاضة وطنية في فلسطين او في اي بلد عربي ، ومع انتزاع هذا البلد العربي او ذاك المزيد من الاستقلال السياسي ·

وبالرغم من ان اغلب الانظمة العربية كانت تحول دون جماهيرها وتقديم العون للشعب الفلسطيني ، طوال العشرينيات والثلاثينيات، الا ان هذه الجماهير لم تبخل في تقديم التضحيات على مذبح القضية الفلسطينية ، واعية بأن القضية واحدة ، والعدو واحد ، والمصير مشترك · ويمكننا ان نرصد في هذا المجال ابرز المواقف الجماهيرية والرسمية العربية ، طوال العشرينيات والثلاثينيات ، حيال القضية الفلسطينية ·

ففي آب (اغسطس) ١٩٢٩ انفجرت في فلسطين الهبة المعروفة باســم « **هبة البراق** » ، نسبة الى حائط البراق بالقدس · وكانت رابع صدام عربي ـ يهودي عام يقع في فلسطين منذ الاحتلال البريطاني (١٩١٨) · الا انها الاولى من حيث الاتساع والتأثير · وفيها تعاطفت الشعوب العربية في كل من سوريـا ولبنان وشرقي الاردن ومصر والعراق مع الشعب الفلسطيني ، واهتزت اسلاك البرق تحمل تعاطف الحركات الوطنية في هذه الاقطار مع الحركة الوطنيـــة الفلسطينية في كفاحها ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية · واجتاز الحدود الى فلسطين مئات من بدو سيناء ومن السوريين والاردنيين ، لنجدة اشقائهم عرب فلسطين · في حين انهالت عليهم التبرعات المالية من العرب · هذا ، في الوقت الذي اكتفى **عبد الله** ، امير شرقي الاردن ، بالكتابـــة الى **تشانسلور** ،

Digitized by Birzeit University Library

المنـــدوب السامي البريطـــاني في فلسطين ، مؤكدا له انتساب **حـــائط البراق** للمسلمين · وفي الوقت الذي صرح الشيخ **حـــافظ وهبه** ، وزير السعوديـــة المفوض في لندن ، « ان بريطانيا تقبض بيدها على قسطاس العدل بين اليهـود والعرب » · وان **الملك ابن سعود** لا يتدخل في شؤون فلسطين « معتمـــدا على بريطانيا في دفع الظلم عن المسلمين » · وارسل **ابن سعود** ، نفسه ، برقية الى **المجلس الاسلامي الاعلى** في القدس ، اكد له فيها ثقته « بأن الحكومة البريطانية، بما نعهده من تقاليدها ، ستعامل باقصى انواع الشدة ، اولئك الآثمين »(١) · وفعلا ، ضربت حكومة الانتداب البريطاني بيد من حديد على ايـــدي الثائرين العرب ، في حين تعاملت بمنتهى الرفق مع المستوطنين اليهود ·

وفي القدس ، انعقد ، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣١ ، « **المؤتمـــر الاسلامي العام** » ، الذي ضم وفودا من ٢٢ بلدا اسلاميا ، انتهى الى اقـــرار « تنمية التعاون بين المسلمين ··· وحماية المصالح الاسلامية وصيانة المقدسات ··· وعمل معجـم للغـة القرآن الحكيـم ··· ومقاومـة الالحـاد » . على ان العناصر القومية العربية داخل المؤتمر ، بادرت الى عقد مؤتمر لها ، فور انتهاء جلسات المؤتمر الاسلامي ، اتخـــذت فيه مقررات ذات طابع قومي ، معـــاد للاستعمـــار والصهيونية ·

وشاركت وفود من سوريا وشرقي الاردن في مظاهرة يافا (٢٧ تشرين الاول ١٩٣٣) التي نمت في اطار انتفاضة تشرين ١٩٣٣ المعروفة · وفي دمشق اشتبك المتظاهرون مع الشرطة الفرنسية ، وهتفت مظاهرات الموصل وبغـــداد بسقوط الاستعمار والصهيونية · وعمت المظاهرات عمان اربعة ايام متوالية ، هاجم المتظاهرون خلالها الجنرال البريطاني ، **جون باجوت جلوب** ، قائد الفيلق العربي ، ورجموه بالحجارة ، وحطموا سيارته ، كما رجموا بالحجارة المعتمد البريطاني في شرقي الاردن ، **الكابتن كوكس** · وطالبت الجماهير الاردنيـــة الثائرة الامير **عبد الله** بضرورة التحرك لمؤازرة شعب فلسطين في انتفاضته · ومن شرقي الاردن ، ايضا ، دخل الى فلسطين نحو الفي بدوي مسلح ، بهدف مساندة الانتفاضة الفلسطينية · كما عقدت مؤتمرات جماهيرية في كل من مصر وتونس ، تضامنا مع الشعب الفلسطيني · وعبر هذا التضامن العربي عن مدى فاعلية القوميـــة العربيـــة ، التي نجحت في تخطي التقسيمات الاستعماريـــة

١ ـ عبد القادر ياسين · **كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨** · بيروت ، منظمـــة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ·

Digitized by Birzeit University Library

المفروضـــة عليهـا (٢) ٠

ومع ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية دخل عامل القومية العربية طورا جديدا ٠ ففي صيف ١٩٣٦ حاول **نوري السعيد** ـ وزير خارجية العراق انذاك ـ اجهاض الثورة مرتين متتاليتين حين اوهم قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية بقدرته على اقناع الحكومة البرطانية بضورة حظر الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ومنـع انتقال الاراضي فها الى المستوطنين اليهود ، مقابل وقف الثورة والاضـراب العربيين في فلسطين ٠ الا ان الحكومة البريطانية استاءت من طريقـة **نوري السعيد** ، ورفضت التعهـد بما عرضـه على الفلسطينيين ، بل اعلنت انها لـم توسطه او تفوضه ٠ وجاء ايفاد حكومة العراق ـ في اب (اغسطس) ١٩٣٦ فور فشل **السعيد** ـ ثلاثمائة مقاتل بقيادة **فوزي القاوقجي** ، ضمن محـاولات الرجعية العربية لاحتواء الثورة الفلسطينية واجهاضهـا ٠ فمـا كان لهؤلاء المقاتلين ان خرجوا من العراق الواقع تحت السيطرة الكاملة للبريطانيين ، ولا ان يمروا من شرقي الاردن الذي يهيمن البريطانيون على كل صغيرة وكبيرة فيها ، ولا ان يجتازوا الحدود الفلسطينية دون رضى البريطانيين انفسهم !

ومنذئذ ، صعد **الامير عبـد الله** جهوده لوقف الثورة ، وخشي ان تمتد شرارتها الى بـلاده ، كما اراد ـ بهذه الجهود ـ تقديـم خدمة لاسيـاده البريطانيين ٠ فقدم الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين مسودة نـداء كان ـ بالاشتراك مع بقية ملوك وامراء العرب ـ ينوي ارساله الى عرب فلسطين لوقف الثورة ٠ الا ان المندوب السامي لم تعجبه صيغة النداء ، بسبب تضمنهـا تعهدا بريطانيا بوقف الهجرة ومنع انتقال الاراضي ٠ وقدم ، المندوب السامي ، بدوره ، صيغة جديدة **للامير عبد الله** ، خالية من اي تعهـد بريطاني ٠ وهي الصيغة المعروفة التي وجهها الملوك والامراء العرب (**عبد الله ، ابن سعود ، يحي ، غازي بن فيصل**) الى « ابنائهم » شعب فلسطين ، في ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ ، والذي طلبوا فيـه الى الشعب الفلسطيني وقف ثورتـه « اعتمادا على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا » ٠ وغني عن القول بأن قيـادة الحركة الوطنية كانت مهيأة ، سلفا ، لقبول مثل هذا النداء ، بسبب رعبهـا من امكانية تطور الثورة ، وبسبب قلقها على موسم الحمضيات ، الذي يبـدأ ـ عادة ـ في تشرين الثاني (نوفمبر) من كل عام ٠ فأصدرت بيانا ، في اليوم التالي لبيان الملوك والرؤساء العرب ، ناشدت فيـه الشعب الفلسطيني وقف

٢ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١٤٥ ٠

Digitized by Birzeit University Library

الاضراب والصلاة على ارواح الشهداء في بيوت الله !

والملفت للنظر ان **مصطفى النحاس باشا** ، رئيس وزراء مصر آنئذ ، رفض ارسال عمال مصريين للحلول محل العمال العرب الفلسطينيين المضربين ، كما وقف ضد التوقيع على النداء الملوكي العربي ، ربما بسبب اشتباهه في امره وفي توجه صانعيه · وعندما اصدرت **لجنة بيل** بيانها في ٧ـ٧ـ١٩٣٧ ، والذي اوصت فيه بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وبريطانيا ، سارع **النحاس** الى السفير البريطاني في القاهرة ، ليعرب له عن استيائه من هذا المشروع ، الذي لا يهدد فلسطين وحدها ، بل مصر ايضا ·

وعندما عاد الشعب الفلسطيني الى الثورة المسلحة فور صدور **تقرير بيل**، ضيق**الامير عبد الله** الخناق على الثوار ، وسلم كل من وقع في ايدي قواته الى السلطات البريطانية في فلسطين التي كانت تسارع الى اعدامه ·

ثم توالت الاحداث ، وعقد في مصر **المؤتمر البرلماني العربي** ، في ١٩٣٨، لمؤازرة الشعب الفلسطيني في ثورته ، كما عقد مؤتمر اخر في بلودان للغرض نفسه · وفي ربيع العام ١٩٣٩ دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر في لندن ، يضم ممثلين عن شعب فلسطين والوكالة اليهودية والدول العربية · وفي هذا المؤتمر ، حاول مندوبو هذه الدول الضغط على مندوبي الشعب الفلسطيني لقبول التسوية البريطانية المعروضة ، والتيلم تتقدم بريطانيا بها الا ضمن خطتها لاطفاء نار الثورات الوطنية في مستعمراتهـــا ، لتتفرغ لمواجهة اعباء الحرب العالمية الثانية ، التي بدأت سحبها تظهر في الافق ·

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية ، فعـــلا ، في اب (اغسطس) ١٩٣٩ ، واستمرت حتى صيف ١٩٤٥ · وعـــادت الدماء الى عروق الحركة الوطنيـــة الفلسطينية مع انتهاء هذه الحرب ، بعد اكثر من خمس سنوات اسنت فيهـــا ميـــاه هـــذه الحركة ·

وتشكلت **الجامعة العربية** ، في النصف الاخير من العـــام ١٩٤٤ ، بوحي من الخارجية البريطانية ، في محاولة من الامبريالية البريطانية للتصدي لاطماع الامبريالة الامريكية ، التي احتلت الموقع الامامي من المعسكر الاستعماري ، مما غذى اطماعها لوراثة الامبريالية البريطانيـــة في مستعمراتها · كمـــا ارادت بريطانيا ـ بهذه الجامعة ـ ان تواجه المد الشيوعي ، الذي اتسع في اعقـــاب

Digitized by Birzeit University Library

الحرب العالمية الثانية ·

والحقت **الجامعة العربية** بميثاقها جزءا خاصا بفلسطين ، اشارت فيه الى انه اذا كانت المظاهر الخارجية لاستقلال فلسطين « قد ظلت محجوبة لاسباب قاهرة ، فان ذلك لن يكون حائلا دون اشتراك فلسطين في اعمال مجلس الجامعة » · وعلى هذا الاساس اختار مجلس الجامعة العربية **موسى العلمي** ممثلا للشعب الفلسطيني في الجامعة . وذلك دون الرجوع لقيادة الحركة الوطنية في امر هذا الاختيار · وكانت حكومة العراق تقف وراء ترشيح **العلمي** لهذا المنصب · وبذا صادرت الجامعة حق الشعب الفلسطيني في اختيار ممثليه ، كما اعطت لنفسها الحق ، منذئذ ، في التعبير عن الشعب الفلسطيني ·

وعندما تضاعفت الضغوط الامريكية والصهيونية على الحكومة البريطانية وافقت الاخيرة على ايفاد لجنة انغلو ـ امريكية ، لبحث امكانات فلسطين على استيعاب المزيد من المهاجرين اليهود · ووصلت اللجنة فعلا الى البلاد العربية ، في ربيع ١٩٤٦ · وفي الوقت الذي دعت المنظمات اليسارية الى مقاطعة هذه اللجنة الاستعمارية ، نجد امين **الجامعة العربية** وقد ادلى بشهادته امامها ، بالاضافة الى **حميد فرنجية** ، وزير خارجية لبنان انذاك · مما اعتبر تشجيعا للعناصر التقليدية في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية على المثول امام هذه اللجنة · وفعلا مثل كل من **موسى العلمي** ، **واحمد الشقيري** ، **وعوني عبد الهادي** ، **وجمال الحسيني** ، **وسامي طه** (رئيس جمعية العمال العربية الفلسطينية) امام اللجنة المذكورة ، في حين قاطعها كل من **عصبة التحرر الوطني** الماركسية الفلسطينية ، واحزاب **الاصلاح** ، **والدفاع** ، **والكتلة الوطنية** · وانتهت اللجنة الى التوصية بادخال مائة الف مهاجر يهودي الى فلسطين ·

ومنحت بريطانيا الاستقلال السياسي الجزئي لشرقي الاردن ، في العام ١٩٤٦ ، فسارع **الامير عبد الله** الى تسمية نفسه بـ « الملك » · وكشف اطماعه المتمثلة في مشروع « **سوريا الكبرى** » سيء الصيت · والذي تضمن توحيد سوريا وفلسطين وشرقي الاردن ولبنان تحت الملك الاردني ، على ان تكون فلسطين وطنا قوميا يهوديا يتمتع بالاستقلال الذاتي ·

وغدا شعار « **الجبهة الوطنية** » اكثر الحاحا ، الا ان جماعة الحسينية

Digitized by Birzeit University Library

تنكرت لهذا الشعار ، محاولة الابقاء على الاغلبية المتاحة لها داخل « **اللجنة العربية العليا** » ، مانعة عن بقية الاحزاب التقليدية الفلسطينية حق تمثيلها بأكثر من مندوب واحد ، في حين كان للحسينية خمسة مندوبين · وعند هذا الحد تعاونت عصبة **التحرر الوطني** مع احزاب **الاستقلال والاصلاح** ، **والدفاع ومؤتمر الشباب** بالاضافة الى **مؤتمر العمال العرب** (٣) · وتشكلت من هؤلاء جميعا الجبهة العربية العليا ، في اوائل حزيران (يونيو) ١٩٤٦ · وصادقت هذه الجبهة على نظام داخلي لها ، كما اعتمدت خطا ساسيا صلبا في مواجهة الاستعمار ، يرفض ملاينته او التفاوض معه · وفجأة تحركت اجهزة الجامعة العربية ، وكان حية قد لدغتها ··· اذ ان الشيوعيين قد شاركوا في التحالف الوطني مما يهدد بنسف مخططات الجامعة ، التي كانت تقع تحت السيطرة الكاملة لبرطانيا العظمى · واقنعت الجامعة قادة الاحزاب التقليدية بضرورة عزل عصبة التحرر والخروج من الجبهة ، كما اقنعت جمال الحسيني – رئيس **الحزب العربي** وممثل الحسينية – بضرورة توسيع تمثيل هذه الاحزاب في التحالف التقليدي ، المرضى عنه من الجامعة والانظمة العربية ، معا · وفعلا ، اقامت **الجامعة العربية** هيكلا جبهويا جديدا اطلقت عليه اسم **الهيئة العربية العليا** · وزعمت الجامعة انها انما اقامت هذا الهيكل لتنظيم العلاقة بين الشعب الفلسطيني والجامعة · وبهذا التصرف تكون الجامعة قد توغلت الى مسافة بعيدة في مجال مصادرة حرية الشعب الفلسطيني في الحركة وفي قيادة كفاحه الوطني · مما حدا **بعصبة التحرر الوطني** الى شن حملة اعلامية مكثفة ضد تصرفات الجامعة هذه ، وجمعت توقيعات فلسطينية على اكثر من ١٢ الف بطاقة تدعو **الهيئة العربية العليا** الى عقد مؤتمر وطني ينتخب قيادة وطنية فلسطينية · على ان **الهيئة العربية العليا** ردت بحملة مضادة ، دعت فيها الى تحميل القضية الفلسطينية برمتها الى **الجامعة العربية** ·

ثم دعت الحكومة البريطانية – في خريف ١٩٤٦ – الشعب الفلسطيني **والوكالة اليهودية** والدول العربية الى مؤتمر يعقد في لندن ، بهدف مناقشة مستقبل القضية الفلسطينية · ورفضت الهيئة العربية العليا الدعوة ، بسبب اشتراط بريطانيا عدم حضور **الحاج امين الحسيني** – رئيس الهيئة – المؤتمر المزمع عقده ، ممثلا عن الشعب الفلسطيني · على ان الهيئة عادت ورضخت

٣ – التنظيم النقابي العمالي اليساري الفلسطيني ، والذي ضم – انذاك – نحو ١٨ الف عضو ، مقابل ١٥ الف ضمتهم « جمعية العمال العربية الفلسطينية » ، التنظيم النقابي العمالي ذو القيادة اليمينية ·

Digitized by Birzeit University Library

للضغوط التي مارسها ضدها كل من **الملك عبد الله ، وعبد العزيز بن سعود ، وعبد الرحمن عزام باشا** ، فوافقت ـ في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧ ـ على حضور المؤتمر · على ان هذا المؤتمر لم يتمخض عن اي اتفاق بين الاطراف المختلفة ·

وازاء تصاعد التضامن الشعبي العربي مع الشعب الفلسطيني ، اجتمع الرؤساء العرب في اطار **الجامعة العربية** ، في خريف ١٩٤٦ ، وقرروا ضرب الحركات الوطنية التقدمية في بلادهم ، واغتيال حركة الجماهير فيها ، تحت ستار « مقاومة الشيوعية » ، فمن شأن هذا الضرب والاغتيال حسر التضامن مع الشعب الفلسطيني · وفعلا شنت حكومات العراق ومصر وسوريا ولبنان حملات واسعة ضد القوى الوطنية التقدمية في اقطارها ·

وفي شباط (فبراير) ١٩٤٧ ، احالت الحكومة البريطانية القضية الى **الامم المتحدة** ، التي اوفدت ـ بدورها ـ لجنة لتقصي الحقائق في فلسطين · قررت **الهيئة العليا** مقاطعتها ، في حين استهجنت **عصبة التحرر الوطني** موقف الهيئة هذا ، وهي التي سبق واستقبلت **اللجنة الانغلو ـ امريكية** الاستعمارية ولم تلق بالا ـ في حينه ـ لكل دعوات ونداءات **عصبة التحرر** بضرورة مقاطعة اللجنة الثنائية · وحفاظا منها على « وحدة الصف الوطني » لم تمثل العصبة امام **لجنة الامم المتحدة** ، واكتفت بتقديم مذكرة لها ، حوت عرضا موجزا لابعاد القضية الفلسطينية ، كما تضمنت مطالب العصبة في هذا الصدد ، وهي : الاستقلال التام ، وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين ·

حرب ١٩٤٨

وانتهى الامر بأن اوصت اغلبية اللجنة الدولية بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، وصادقت الامم المتحدة على هذه التوصية ، في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ · واندفعت ، منذئذ ، الصدامات الدامية بين العرب واليهود في فلسطين ، ثم جاء تدخل الجيوش العربية في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ في اطار المخطط البريطاني · فالتقسيم لم يكن سوى تسوية بين الاستعمارين البريطاني والامريكي ، حيث اعتبرت الدولة اليهودية من نصيب النفوذ الامريكي، في حين نظر الى الدولة العربية باعتبارها منطقة نفوذ بريطانية · ولتوكيد هذا الغرض اوعزت بريطانيا الى كل من انظمة العراق ومصر وشرقي الاردن بدخول

Digitized by Birzeit University Library

جيوشها الى فلسطين ، وان قيدتهـــا بضرورة عدم اجتيـــاز الخطوط المقرة في قرار التقسيم ·

على ان الانظمة العربية الثلاثة المذكورة رأت في حرب ١٩٤٨ فرصتها لضرب الحركات الوطنية المتنامية في بلادها ، وللتخلص من الضباط المشكوك في ولائهم للعرش ، ولاحراز نجاح في الصراع والخصومة فيما بين العروش الثلاثة * ، في المجالين العربي والاسلامي · وان كان هذا كله لم يمنـع هذه العروش من ايهام جماهيرها بانها دخلت هذه الحرب استجابة لرغبة هذه الجماهير في نجدة شعب فلسطين !

ثم كانت النكبة ، التي ساهمت في صنعها هذه العروش الثلاثة ، بالاسلحة الفاسدة ، والخيانة والمساومة مع الصهيونية ، وبالاكتفـــاء بادخال عينات من الجوش العربية الى هذه الحرب(٤) ، وافتقار هذه الجيوش الى القيادة الموحدة، لا بل الى مجرد التنسيق فيما بينها ، كما لم تستوعب الاسلحة التي بحوزتهـا ، وكانت تجهل طبيعة الارض التي تقاتل عليها ، والهدف الذي جاءت الى فلسطين من اجله ، واخيرا – بل واساسا – كانت الهزيمة بسبب فساد الانظمة العربية ، وخضوعها للاستعمار · اما الجماهير العربية فلم يكن لها تأثير يذكر على سير الاحداث ، بسبب محدودية نضوجها الثوري ·

وساهمت النكبة – بدورها – في فضح هذه العروش وغيرها من الانظمة العربية · فتوالت الانقلابات العسكرية في سوريا ، قبل ان ينقضي عـام واحد على النكبة ، وقتل **الملك عبد الله** ، في صيف العام ١٩٥١ ، وسقط **فاروق** عن عرش مصر بعده بسنة واحدة ، وتلاه **فيصل** في العراق ، في صيف ١٩٥٨ · الا ان هذا كله لم يحل دون ان تواصل الانظمة الجديدة سياسة ديماغوجيـة حيال فلسطين · فجميعها دأبت على الاعلان – دون ملل – انها تعد العدة من اجـل تحرير فلسطين ! وعندما كانت الهزيمة تلحق بأي من هذه الانظمة تسارع هذه

---

* المقصود هي عروش مصر والاردن والعراق ·

٤ – اشتركت مصر بعشرة آلاف جندي ، وشرقي الاردن بأربعة آلاف وخمسمائة ، وسوريا بثلاثة آلاف ، ولبنان بألف ، والعراق بثلاثة آلاف ، بما يجعل مجموع هذه القوات ٢١،٥٠٠ مقاتل · مقابل ٦٥،٠٠٠ مقاتل صهيوني في فلسطين ·
انظر : جون باجوت جلوب · **جندي مع العرب** · بيروت ، دار النشر للجامعيين ، د·ت· ص ٥٢ ·

Digitized by Birzeit University Library

الانظمة ـ بلا خجل ـ الى الاعلان بأنه لم تكن ثمة خطة ! وتحولت فلسطين الى الاوزة التي تبيض ذهبا لكل مغامر يطمع في الوثوب الى السلطة في العالم العربي ، ولكل افاق يريد لكرسي الحكم ان يستقيم تحته لاكبر مدة ممكنة ·

وبالرغم من الخلافات والخصومات الحادة التي طالما حكمت علاقات الانظمة العربية بعضها ببعض ، الا ان مواقف هذه الانظمة جميعا اتفقت من القضية الفلسطينية ، الى حد كبير ، وبشكل خاص فيما يخص الموقف من الشعب الفلسطيني ، وضرورة ابعاده عن مقود قضيته الوطنية ، والزعم بأن الانظمة هي التي تتولى هذه المهمة نيابة عن الشعب الفلسطيني ، لان تولي الشعب الفلسطيني زمام قضيته بنفسه من شأنه التشويش على القضية وعرقلة مسيرة التحرير !

على ان الانظمة العربية لم تتفق ، فقط على تغييب الشعب العربي بل ايضا على نسف قضيته الوطنية وانهائها · فكان لدول المواجهة (مصر ، سوريا ، والاردن) موقف واحد في العام ١٩٥٣ ، حين اتفقت هذه الدول ـ كل على حدة ـ مع الحكومة الامريكية على توطين اللاجئين الفلسطينيين ، بما ينسيهم بلادهم ، ويزرعهم في مناطق جديدة ، ويطوي قضيتهم الوطنية · فكان « **مشروع الجزيرة** » بين **الشيشكلي** والحكومة الامريكية ، بهدف استيعاب اللاجئين المقيمين في سوريا ولبنان ، و « **مشروع جونستون** » لاستيعاب اللاجئين في الاردن ، و « **مشروع سيناء** » لتوطين اللاجئين المقيمين في قطاع غزة ومصر · على ان كفاح الشعب الفلسطيني بفصائله التقدمية (**البعث ، الشيوعيين ، القوميين العرب**) قبر هذه المشاريع جميعا ·

وساعد استفحال ازمة الانظمة العربية ، في اواخر الخمسينيات واوائل

---

٥ ـ نضجت العوامل الذاتية للشعب الفلسطيني ، فمع النكبة سقطت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية شبه الاقطاعية ـ شبه الرأسمالية · وبضرب حكومة **النابلسي** على يدي الرجعية الاردنية انتهت فرصة البرجوازية الوطنية الفلسطينية ، وغدا الباب مفتوحا امام البرجوازية الصغيرة الفلسطينية ، التي نجحت في تحقيق نمو كمي وكيفي ، خاصة في امارات الخليج العربي ، واصبحت مؤهلة للقيادة السياسية · وفي المجال اهمها انتصارات شعوب كوريا وكوبا وفيتنام ، بالاضافة الى تقدم دور المعسكر الاشتراكي في صنع الاحداث .

Digitized by Birzeit University Library

الستينيات ، واحتدام الصراع فيما بينهـــا ، على نشوء الكيـــان السياسي الفلسطيني ، ممثلا في منظمات المقاومة **ومنظمة التحرير الفلسطينية** (٥) · ومن جهة اخرى ، ادت التطورات التقدمية في كل من مصر وسوريا والعراق والجزائر الى تعزيز حركة جماهير الشعب الفلسطيني ·

وما ان هل العام ١٩٦٣ حتى وصل عدد المنظمات الفدائية الفلسطينية الى اكثر من ثلاثين منظمة · صحيح انها لم تكن جميعا اكثر من مجرد « يافطات »، الا انها ـ مع ذلك ـ كانت تعبيرا عن رغبة الشعب الفلسطيني الملحة في تـولي امره بنفسه ، وانهاء الوصاية العربية الرسمية عليه ·

وخشيت بعض الانظمة العربية من المظاهر الجديدة ، فكانت دعوة **جمـال عبد الناصر** ـ في ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٣ ـ الى عقد اول مؤتمـر قمة عربي · على ان دعوة **عبد الناصر** لم تكن ، فقط لخشيته من هذه الظاهرة، بل ايضا للبحث عن مخرج من المأزق الذي وضعت دول المواجهة نفسها فيـه ، حين بدأت اسرائيل في تحويل منابع نهر الاردن ، وهو الامـر الذي كانت دول المواجهـــة تعد بالويل والثبور وعظـــائم الامـــور ان اقدمت اسرائيل على هـذا التحويـل ·

وكان الاتفاق الرسمي العربي على تكوين **منظمة التحرير الفلسطينيـــة** ، التي يمكن بهـــا :

اولا ـ احتواء حركة الشعب الفلسطيني و « الظاهرة الفلسطينيـــة الجديدة » لصالح الانظمة العربية ·

ثانيا ـ تمكن الانظمة العربية من التنصل من مواجهة اسرائيل تحويلها لمنـابع الاردن والاكتفاء بتعليق هـــذا الامر على « شماعة » **منظمـــة التحرير الفلسطينيـــة** ·

وانتقلت منظمة فدائية واحدة من صالونات الكويت الى خطوط المواجهة مع اسرائيل ، وبدأت اول اعمالها العسكرية في مطلع كانون الثاني (ينـــاير) ١٩٦٥ ، وبذا كتبت لها الحياة دونا عن باقي عشرات « اليافطات » الفدائية ·

وكان نشوء هذه المنظمات في الكويت بالذات مفهوما · فأولا : حققت فيها البرجوازية الصغيرة الفلسطينية تراكما ماليا ، يزيد كثيرا عما حققته في غيرها

Digitized by Birzeit University Library

من البلاد العربية · وثانيا : لم يكن للكويت مصلحة في اغتيال او اجهاض هذه الظاهرة الجديدة ، اذ كانت الكويت غير منتمية الى « نادي المنتفعين بالقضية الفلسطينية » · وثالثا : افادت الحركة السياسية الفلسطينية من الحريات النسبية في الكويت · ففي هذه البلاد قدر من الديمقراطية لم يكن يتوفر في غيرها من البلاد العربية ·

واحتضن البعث في سوريا منظمة « فتح » ، التي اتخذت من الاراضي السورية منطلقا لها ، على ان النظام الاردني لاحق فدائيي هذه المنظمة اينما وجدهم ، واعتقل وقتل كل من تصادف وقوعه تحت يديه منهم · اما النظام المصري ، فحاول احتواء اعمال فتح اعلاميا ، واظهارها بأنها تمت بوحي من القاهرة ، الا انه رأى فيها خطرا قد يجره الى حرب لا يريدها الان مع اسرائيل· لذا ازعجه كثيرا شعار « التوريط » ، الذي عملت به فتح انذاك ، وعندما سنحت الفرصة للنظام المصري وجه ضربتين متتاليتين لتنظيم فتح في قطاع غزة ، خلال العام ١٩٦٦ ، فاعتقل العديد من اعضائها ، وان عاد وافرج عنهم تحت الضغط الشعبي ، وبسبب حيرة النظام المصري حيالهم ·

وبعد وقوع نكسة ١٩٦٧ ، نهض العمل الفدائي ، واتسعت دائرته ، وتعددت منظماته ، وسارعت الانظمة الرجعية العربية الى احتضانه : ١ ـ طمعا في تسخيره لحسابها في المستقبل ، خاصة وان معظم قادة فتح انحدروا من جماعة الاخوان المسلمين الرجعية ، ٢ ـ كي تستر هذه الانظمة تقصيرها في العمل ضد اسرائيل ، ٣ ـ لتضخيم صورة العمل الفدائي ، وتقديمه بديلا للانظمة الوطنية العربية في كل من مصر وسوريا ، ٤ ـ ومن اجل ارتداء هذه الانظمة عباءة الوطنية والقومية ، مما يمد في عمرها ، ويظهرها في مظهر المنقذ !

على ان هذه الانظمة لم تدرك ـ بسبب قصر نظرها ـ بأن استمرار المعركة مع اسرائيل كان ، بالضرورة ، سيقنع قادة فتح بأن امريكا هي عدوهم الرئيسي وان المعسكر الاشتراكي هو حليفهم الاستراتيجي ، وسيفتح عيونهم ـ في الوقت نفسه ـ على التحالف الحميم القائم بين الرجعية العربية والامبريالية العالمية ، مما يجعلهم يركلون افكار الاخوان المسلمين ، وتتجذر ـ شيئا فشيئا ـ افكارهم ومواقفهم ، بما يبدد احلام الرجعية العربية في استخدام فتح لاغراض ضد التقدم في الوطن العربي · والذي حدث ان العمل الفدائي تحول ـ على عكس تطلعات الرجعيين العرب ـ الى امكانية ثورية ، تهدد بالدمار الوجود

Digitized by Birzeit University Library

الرجعي والاستعماري في المنطقة · مما دفع الانظمة الرجعية العربية الى قلب ظهر المجن لفتح ، بمجرد ظهور اتجاهات تقدمية متواضعة في داخلها · ولم يعد سرا اسهام اكثر من نظام رجعي عربي في مذبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ التي نظمها الحكم الاردني ضد المقاومة الفلسطينية ·

واليوم ، تتضافر الرجعية العربية المتسربلة بالاسلام ، مع الكتائب والشمعونيين في لبنان ، مؤكدة دورها في خدمة الامبريالية العالمية واهدافها ، كاشفة النقاب عن وجهها البشع المعادي لكل تقدم ·

على ان الامل لا زال كبيرا في جماهيرنا العربية ، وبعد ان ازداد نضوجها الثوري ، واتسعت دائرة امكاناتها · وبقي على شعبنا العربي الفلسطيني وقيادته تعميق الصلات بهذه الجماهير ، بعد ان اهدرنا فرصتنا الذهبية ـ ابان المد الفدائي العارم (١٩٦٨ ـ ١٩٧١) ـ واكتفينا بالارتباط بالانظمة ، مطمئنين الى الحماسة السطحية الشعبية العربية للمقاومة الفلسطينية ·

الخلاصة

تقتسم الساحة الفلسطينية ثلاثة اتجاهات ، بصدد تقويم الدور العربي تجاه القضية الفلسطينية · الاتجاه الاول يضع كل العرب في سلة واحدة ، من حيث سوء موقفهم وسلبية تأثيره على القضية الفلسطينية · بينما الاتجاه الثاني يضع كل العرب في السلة المقابلة ، اذ يعتبر الدور العربي ـ باختلاف اتجاهاته ـ مفيدا للقضية الوطنية الفلسطينية · في حين يفرق الاتجاه الثالث بين التكتلات والقوى ، كل حسب موقعها من معسكر الثورة ·

والاصوب هو عدم التعامل مع « العرب » ككل متجانس · بل نميز بين ما هو تقدمي وما هو رجعي ، ما هو وطني ، وما ليس وطنيا ، بين الانظمة وبين الحركات الشعبية ، بين التنظيمات الثورية وتنظيمات الثورة المضادة في الوطن العربي ·

وبعد ،

فان الامل في خروج المقاومة الفلسطينية من حالة الانحسار التي يعيشها الآن هو رهن ـ الى حد بعيد ـ بتطور ونمو الحركات الوطنية في الاقطار العربية ·

Digitized by Birzeit University Library

بريطانيا وتهويد فلسطين
اطروحات محمد علي الطاهر*

يوسف حداد

المدخل :

ادرك الطاهر ، مبكرا ، ان بريطانيا هي العدو الرئيسي الذي خان العرب ونكث باتفاقاته المشهورة معهم ، ابتداء من ابرامه معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦ ، واغداقه وعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧ وانتهاء بقيام صك الانتداب بغية الشروع في تهويد فلسطين · لقد كان سباقا في مناصبة بريطانيا العداء وتحميلها المسؤولية الكاملة خلافا لما درجت عليه دعوات الانظمة العربية والساسة الفلسطنيين في العشرينات بحصر العداء في الحركة الصهيونية وحدها ، املا بتحييد موقف بريطانيا ، وثنيها عن عزمها في تحقيق وعد بلفور · مع العلم ان السياسة البريطانية دأبت منذ بسطت انكلترا سلطانها على المشرق العربي عام ١٩١٨ على انجاز وعدها لليهود بدون موارية متبعة سياسة المراحل متخلية عن كل ما قطعته للشريف حسين من عهود ووعود ·

.....

* **محمد علي الطاهر** : ولد في نابلس عام ١٨٩٤ ، وترفي في بيروت عام ١٩٧٤ · كتب في عشرات الصحف · اقام في القاهرة ، وانشأ جريدة « **الشورى** » ، الذائعة الصيت عام ١٩٢٤ · اتصف بالاستقامة وصدق الرؤية وبعد النظر · وخاض بقلمه معركة التحرر من ربقة الاستعمار في الوطن العربي وخارجه ، وتركزت معظم مقالاته ودراساته وابحاثه حول القضية الفلسطينية · من آثاره : « **معتقل هتلر** » ، « **ظلام السجن** » ، **نظرات الشورى** » ، « **اوراق مجموعة** » ، « **خمسون عاما في القضايا العربية** » ، « **الامير شكيب ارسلان** » ·

Digitized by Birzeit University Library

اما المرحلة الاولى فقد تحققت بقيام ميثاق عصبة الامم الذي تم التوقيع عليه في مؤتمر الصلح بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٩ ، حيث نصت المادة الثانية والعشرون منه على « ان البلاد التابعة للانتداب من الحرف « ا » هي البلاد التي سلخت عن الامبراطورية العثمانية ، التي يقطنها جماعات من الناس بلغوا من التقدم مبلغا يجوز معه الاعتراف مؤقتا بأنهم دون مستقلة · على ان تتولى اسداء المشورة والمساعدة اليهم دولة منتدبة وذلك الى الوقت الذي تصبح فيه هذه الجماعات قادرة على الوقوف وحدها ، على ان يكون لرغبات هذه الجماعات اعتبار رئيسي في اختيار الدولة المنتدبة (١) » · وفي ذلك خروج فاضح عما اتفق عليه بين الشريف حسين ومكماهون عام ١٩١٦ اذ لم يكن هناك ادنى تحفظ بالنسبة لفلسطين ، ومن ناحية ثانية كان الوجود البريطاني قائما قبل وضع صك الانتداب ولم يؤخذ رأي السكان اطلاقا بصدده ، او بصدد انتداب بريطانيا ·

وتركزت المرحلة الثانية على افشال مهمة لجنة كنغ كراين الاميركية ، بعد ان تمنعت بريطانيا عن الاشتراك فيها ، لانها ادركت ان نتائج الاستفتاء حول تقرير المصير ستكون رفضا للوصايات والتجزئة ، ومطالبة صريحة بالاستقلال والانضواء تحت العرش الفيصلي الذي كانت دمشق مكانه ، اضافة الى الاعراب عن المخاوف من جراء الهجرة اليهودية والمطالبة بتحديدها خشية تهويد فلسطين واقامة دولة يهودية فيها · (٢)

اما المرحلة الثالثة فكانت فيما تمخض عنه مؤتمر سان ريمو بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٢٠ حين عملت بريطانيا مع فرنسا على استصدار قرار يقضي بوضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، على ان تلتزم بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور · وبذلك تحقق لبريطانيا وضع فلسطين تحت انتدابها واخذت على عاتقها تحقيق وعد بلفور مستترة بورقة توت دولية · وتبع ذلك بتاريخ ٢٤ يوليو عام ١٩٢٢ اقرار مجلس عصبة الامم لصك الانتداب البريطاني على فلسطين الذي قدمته بريطانيا بعد ادماج وعد بلفور فيه ، والاشارة بوضوح الى ذلك في ديباجة الصك ، الى جانب الاشارة لموافقة الدول الكبرى على الوعد والى مسؤولية بريطانيا في تنفيذه ، والتركيز على ارتباط الشعب اليهودي بفلسطين تاريخيا · وبريطانيا في ذلك تعمد الى التنصل والتعمية على اعتبار ان الدول الكبرى هي صاحبة الرأي في تنفيذ الوعد المشؤوم ، فوزر تحقيقه يقع على عاتق العصبة وليس عليها وحدها ·

.....

(١) مصطفى الشهابي · **القومية العربية** · القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٩ ، ص ٥١ ·

(٢) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٣ ـ ١٢٦ ·

Digitized by Birzeit University Library

اما صك الانتداب فيتكون من ٢٨ مادة (٣) · وقد سلبت المادة الاولى من عرب فلسطين حقهم في ادارة بلادهم ، ورسم سياستها واعطت لبريطانيا السلطة الكاملة في التشريع والادارة · واعطت المادة الثانية لبريطانيا مهمة اعداد فلسطين لانشاء الوطن القومي اليهودي وذلك بوضعها في احوال سياسية ، وادارية ، واقتصادية تضمن انشاء هذا الوطن وترسيخ قواعده · وقد نصت المادة الرابعة على الاعتراف بالوكالة اليهودية كهيئة عمومية تقدم للادارة البريطانية في فلسطين الرأي والمشورة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وكل ما يحقق انشاء الوطن القومي لليهود ،ونظرا لان هذه الوكالة لم تكن قد تألفت بعد فالجمعية الصهيونية تؤدي عملها الى ان يتم تكوينها · وتنص المادة السادسة على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين بالتعاون مع الوكالة اليهودية وتقديم الاراضي الاميرية والاراضي الموات لهم · وتوصي المادة السابعة بمساعدة اليهود الوافيدين الى فلسطين في اكتساب الجنسية الفلسطينية · وتعطي المادة الحادية عشرة الوكالة اليهودية القيام بأنشاء او تسيير الاشغال والمصالح والمنافع العمومية ، وترقية مرافق البلاد الطبيعية · وتجعل المادة الثانية والعشرون اللغات الرسمية في البلاد ثلاثة هي : الانكليزية، والعربية، والعبرية·

وبصدور هذا الصك بدأت خيانة بريطانيا تتضح اكثر فاكثر واخذت ممارساتها تفضح دورها ومسؤوليتها في عملية التهويد متخلية عن كل المواثيق والاتفاقات مع العرب مبتعدة عن كل الاعراف الادبية والاخلاقية والقانونية ، فالفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم التي بني عليها الانتداب تعترف بان فلسطين وسوريا والعراق بلغت درجة من الرقي والتقدم يستطاع معها الاعتراف بها امما مستقلة ، على ان تسدي لها الدولة المنتدبة النصح والارشاد في ادارتها ريثما تستطيع القيام منفردة بشؤونها · في حين تخول المادة الاولى المندوب السامي سلطة وضع التشريعات والقوانين، وكان من المفترض ان تكون هذه السلطة في ايدي اهل البلاد · كما ان المادة الثانية تحتم على بريطانيا خلق وافتعال ظروف تحقق قيام الوطن القومي اليهودي ، وتشير المادة الرابعة لاعتراف صريح بالوكالة اليهودية ممثلة لليهود ولا تعترف لعرب فلسطين بهيئة تمثلهم وتتحدث باسمهم · كما ان المادة الثانية والعشرين تسوي بين الاقلية اليهودية واكثرية السكان فتجعل العبرية لغة رسمية على قدم المساواة مع العربية ·

.....

(٣) دكتور عبد الوهاب الكيالي · **تاريخ فلسطين الحديث** · بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٩١ ·

Digitized by Birzeit University Library

بات واضحا منذ دخول بريطانيـة الـى فلسطين انهـا جـادة فـي تنفيذ التزاماتها لليهود وانها في حل من كل اتفاقاتها مـع العرب ، فسارت بالتهويد التدريجي خطوة خطوة وفق برنمج زمني وسياسـة محدده · فلقـد انهت في اوائل يوليو عام ١٩٢٠ الادارة العسكرية وعينت هربرت صموئيل مندوبا ساميا على فلسطين وهو صهيوني النزعة يهودي العرق ، فاخذ على عاتقه تنفيذ برنامج التهويد بفتح باب الهجرة على مصراعيـة ، وتقديم الاراضي الاميريـة هبـة للمستوطنين · وقد اصبحت ادارة هذا المندوب تابعة لوزارة المستعمرات ، وهذا يعني ان الانتداب لا يختلف عن الاستعمار في اي شيء ، كما ان الوظائف الكبرى جعلت بايدي برطانيين عملوا باستمرار علـى استبعاد اي دور لعرب فلسطين في الشؤون الادارية والسياسية ، والغاية من ذلك واضحة تهدف الى التهويد · والدليل على ذلك ان بريطانيا حتى نهاية الانتداب في ١٥ ايار ١٩٤٨ لم تنشىء حكومة وطنية تحكم فلسطين وتدير شؤونها تحت اشراف الدولة المنتدبة على غرار ما جرى في سوريا ولبنان والاردن والعراق بل حصرت السلطة خلال كل فترة الانتداب في التشريع والادارة والسياسة بيد السلطة المنتدبة ، انها تعرف ما تريد وهذا ما جعلها تدرج ذلك في المادة الاولى من صك الانتداب ·

لتهويد والوسائل البريطانية لتحقيقه

تركزت عملية التهويد على عناصر متعددة كان ابرزها ما يأتي :

١ ـ الهجرة : اصطدمت محاولات الحركة الصهيونية في الهجرة فلسطين ابان العهد الحميدي بعقبات حالت دون تحقيق هدفها على النطاق الذي اتبعته ويعود ذلك لموقف الفلسطينيين الحذر والرافض ، ولموقف السلطان الذي لم تلق الحركة الصهيونية عنـده اذانا صاغيـة غير ان الامر تبدل بعـد خلعه وتربع **جماعة الاتحاد والترقي** علـى سدة السلطة بيد ان نطاق الهجرة بقي محدودا الى ان كتب لبريطانيا ان تكون وصية « شرعية » على عرب فلسطين « القاصرين » ، فلقد اتاحت لسيل الهجرة التدفق مسخرة كل الوسائل لتحقيق مهمتها «الشريفة» في التهويد ، ومن اجل الوصول الى هذا الهدف واتاحة المجال لمزيد من الهجرة وبناء لرغبة الوكالة اليهودية والهيئات الصهيونيـة عدل القانون مرات عديدة في سنين ١٩٢١ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ وبناء لهذه التعديلات اصبح يحق للاشخاص الذين يملكون مبلغا لا يقل عن الف جنيه واسرهم ، واصحاب المهن والذين لهم مورد ثابت لا يقل عن اربعة جنيهات في الشهر والايتام والمتدينون والطلبة والذين لهم معيلون ان يهاجروا الـى فلسطيـن ويكتسبوا الجنسيـة

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينية تلقائيا (٤) · على ان الهجرة غير المشروعة كانت اكثر من « المشروعة » · وكانت سياسة الادارة البريطانية في فلسطين تقوم على التغاضي باستمرار عن التدفق غير الشرعي فاخذ بذلك عدد المهاجرين يزداد ومعه اخذت مخاوف الفلسطينيين تزداد ايضا · ولقد قفز عدد اليهود في فلسطين من ستين الفا عام ١٩١٨ ولم تكن نسبتهم تتجاوز ٦٪ من سكان البلاد الى ٦٥٠ الفا عام ١٩٤٨ بيحث وصلت نسبتهم الى ٣٣٪ من السكان واصبحوا بالتالي يشكلون خطرا فعليا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية نظرا للدعم البريطاني لهم في هذه المجالات ولانهم باتوا يشكلون ربع السكان تقريبا ·

٢ ـ تملك الاراضي والاستيطان فيها :

لقد كان تملك الاراضي هدفا استراتيجيا عند الحركة الصهيونية · وهذا ما جاء على لسان وايزمن صراحة بانه «لا يمكن انشاء دولة دون ارض ورجال (٥)» اما بريطانيا فقد مكنت الصهاينة من تملك مساحات شاسعة بقوانين ونظم اشترعتها لهذا الغرض ، وعملت على مضايقة الفلاح الفلسطيني وارغامه على بيع ارضه ، كما انها امتنعت عن اجراء اية تحسينات في المجال الزراعي بالمناطق العربية ، فبعد ان كان اليهود يملكون ٦٥٠ الف دونم اي ٢ر٥ ٪ من مجموع مساحة فلسطين فقد اصبحوا بفضل السياسة البريطانية التي سهلت لهم سبل امتلاك الاراضي الاميرية وابتياع الاراضي الشاسعة التي كانت تخص اقطاعيين غير فلسطينيين يمتلكون عام ١٩٤٨ مليونين وخمسة وسبعين الف دونم اي ٦ ٪ من مساحة البلاد ·

لقد اخذ اليهود يجهرون ابان عهد الانتداب باهدافهم المستقبلية بعد تهويد فلسطين فهم واثقون من وفاء بريطانيا لهم ·· فهذا نورمان بنتويش يقول : « لا تحتاج فلسطين المستقبل الى ان تقتصر على حدودها التاريخية فللمدنية اليهودية ان تمتد الى جميع الاقليم المحصور في الولايات الممتدة من البحر المتوسط الى الفرات ، ومن لبنان الى البيل فان هذا الاقليم هو المعطى للشعب المختار » (٦) ·

---

(٤) عيسى السفري · **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** · يافا ، مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة ، ١٩٣٧ ، الجزء الاول ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ·

(٥) دكتور سعدي بسيسو · **اسرائيل جناية وخيانة** · حلب ، مطبعة الشرق ، ١٩٥٧ ، الطبعة الثالثة ، ص ٧٣ ·

(٦) محمد عزة دروزة · **حول الحركة العربية الحديثة** · صيدا ، المطبعة العصرية ، ١٩٥٦ ، الجزء الثالث ، ص ٢٤ ·

Digitized by Birzeit University Library

٣ ـ الجهاز الاداري والتحيز البريطاني لليهود :

اصبحت الوكالة اليهودية تتمتع باستقلال ذاتي في الاشراف على شؤون الهجرة ، والزراعة والصناعة ، والتربيـــة والتعليم والامن في المستوطنات اليهودية ، وغدت حكومة ضمن حكومة بينما لم يكن من هـذا شيء في الجانب العربي ، وبدأت تظهر احيانا كلمة ارض اسرائيل بالعبرية عـلى طوابع البريد والنقود ، وفوق كل هذا حشدت الادارة البريطانية الموظفين اليهود في الدوائر الحكومية بما لا يتناسب وعـدد السكان ، ولقد نشرت جريدة فلسطين في ٢٠ يوليو سنة ١٩٤٧ بيانا عن الوظائف في عشرة دوائر تبين منه ان عدد الموظفين بلغ ٨٧ من بينهم ٨ من العرب و ٢٣ من الانجليز والباقي مـن اليهود وفي هذا ما يؤكد ان نسبة العرب لم تصل الى ١٠ ٪ في الادارات المختلفة ٠

٤ ـ بريطانيا ووضعها منابع الثروات بيد الصهاينة :

عمدت بريطانيا منذ اوائل العشرينات الى تمكين اليهود من الهيمنة على المرافق الاقتصادية الهامة ، فلقـد منحت الادارة البريطانية في ٢١ اكتوبر عام ١٩٢١ شركة روتنبرغ اليهودية امتياز توليد الكهرباء لمدة سبعين سنة ، وامتلاك الاراضي والابنية اللازمـة للمشروع (٧) ، وهذا يعني حق اضاءة اية بلدة في فلسطين عدا القدس لان امتياز اثارتها قد اعطي ليوناني عام ١٩١٤ ولم تنجح الوكالة اليهودية في الغائه بسبب الحكم الصادر عن محكمة العدل الدولية ضد بريطانيا (٨) ٠ كما عمدت بريطانيا الى اعطاء اليهود امتياز البحر الميت سنـة ١٩٢٧ لمدة ٧٥ سنة وهذه المنطقة غنيـة بالثروات الطبيعية ٠ ومن جانب آخر اقامت حماية جمركية تامة للصناعات اليهودية بغية تمكينها من النمو ، وهناك العديد من الادلة على التحيز البريطاني في هذه المجالات ٠

٥ ـ التعهد البريطاني لبناء القوى العسكرية اليهودية :

اهتمت بريطانيا منذ اوائل الانتداب بالاشراف على تدريب افراد المنظمات اليهودية ورعايتهم وتقديم الاسلحة اللازمة لهم ، كما قررت السماح للجنـود اليهود المسرحين من جيش اللنبي الاحتفا باسلحتهم وتكوين منظماتهم العسكرية٠ فشكلت منظمات « المكابي » و « شباب اسرائيل » و « ابنـاء صهيون » (٩) ٠ وسارت بريطانيا قدما في تقوية الطاقة العسكرية اليهودية حين انتدبت ضابطا

(٧) السفري ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الاول ، ص ٢٤ ٠
(٨) اكرم زعيتر ٠ **القضية الفلسطينية** ٠ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥ ، ص ٦٥ ٠
(٩) اميل الغوري ٠ **المؤامرة الكبرى** ٠ القاهرة ، دار النيل ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٣ ٠

Digitized by Birzeit University Library

وخبراء بريطانيين لتدريب اليهود على الاسلحة وتقديم ما تحتاجه قواتهم الامر الذي ادى الى استياء الفلسطينيين واعلانهم الاضراب في آخر آب ١٩٣١ ووقوع جرحى وقتلى نتيجة صدامات مع السلطات البريطانية (١٠) . هذا اضافة للاسلحة التي كان يهربها اليهود وتتغاضا السلطات البريطانية عنها عند اكتشافها .

٦ ـ استقلالية التعليم عند اليهود واتسع نطاقه :

تركت حكومة الانتداب مسؤولية الاشراف على التعليم في المدارس اليهودية للوكالة اليهودية وكانت تقدم لها المعونات المالية ، وتترك لها حرية اختيار البرامج والمواد خلافا لما كانت تمارسه مع العرب ، اما بالنسبة للتعليم العالي فان عدد الفلسطينيين الذين كانت ترسلهم للتخصص في الخارج كان محدودا جدا ، في حين ان مجال التخصص عند اليهود كان واسعا خاصة بعد قيام الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ والتي شاهد حفل افتتاحها في ٢٥ اذار من تلك السنة نفسها اللورد بلفور السيء الذكر كما شاركت بعض الدول العربية في هذا الاحتفال اذ حضر احمد لطفي السيد ممثلا لمصر وهذا ما دفع نجيب نصار صاحب « الكرمل » للتنديد به والتشهير بمشاركته ، اضافة للطاهر في جريدته الشورى .

الرفض الفلسطيني للتهويد وادواره

انتظر الفلسطينيون بعد تضحياتهم الجسيمة في الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين الوصول الى الاستقلال والوحدة ، وكان قطرهم آنذاك جزءا من بلاد الشام ، لكن آمالهم خابت قبل نهاية الحرب اثر اعلان تروتسكي عن معاهدة سايكس بيكو وتسرب امر وعد بلفور اليهم ووجدوا انفسهم وجها لوجه امام عدوين متلازمين هما : الصهيونية والامبريالية البريطانية . وتمثل التصدي الفلسطيني للتهويد بالعنف الدموي احيانا وبالرفض السياسي احيانا اخرى .

وقد مر للكفاح الفلسطيني السياسي بسبعة ادوار (١١) :

.....

(١٠) زعيتر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩١ .
(١١) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الثالث ، ص ٤ .

Digitized by Birzeit University Library

الدور الاول : يبتديء هـذا الدور بقيام وعـد بلفور وينتهي في اوائل الثلاثينات ، انصب جهد الساسة الفلسطينيين في هـذه الحقبة على معاداة الصهيونية والتركيز على محاورة بريطانيا بالحجة والمنطق لتبديل موقفها ، وعقدت الهيئات الفلسطينية سبع مؤتمرات كان اولها في القدس بتاريخ الخامس من اذار ١٩١٩ · ولقد تمخض عن مقررات مبدأية اهمها رفض الانتداب ورفض وعد بلفور ، وايقاف الهجرة والتمسك بالوحدة السورية على اعتبار ان فلسطين هي سورية الجنوبيـة وهي جـزء لا يتجزأ من سورية الطبيعية (١٢) · لكن بريطانيا لم تأبه للقرار وحالت دون عقد المؤتمر الثاني في يافا عام ١٩٢٠ بحجة المحافظة على الامن ، على الرغم من تحاشي طبقة الوجهاء السياسيين في البلاد الاصطدام مباشرة بالسلطـات البريطانيـة لاعتقادها بامكانيـة تغييـر موقفها سلميا (١٣) ·

اما المؤتمر الثالث فقد عقد في ١٣ ك ١ عام ١٩٢٠ في حيفا بعد احتلال فرنسا لدمشق ، وحضره ممثلون عن الجمعيات الاسلامية المسيحية والجمعيات الاخرى وتولى رئاسته موسى كاظم الحسيني ، وقد اصر المؤتمر على مقررات المؤتمر الاول مع طلب انشاء حكومة وطنية مستقلة ، والاعتراض على اعتراف الحكومة بالمنظمة الصهيونية كهيئة رسمية وباللغة العبرية لغة رسمية وكذلك استخدام العلم الصهيوني وقبول المهاجرين الصهيونيين (١٤) ·

اما المؤتمر الرابع فقد عقـد خلال شهر ايار عـام ١٩٢١ في القدس وقد حضره اكثر من مائة مندوب وتولى رئاسته موسى كاظم الحسيني ، وايد المؤتمر القرارات السابقة وشكل وفدا زار بريطانيا وقد نجح هذا الوفد في التأثير على مجلس اللوردات الذي ابدى رفضـه لصك الانتداب لمناقضتـه لوعود بريطانيا للعرب ، ولعدم توافقه مـع تطلعات السكان ، لكن الحكومة البريطانية لم تعر قرار مجلس اللوردات اهتماما وفسرت وعد بلفور بكتاب ابيض لازالة مخاوف العرب وهي في ذلك تعتمد التمويه والخداع مع انها اشارت بوضوح فيـه الى الوطن القومي اليهودي الذي هو حق طبيعي لهم في فلسطين · كما ان الكتاب قد اشار الى رغبة بريطانيا في اعطاء قسط من الحكم الذاتي ، وانهـا ستسعى لتأسيس مجلس تشريعي ينتخب اغلب اعضائه (١٥) · لكن الفلسطينيين رفضوا

(١٢) كيالي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ·
(١٣) **المصدر نفسه** ، ص ١٥٧
(١٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٦٣ ·
(١٥) زعيتر ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

هذا المجلس بعد ان تبين لهم انه صوري · وخلال مناقشة الامر في عصبة الامم بين عامي ٢٤ ـ ١٩٢٥ ركز المندوب البريطاني في العصبة على « انه لا يمكن انشاء مجلس تشريعي في فلسطين يكون العرب فيه ممثلين حسب عددهم ، لان ذلك يحول بين الحكومة البريطانية وتنفيذ الواجبات المفروضة عليهـا بانشاء الوطن القومي اليهودي » (١٦) ·

انعقد المؤتمر الخامس بتاريخ ٢٢ آب ١٩٢٢ في مدينة نابلس وقد تمخض عن انتخاب لجنة تنفيذية برئاسة موسى كاظم الحسيني واصدار ميثاق قومي يهدف للسعي الى تحقيق الاستقلال ورفض الهجرة والتهويد ومقاطعة البضائع اليهودية ومشروع روتنبرغ والحيلولة دون بيع العقارات الى اليهود وتنفيذ « برنامج مالي » لجمع التبرعات ·

وعقد المؤتمر السادس في مدينة يافا بتاريخ ١٦ حزيران ١٩٢٣ واصر المؤتمرون على تحقيق المطالب السابقة للمؤتمرات · اما المؤتمر السابع فقد عقد في القدس بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٢٨ وصدر عنه مقررات اهمها : المطالبة بحكومة نيابية ، والاحتجاج على كثرة الموظفين الانكليز وعلى امتيازات البحر الميت المعطاة لليهود وتفضيل سلطات الانتداب العمال اليهود على العمال العرب (١٧) ·

هذا على صعيد النضال السياسي اما على صعيد النضال الدموي ، فقد حدثت اولى الاضطرابات والاصطدامات الدموية في الاول من ايار ١٩٢١ وكان انحياز السلطات البريطانية الى جانب اليهود وضحا كل الوضوح · وعلى اثر ذلك عمدت بريطانيا الى ارسال لجنة تحقيق لامتصاص النقمة واجهاض الانتفاضة وكانت اللجنة برئاسة قاضي القضاة توماس هايكرافت ، وجاء تقرير هذه اللجنة موضحا ان اسباب الانتفاضة مرده الى مخاوف العرب من عملية التهويد · وعلى اثر نشر هذا التقرير عمد اليهود الى اتهام هايكرافت بالتعصب للعرب ، فنقل على اثر الاحتجاج الى منصب آخر خارج فلسطين (١٨) ·

.....

(١٦) الغوري ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٦ .

(١٧) السفري ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الاول ، ص٩٥ + الكيالي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠١ .

(١٨) الغوري ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٩ .

Digitized by Birzeit University Library

ثم جاءت ثـــورة البراق في اواخر عـــام ١٩٢٨ وشملت معظم مناطق فلسطين ، فاستقدمت بريطانيا قوات اضافية من الخارج واعتقلت المئات وحكمت بالاعدام والسجن المؤبد على العشرات ، ثم ارسلت لجنة تحقيق عرفت بلجنـة شو · وجاءت نتيجة التقرير بان سبب الاضطرابات انما يعود لتدفق المهاجرين اليهود ، ولبيع الاراضي ، ولرفض الانتداب والرغبة في تحقيق الحكم الذاتي اضافة لمشكلة البراق ، غير ان السلطات البريطانية لم تأخـــذ بتقرير اللجنة · ولقد ارسلت اللجنة التنفيذية وفدا منها الى بريطانيا لتوضيح حق العرب وابطال ادعاءات الصهاينة في الحادي والعشرين من اذار ١٩٣٠ · لكن بريطانيا اعلنت ان طلبات الوفد غير معقولة لانها تتناقض وصك الانتداب (١٩) · وابرق الوفد محتجا ومنذرا بان كل عـربي يفضل الموت دفاعا عـــن حقوقه وكيانه ومتهما بريطانيا بالتحيز السافر لليهود والسير قدما في عملية التهويد ، وهذا يعني ان الساسة الفلسطينيين يئسوا من تحيد بريطانيا بعد ان هادنوها سنوات فوجدوا خطأ مواقفهم السابقة في تلك المهادنة فانتفلوا للاتهام والمواجهة ·

لقد اتصفت المرحلة النضالية الثانية التي ابتدأت عام ١٩٣٢ بمجاهرة عداء بريطانيا خلافا للمرحلة السابقة · ففي حين كنت النقمة منصبة على الصهيونيين اصبحت منصبة على بريطانيا بعد افتضاح امر خداعها وتحيزها · وهذا ما جعل مؤتمر يافا المنعقد في ٢٦ اذار ١٩٣٣ يقرر تحميل بريطانيا المسؤولية عن كل ما حدث والامتناع عن دفـع الضرائب لها والقيـــام بمظاهرات واحتجاجات عبر اضراب شامل اسفر عن سقوط جرحى مـن العرب واليهـــود (٢٠) · وتوالت الاضرابات الـى ان قامت لجنـة تحقيق برئاسـة السير موريسون واعـــلن الفلسطينيون عدم ثقتهم بها · لقـد ايقن الفلسطينيون حتى القيادات السياسية المتذبذبة المواقف ان محاورة بريطانيا بالمنطق لا تجـــدي فلجـأوا الى التسلح والتنظيم فكانت ثورة الشيخ عز الدين القسام عام ١٩٣٥ واستشهاده الذي كان له الوقع الفعال في بعث الحماس والوعي في نفوس الناس عـــامة · لكن هذه الصدامات لم تزحزح الموقف البريطاني مما ادى الى انفجار ثـورة ١٩٣٦ التي شملت كل انحاء فلسطين ، ومع استقدام بريطانيا لقوات اضافية وسنها قوانين عرفية صارمة لسحق الثورة ، الا انهـا اخفقت فلجأت الى الاحتيـــال باصدار الكتاب الابيض عام ١٩٣٩ والذي رفضه كل من العـرب واليهود ، لكن الثورة

.....

(١٩) السفري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٩ ·
(٢) كيالي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٩ وما بعدها ·

Digitized by Birzeit University Library

توقفت بناء على طلب الدول العربية وقيام الحرب العالمية الثانية · وانتهت الحرب العالمية الثانية في ايار ١٩٤٥ وعرب الانظمة يأملون ان تغير بريطانيا موقفها نظرا لمساندة العرب لها في الحرب ولتوقف الثورة الفلسطينية حسب طلبها متناسين مصالحها في المنطقة وخياناتها السابقة للعرب ونكثها بلعهود والوعود السابقة ·

وعادت بريطانيا بعيد الحرب لفتح باب الهجرة بالتفاهم مع ترومان رئيس الولايات المتحدة آنذاك وعاد العر الى رفض الهجرة والتقسيم ، وبدأت صدمات بين اليهود والقوات البريطانية ، واستمرت بريطانيا منحازة للصهاينة تساعدهم عسكريا وتقلب المواقف لتمكينهم من الانتصار والسيطرة ، وتمارس الضغط على الانظمة العربية المجاورة في سبيل اكمال برنامج التهويد قبل نهاية انتدابها في الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ ·

استشراف الطاهر للتهويد ونضاله ضده :

اتصف الطاهر بصحة استشرافه للخطر الصهيوني وابعاده ·· وللخيانة البريطانية وبرنامجها في التهويد وآثاره في اقتلاع شعبه من ارضه وتشريده مشتتا في كل اتجاه · لقد وعي بنظر ثاقب ما تدبره حكومة صاحب الجلالة وتخطط له · عاين كل ذلك وراح من القاهرة يناضل بقلمه عبر صحيفته « الشورى » وصحف العالم العربي داعيا الى فتح العيون على المؤامرة القذرة التي اخذت طريقها الى التنفيذ ، كاشفا خداع بريطانيا والمتعاونين معها ، ساعيا الى محق التآمر وانقاذ وطنه من التهويد · واستمر طيلة حياته صلبا في مواقفه ، عنيفا في سخطه على بريطانيا والسائرين في ركابها ، ولم يكتف في نضاله بالكتابة فلقد عمل وهو في مصر سكرتيرا للجنة الفلسطينية بالقاهرة التي كانت ترصد ما يحاك من دسائس وتعمل على فضحها ، وتدعو الى خنق المؤامرة في المهد قبل ان يستشرى خطرها ·

هاله ان تبتاع الاقلام العربية وتصبح بوقا للدعاية الصهيونية فتصف النضال الفلسطيني بالفساد والشغب · وينبري الطاهر معنفا وموضحا حقيقة نضال الفلسطينيين المشروع وغدر بريطانيا بوعد بلفور اللاشرعي فيقول : « ان اتهام اعضاء الوفد الفلسطيني بانهم مفسدون هو سخافة ولا نظن ان الاجبيشان غازيت او قرائها الكرام يعتقدون ذلك » ويمضي فيقول : « فنحن لم نحرض الناس على القتال او على ارتكاب اعمال العنف ، ولكننا ذكرنا الفلسطينيين

Digitized by Birzeit University Library

بهذا اليوم الكئيب الذي صفعت فيه العدالة وديست فيه الحقوق ـ حقوق شعب كان يثق ببريطانيا العظمى ـ كان ذلك في نوفمبر ـ تشرين الثاني يوم صدور وعد بلفور البغيض · لقد جلب وعد بلفور التعاسة لامتنا وجعل من بلدنا مرتعا للاضطرابات ، كما جعل شعبنا يخصص كل وقته وجهوده لدرء هذا الشر اليهودي الخطر الذي يهدد بازالة قوميتنا ، ان مما يزيد في اسفنا كون هذه المصائب لم تأتنا سوى من الحكومة البريطانية التي كنا احببناها وتوقعنا ان تفعل خيرا لبلادنا فكانت السبب في دمارنا وتقهقرنا اكثر من نصف قرن » (٢١)·

والغريب في الامر ان بعض الصحف العربية الواسعة الانتشار آنذاك امثال المقطم كانت تفسح صفحاتها لاقلام يهودية · فهذا الياس ساسون الذي اصبح بعد ١٩٤٨ سفيرا لاسرائيل بفرنسا ثم وزيرا للمواصلات عام ١٩٦٤ يكتب في المقطم عام ١٩٢٢ مقالا عنوانه « الحرية والاستقلال عن طريق المساعي المبرورة والاساليب المشروعة » فيرد عليه الطاهر قائلا : « فهل اعتماد الصهيونية واليهود على ابتلاع فلسطين بقوة الدولة البريطانية يعد في عرفه مساعي مقبولة واساليب مشروعة ؟ ويتابع قائلا : « فهل نسي الكاتب ماذا قال زعيمهم الفرد موند ؟ اذا كان قد نسي فانا اذكره بما قاله · انه قال « ساكرس ما بقي من حياتي لاعادة هيكل سليمان فوق انقاض المسجد الاقصى » (٢٢) · ويفند بعد ذلك اباطيل ساسون الذي يدعي ان اليهود يسعون لتحقيق وطن قومي وفقا لشريعة ولسون فيرد عليه بقوله : « ولكن هل نسي الكاتب ان الحركة الصهيونية تسعى الى ذلك قبل الحرب بخمسين سنة ! » (٢٣) ·

يكتب ايلي شولال الصهيوني في المقطم قائلا : « ان اتفاق العرب واليهود ليسهل الوصول اليه حالا لو ترك العرب وشانهم وقطعت الايدي التي اوجدت الشقاق بينهم » · ويتنبه الطاهر للخبث والدس الصهيونيين فيجيبه بقوله : « ان معنى ذلك لو ترك اليهود يموهون على العرب ولم يقم من زعماء فلسطين من ينبه الامة الى هذه اللعبة لابتلع اليهود فلسطين من اهلها من غير ان يشعر بهذه (العملية) احد » (٢٤) ·

---

(٢١) محمد علي الطاهر · **خمسون عاما في القضايا العربية** · بيروت ، مؤسسة الريحاني ، ١٩٧٤ ، ص ٧٢٢ ·
(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٨١٠ ·
(٢٣) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ·
(٢٤) **المصدر نفسه** ، ص ٨٣٤ ·

Digitized by Birzeit University Library

الطاهر يفضح دور بريطانيا في عملية التهويد

ركز الطاهر في جميع كتاباته على دور بريطانيا الاساسي في عملية التهويد وخداع العرب خلافا للساسة العرب الآخرين الذين اتجهوا للتصدي الى الحركة الصهيونية معرضين عن بريطانيا التي لولاها لبقي مؤتمر بال ضربا من الخيال بعيدا عن التحقيق · لقد تكلم عن الخداع البريطاني ابان الحرب العالمية الاولى وعن نفاقهم في نفيهم وجود معاهدة مع فرنسا وقيام وعد باسم بلفور فقال : « واما الانكليز فقد اجتهدوا في نفي وجود تلك المعاهدات وتحببوا الى العرب والاسلام باساليبهم المعروفة التي لا ادري كيف استطاعوها في اقناع سكان الكرة الارضية بانهم انصار الضعفاء ، ومثال الصدق والاخلاص بين جميع الشعوب ، ولا عجب فنحن امة قليلة الاختبار كثيرة الادعاء فلما كذب الانكليز تآمرهم على فلسطين لفصلها عن الامة العربية وتهويدها وتقديمنا غنيمة لليهود صدقناهم » (٢٥) · انه يحمل بريطانيا وحدها الوزر كله التي انما جاء وعد وزير خارجيتها بلفور « يصفع على ملأ من سكان الارض جميعا كل حق ويهين الانسانية باعلانه باسم بريطانيا « العادلة النزيهة » جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود » ويمضي قائلا : « ان اقتطاع فلسطين العربية من جسم العروبة ، والعمل على تهويدها بمضايقة اهلها بالعسف وسلب الحقوق على اختلاف انواعها ، وجلب اليهود اليها لهو عمل فظيع تنكره الانسانية · لا سيما وقد ارتكبه المستعمرون مع شعب شريف صادق لم يذنب الا في وثوقه بهم ، وهو ضيع مؤسف مخجل يجعل القلوب تتقد غضبا وتتميز غيظا والنفوس تتقزز منه اشمئزازا » (٢٦) · ويتابع موضحا تحايل بريطانيا وخداعها للعرب بقوله « يقول الانجليز لتبرير فعلتهم انهم ينشئون الوطن الصهيوني اليهودي في فلسطين بدون ان يضر ذلك بالاهالي ·· والجواب كلا ! لانهم مضوا في عملية الجلاء الرهيبة بحزم عجيب فقبضوا على زمام البلاد واقصوا اهلها عن الحكم وحرموهم جميع الحقوق السياسية ، وضيقوا عليهم نطاق العلم ، وسنوا القوانين لاضعاف اهل فلسطين ، وهدر حقوقهم بكثرة الضرائب والاضطهاد ، وفتحوا ابواب وطنا لكل شقي يهودي تطارده القوانين في جميع الممالك ، فاشتد الضيق ، وبيعت الارض لسد الجوع ، وكثرت الثورات وامتلأت السجون بالابرياء » ·

((٢٥) محمد علي الطاهر · جريدة **الجهاد** (القاهرة) · ٢-١١-١٩٣٥ ·
(٢٦) **المصدر نفسه** ، العدد نفسه ·

Digitized by Birzeit University Library

اما مسار التهويد فقد لاحظ الطاهر بدقة الاتجاهات الملتوية التي تسلكها بريطانيا والحركة الصهيونية وصولا الى اقـامة الكيـان الصهيوني وتشريد السكان الفلسطينيين بعد اقتلاعهم من ارضهم وذلك وفق الخطوط الآتية :

١ ـ انتزاع الارض وامتلاكها

لاحظ الطاهر عملية التهويد التي بدأت تتم تدريجيا منذ الاحتلال البريطاني للمشرق العربي في فلسطين ونبه الى ذلك ، ادرك دور بريطانيا في العمل الدؤوب لتمليك الارض الفلسطينية لليهود على طريق اقـامة الوطن القومي اليهودي واقتلاع الفلسطينيين مـن ارضهم وهي التي « انتدبت عليهم لترقيهم وتهذبهم وترعى حقوقهم كما يرعى الوصي الامين طفلا قاصرا لا سند له في هذه الحياة ولا معين » (٢٧) ٠

فماذا كانت النتيجة ؟ وكيف كانت تأدية المهمة الرسولية الموكولة اليهـا ؟ انها « منذ ست عشرة سنة والمآسي لا تنقطع من فلسطين الشهيدة ، ومنذ نكبنا بهذا الاحتلال الدامي ، والفواجع في فلسطين تتوالى وتتابع كأن هـذا الليل الطويل ليس له صبح » (٢٨) ٠

لقد وجد ان التشريع العقاري الذي اعتمدته بريطانيا في فلسطين انما كان يهدف لنزع ملكية الارض من اصحابها الشرعيين بطرق مختلفة : منهـا قانون نزع الملكية للمنفعة العامة ، ومنها الاستيلاء على الاراضي المتداخلة في نطاق المستوطنات ٠ اضافة لذلك فقـد اصدر اوّل مندوب سام قرارا بمنـع اصدار المحصولات الزراعية الى الخارج ، واستصدر قانونا ينص على ان العرب الذين يملكون ارضا بوضع اليد عـلى مر القرون ولا يحملون وثيقة « قانونية » تثبت ذلك فقدوا ارضهم واصبحوا لا يملكون شيئا ، وقد ترتب على هذا القانون انتقال اراض فلسطينية شاسعة الى الحكومة التي يمثلها مندوب سام يهودي ليحولها الى اليهود المقيمين او النازحين الى البلد المنكود (٢٩)٠ ويتابع في المقالة نفسها فيشير الى ان المندوب السامي سجل ستة عشر مليون دونم باسمه ثم اخذ يهب

.....

(٢٧) **المصدر نفسه** ، ١٣ ـ ٢ ـ ١٩٣٥ ٠

(٢٨) **المصدر نفسه** ، العدد نفسه ٠

(٢٩) محمد علي الطاهر ٠ مجلة « **العالم العربي** » (القاهرة) ، ١٠ـ٨ـ١٩٤٧

Digitized by Birzeit University Library

المساحات الشاسعة لليهـــود ، تارة باسم المشروعات الجـــديدة وطوره باسم التعريج ، واحيانا باسم مساعدة الجنود المسرحين من الجيش البريطاني ، وقد عمد الى المراوغة منعا لاي اثارة او احتجاج فادعى انـه يؤجر تلـــك الارض لليهود ، والاجرة هي قرش واحد لكن دونم لمدة تسع وتسعين سنة !

ومن الوسائل الاخرى التي مارستها الادارة البريطانية في فلسطين توسيع مناطق البلديات وبهذه الطريقة يضمون الاراضي العربية الى البلديات اليهودية بالاف الدونمات مجانا تقريبا · ناهيك بالضغوطات والاغراءات خاصة للملاكين الكبار غير الفلسطينيين · والطاهر بعد كل هذا يجيب المتسائلين عـــن ذهاب اراضي العرب الى اليهود بقوله : « ان البلاء الذي سلط عـلى اهل فلسطين لو سلط على قوى امم الارض لزالت من عالم الوجود في اقل من ثلاثين سنة» (٣٠)· وقـــد لفت انتباهه دور الماسونية في الدعاية المغرضة ضد الفلسطينيين خـدمة للقضية الصهيونية في عملية التهويد ، وعلى رأس هذه الدعوة اقطاب مصريون تصدى لهم وفضح تحركهم فكتب في ذلـــك يقول « ان اتصال اقطاب ماسونية الدكتور احمد ماهر بيهود فلسطين هو شيء قديم وجميع الذين سمسروا عـلى بيع اراضي العرب لليهود هم بين ماسوني ومتصل بالماسونية » (٣١) ·

٢ ـ الهجرة والاستيطان

كانت الركيزة الثانية في عملية التهويد الهجرة اليهودية الواسعة النطاق ، التي رعتها بريطانيا ، واستصدرت قوانين متعددة لايصال اعـــداد وافرة من المهاجرين اليهود وزرعهم في الاراضي المنتزعة من اصحابها الشرعيين بالوسائل المختلفة · على ان عشرات الالاف من المهاجرين وفدوا بطرق غير مشروعة وكانت سلطات الانتداب تتغاضى عنهم وهذا ما اوضحه الطاهر واشار اليه بقوله « انني اكتب هذا وامامي بلاغ رسمي اصدرته حكومـــة فلسطين ، وفيـه ان المندوب السامي وافق على اعطاء جوازات لثلاثة الاف ومائتين وخمسين من المهاجرين اليهود الجدد · كأنـــه لا يكفي فلسطين نكبتها بالهجـرة غير المشروعة ـ كما يزعمون ـ ولم يكفها (صهينة) الحكومة المحتلة على من تسلل الى البـلاد ثم تأخذ بجلب يهود جدد · تقـــول حكومة فلسطين انها تطـــارد المهاجـرة غير المشروعة عملا بالقانون ولكن لماذا لا تقوم بتنفيذ القانون او تعتبر على الاقل ان

(٣٠) المصدر نفسه ، العدد نفسه ·
(٣١) محمد علي الطاهر ، خمسون عاما ··· ، ص ١٤٢ ·

Digitized by Birzeit University Library

المهربين من اليهود يحسبون بدلا من اليهود الجـدد ؟ » (٣٢) · فالهجرة غير المشروعة باطلة قانونيا « اما في فلسطين فان الانجليز يجلبون اليها اليهود من كل مكان ثم يقدمون لهـــم الجنسية الفلسطينية ، ويمنعون العرب مـن دخول فلسطين ، ويعاقبونهم بالسجن ان تسللوا اليها ثم يطردونهم » (٣٣) · ويحار الطاهر من تصرف سلطات الانتداب الغريبفي التغاضي عـن الاف المهاجزين اليهود بوجه غير شرعي بينما هو الفلسطيني ابن نابلس يلاحق ويطارد فيقول : « لا استطيع ان افهم لماذا البحث عن كيفية وجودي في بلادي بينما هم يتغاضون عن اليهود المهربين الذين يسرحون ويمرحون بامـــان بين سمع ادارة البوليس السياسي والجنائي ، وبين بصر القانون الـــذي يقضي بمطاردة كل من يتسلل الى غير بلاده » (٣٤) ·

٣ ـ الانحياز البريطاني لليهود ، الهدف ، وردود الفعل

بدت الفروقات واضحة جدا في تعاطي بريطانيا مع العرب وتعاطيها مـع اليهود ، وفي نكثها للوعود المنثورة للعرب وفي وفائها بالوعود المعطاة لليهود ، وذهب تنظير البورجوازية السياسية العربية في فلسطين التي حصرت مقاومتها وعداءها بالحركة الصهيونية املا في تحيد برطانيا ادراج الرياح · لقد سارت حكومة صاحب الجلالة وفق خطهـــا المرسوم لتحقيق التهويد واقـــامة الكيان الاستيطاني غير آبهة بتطلعات الساسة الساعين لكسب ودها في العشرينات من هذا القرن · واخذت الاقنعة تتساقط عن وجهها المخادع حين اخذت الممارسات توضح بما لا يقبل الجدل موقفها المنحاز كليا · واضطر القادة السياسيون تحت تأثير الضغط الشعبي المتنامي الى مناصبتها العداء جنبا الى جنب مع الصهاينة· فكانت الانتفاضات العنيفة في اواخر العشرينات وفي الثلاثينات · وكانت ردود فعل السلطات البريطانية عنيفة وقاسية ، استخدمت مع القمع البربري التحايل بارسال لجان تحقيق لامتصاص الغليان الشعبي المتعاظم وابقاء شعرة ارتباط مع قادة السياسيين · والهدف واضح كما رآه الطاهر ، انه التهويد ولقد اشار الى ذلك بقوله : « ولعل افظع ما رأته الانسانية من الغدر والنكث هو ما اصاب فلسطين · فقد فصلت عن سورية الكبرى الام ، ثم فرض عليهـــا الانتـداب او

.....

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص ١٤٢ ·

(٣٣) محمد علي الطاهر · مجلة « **العالم العربي** » (القاهرة) ، ١٠ـ٨ـ١٩٤٧

(٣٤) محمد علي الطاهر ، **خمسون عاما** ... ، ص ١٤٢ ·

Digitized by Birzeit University Library

الاستعمار فرضا · وبعد ذلك اخذوا في انشاء وطن قومي يهودي فيها واذا بهم يريدون جعلها كلها وطنا قوميا لليهود · وقد ذاقت فلسطين من الغدر الدولي اشد ما نزل بامة من الامم منذ التاريخ ومنذ خلق الانسان · وها هي الثـــورة قائمة فيها على ساقين ، لا على ساق وقدم ، وهي الثورة السادسة خلال ست عشرة سنة ، ولم نسمع قبل اليوم ان امة من الامم كثر عدد اهلها او قل ثارت مثل هذا العدد من الثورات » (٣٥) · لقد ثبت صحـة استشراف الطاهر لمكمن الداء المتجسد في بريطانيا قبل الصهاينة وهذا ما تجاهله الساسة وتعاموا عنه اول الانتداب لكن انحياز بريطانيا الفاضح لليهود جعلهم امامها وجهـا لوجه · وهكذا اخذت الحركة الوطنية الفلسطينية تتجـــه نحـو المسار الصحيح « لان ثورات فلسطين الاخيرة اصبحت تتجه نحو مقاومـة الاستعمار الانكليزي رأسا ودفع اذاه بعد ان كانت في السنين السابقة تهب ضد اليهود وحدهم ، والثورة الاخيرة القائمة اليوم فقد قامت كلها على الانكليز رأسا باعتبار انهم اساس كل ما نزل بفلسطين من خراب ودمار » (٣٦) ·

مطلوب من الفلسطينيين في القاموس البريطاني القبول بالتهويد وعـــدم الاعتراض ، وان مجرد رفض الاقتلاع من الارض يعني في « العدالة » البريطانية القمع الوحشي والبطش التعسفي وهذا ما اشار اليه الطاهر بقوله : « ان اهل فلسطين يجب ان يخضعوا للاحتلال ، واهل فلسطين يجب ان يفرحوا بالصهيونية التي تعمل على اجلائهم عن الدار والوطن وقبض الارواح ايضا !

واهل فلسطين يجب ان يصبروا على تهافت اليهود المهاجرين على دخول بلادنا سرا بعشرات الالوف ، واذا ادخـــل اليهود الى فلسطين براميل السلاح خلسة وبالتهريب الاجرامي للهجوم به علينا يجب على اهل فلسطين ان يضبطوا عواطفهم ، وان يتأدبوا عند التظلم مهما نزل بهم وعند وصف الجريمـة الفظيعة التي تدبر لاهلاكهم والفتك بهم وكانه لا ينقص اسيادنا الانكليز في فلسطين الا ان يطالبونا بان نشكر لهم تفضلهم على بلادنا باحتلالها ، وتكرمهم علينا باذلالنا وخطف بلادنا منا ، وتقديمها هدية سائغة لليهود » (٣٧) ·

.....

(٣٥) محمد علي الطاهر · مجلة « كل شيء والدنيا » (القاهرة) ، ١٤_٩_١٩٣٦ ·

(٣٦) محمد علي الطاهر ، خمسون عاما ... ، ص ٥٩٨

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٣١ + جريدة « الجهاد » (القاهرة) ٢٤_١٠_١٩٣٥ ·

Digitized by Birzeit University Library

لم يترك الطاهر مناسبة الا وكشف اهداف بريطانيا ونواياها ، رأى تضليل حاكم الهند البريطاني اللورد لنلثجو لواقع الحال في فلسطين فكتب الى رئيس المؤتمر الاسلامي في الهند سليمان ندوي موضحا دور بريطانيا الخياني القائم على المراوغة ابتداء من نزع ملكية الارض العربية ، مرورا بالهجرة ومخاطرها · واوضح بعد ذلك انحياز بريطانيا الكلي الى جانب اليهود وحرمان الفلسطينيين من الحريات السياسة ودحض مقولة برطانيا الزاعمة بان النزاع في فلسطين عنصري بقوله : « والحقيقة انه نزاع حيوي بين صاحب وطن وبين اجانب غزاة جاءت بهم بريطانيا لاسكانهم ديارنا بحماية اسلحتها المختلفة ، وكم يغيظنا قول الانكليز انهم يحافظون على الوعود بينما هم ينكثون بالعهود » (٣٨) ·

اما اللجان التي كانت ترسلها بريطانيا عند كل ثورة او انتفاضة لامتصاص النقمة وتخفيف الغليان ، فقد خبرها الفلسطينيون « فاذا هي كلها لجان تضليل لا اكثر · والدليل على ذلك ان بريطانيا ارسلت الى فلسطين لجانا كثيرة لتخفيف الثورات السابقة ووضع التواصي لازالة اسبابها · ثم اخذت الحكومة البريطانية تنفذ عكسها » (٣٩) · ولم تكتف بريطانيا بما اقدمت عليه من اضاليل ، ونكوث بالوعود والعهود فلقد كان التمايز في المعاملة واضحا والتعامل متباينا بحيث بات الصهيوني الوافد الى فلسطين يتمتع بحقوق وامتيازات لا يحصل على الحد الادنى منها اي مواطن فلسطيني ، والسبب في ذلك واضح انه السير في طريق اقامة الكيان الاستيطاني في فلسطين لفصل المشرق العربي عن المغرب العربي ولحماية طريق الغرب الى شرق آسيا عبر السويس ، وضمان مصالح الغرب ابديا في العالم العربي الممزق الاوصال بفضل « نعم » بريطانيا والغرب ·

٣ ـ الشؤون الادارية والسياسية والعسكرية

اصبحت الوكالة اليهودية دولة ضمن دولة فهي الهيئة الشرعية التي تقوم بالاشراف الكامل على الشؤون الادارية لدى المستوطنين الصهاينة فترعى الهجرة وتهتم بالاستيطان وتشرف على الامن والتعليم وتنظيم الاقتصاد بينما لم تتح بريطانيا لعرب فلسطين ان تكون عندهم هيئة مثيلة للوكالة اليهودية ترعى شؤونهم وتتدبر امورهم · كما اصبحت الوكالة اليهودية جهازا سياسيا معترفا

.....

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٠
(٣٩) محمد علي الطاهر ، جريدة « الدفاع » (يافا) ، ١٩ـ١١ـ١٩٣٦ ·

Digitized by Birzeit University Library

به يباحث ويناقش ويتكلم باسم الصهاينة ويتابع اكمال مسيرة قيام الدولة بحرية الامر الذي لم توفره بريطانيا للعرب ، وزاد الطين بلة قيـــام سلطات الانتداب بالسماح للصهاينة بتكوين قوات عسكرية والانكى من ذلك ان هـــذه السلطات كانت تقدم لها السلاح والمدربين · اما بالنسبة للفلسطينيين « فكانت الحكومة اذا رأت سلاحا مع احـــد العرب انزلت به اشد العقوبات ، وان شهر يهودي سلاحه على عربي وضبط كان عقابه الغرامة بضعة قروش ! واما القرى العربية فكانت تفتش من اجل السلاح وينكل بها ، بينما كانت الحكومـــة توزع السلاح الرسمي على المستعمرات اليهودية علنا » (٤٠) ·

تعالى السخط على بريطانيا واشتدت موجة النقمة عليها واصبحت الثورة المسلحة هي اللغة الوحيدة للتخاطب معها ومع ذلك بقيت تظهر استغرابها لموجة الحقد العارمة ضدها متجاهلة ما اقترفت بحق العرب عامة والفلسطينيين خاصة وهذا ما دفع الطاهر ليقول : « فليس بعجيب ان يثور العرب على بريطانيا نفسها ويجهروا بعدوانها ، ولكن العجيب كيف انهم لم يثوروا على الانكليز الا الآن ! اما اذا كانت بريطانيا تتصور انه يسوغ لها ان يرتكب جنودها معنا ما ارتكبته بدون ان نتحرك حتى للتجسس على جنودها فهذا اغرب واعجب » (٤١) ·

وعلى صعيد المراجعات والاحتجاجات فقـــد لاحظ « ان عرب فلسطين لم يطلبوا من الحكومـــة البريطانية شيئا الا اهملته ، ولا طلب اليهـــود شيئا الا اجيبوا اليه ، ولا طلب العرب تخفيف بلاء مما ينزل بهم الا زادته حكومة فلسطين البريطانية وتفننت فيه » (٤٢) ·

لقد ثبت صحة تحليل الطاهر ومصداقية رؤيته لاحابيل بريطانيا واهدافها البعيدة التي لم يكن العرب عامة يتصورون انحيازها الفاضح، وتصميمها الثابت على خلق الكيان الصهيوني الهجين · وظل صامدا في موقفه بعيدا عن التعرج والمواربة · ها هو يوجه مذكرة الى اللورد بيل في ٢٥ كانون ثاني عام ١٩٣٧ يقول فيها : « ومن اظفع ما اصاب العـــرب مـــن حكم بريطانيا في فلسطين ان الحكومة شنقت عربا في حادثة تشليح سيارة المطران الانكليزي وهم ابرياء لانه

.....

(٤٠) محمد علي الطاهر ، **خمسون عاما ...** ، ص ٨٢٨
(٤١) **المصدر نفسه** ، ص ٨٢٨
(٤٢) **المصدر نفسه** ، ص ١٦٢

Digitized by Birzeit University Library

اتضح بعد شنقهم انهم كانوا ابرياء ، وما بطش بهم الا كون بريطانيا في فلسطين وقد تعدت الحقوق الانسانية جميعا ، تريد جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود · ولذلك نرى المجرم اليهودي يظل بريئا حتى ولو ثبتت ادانته ، والعربي يعتبر مجرما ولو ثبتت براءته · فالاصل دائما في نظر حكومة فلسطين البريطانية هو البراءة لليهود والاتهام للعرب » (٤٣) ·

اما بعيد الحرب العالمية الثانية فقد ازدادت بريطانيا تحيزا ، وحين نشطت عصابات الارغون وشتيرن واختذا في اغتيال وخطف ضباط بريطانيين استنكفت بريطانيا عن الرد وانزال العقاب بالمجرمين وبقيت نصيرا للصهاينة في كل صدام لهم مع العرب ، وبقيت مستمرة في المساندة العسكرية المباشرة بالاضافة الى تزويدهم بغالبية الاعتدة والاسلحة التي كانت في معسكراتها في فلسطين ، وهي بذلك ترمي الى اكمال المهمة التي انتدبت نفسها من اجلها وهي اقامة دولة يهودية تسمى اسرائيل وينسخ اسم فلسطين وفق المنهج الامبريالي وتلغى الشخصية الفلسطينية ويصبح اهل فلسطين اما مواطنين اسرائيليين او اردنيين او نازحين في شتى اقاصي الارض ·

راية الخيانة والتآمر تنتقل من لندن الى واشنطن :

ازداد تعاطف الولايات المتحدة على الحركة الصهيونية بمجيء ترومان الى البيت الابيض بعد وفاة روزفلت، ومع اقتراب انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين بدأت واشنطن تسير في اكمال الدور الامبريالي الذي بدأته بريطانيا في عملية التهويد لتزاوج المصالح الامبريالة الاميركية والمصالح الصهيونية ، ولدور اللوبي اليهودي الذي تركز نشاطه بعد الحرب الكونية الثانية في الولايات المتحدة ·

لقد بدأت واشنطن بالدعوة لتقسيم فلسطين ، او لوضعها تحت الوصاية · وكما استشرف الطاهر مرامي بريطانيا وابعادها ، كذلك استشرف دور اميركا المتمم للدور البريطاني · فكتب بشأن التقسيم يقول : « ان معنى التقسيم هو ان يخلص لليهود موطىء قدم ، وميناء يهودي لينفذوا منه الى بقية انحاء فلسطين ثم يكاثرون العرب بطوفان من المهاجرين وبذلك تتم لهم الغلبة وينتهي الامر بزوال العربية عن فلسطين الى الابد » (٤٤) ·

---

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧٠ ·
(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٨١٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

والوصاية عنده اخت الانتداب وفلسطين بلد راشد له جهاده وله رجاله ، وهي التي قاتلت الانكليز نحو ثلث قرن لا يمكن ان تسمح بالرجوع الى الوراء بقبول وصاية جديدة ·

اما بالنسبة للولايات المتحدة زعيمة الامبريالية بعد الحرب العالمية الثانية والتي اصبحت وريثة الاستعمار الاوروبي ، والتي اخذت تكمل خيانة بريطانيا فقد حذر العرب من الركون اليها والثقة بها ، لقد كتب يقول : « لا تصدقوا الامريكان ايها العرب فهم اكثر استعمارية من الانجليز، وها انتم ترون الامريكان بعد الحرب قد اصبحوا اشد شرها من امهم انجلترا واسوأ نية فان كنتم تريدون البقاء في وطنكم فها انتم فيه ، ولا يخرجكم منه احد ما دامت بنادقكم في ايديكم، وارواحكم مبذولة في سبيل وطنكم ، فسلاحكم هو جنتكم وهو ملاذكم · ولن ينقذكم من الغاصبين المعتدين الا الاستبسال ، والصبر ، فاصبروا فان الشجاعة هي صبر ساعة » (٤٥) ·

لقد كان تشخيص الطاهر للداء صحيحا لكنه لم يكن متكاملا · اراد صمود الفلسطينيين والتمسك بالبندقية وفي ذلك النصر المحتم ، لكنه لم يأخذ بالحسبان ان عرب الانظمة الدائرين في فلك بريطانيا والولايات المتحدة كانوا اشد خطرا ولا يزالون على جوهر القضية ، وانهم بالتالي ابتداء من الذين عقدوا المعاهدات مع بريطانيا في الحرب العالمية الاولى وانتهاء باكثرية السادة المتربعين سعيدا على العروش في دنيا العرب هم اصل الداء والبلاء وان كل ما حل من كوارث انما كان بفضل همهم « العلية » ومن المؤسف المفجع بعد ثلاثين سنة من المصائب والالام التي جاءتنا من الغرب وقد سبق للطاهر وسواه ممن صدقت عندهم الرؤية والوطنية ان نبهوا اليه وحذروا منه ، نجد اليوم عرب اميركا رغم جراحات امتهم النازفة بحراب اسرائيل الاميركية يزدادون تعلقا بالغرب ، وولها باميركا ويتحولون الى عصا غليظة للامبريالية في وجه حركات التحرر في آسيا وافريقا بما فيها الثورة الفلسطينية ·

وكل همهم ارضاء الامبريالية وتثبيت دعائم عروشهم · غير ملتفتين الى السرطان الاسرائيلي الذي لا حد لمطامعه ، والهادف الى الهيمنة الكاملة عسكريا واقتصاديا على الوطن العربي ·

---

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٨١٣ ·

Digitized by Birzeit University Library

ان الليل الطويل الذي امتد على الساحة العربية، منذ نهاية الحرب الكونية الاولى ومجيء الغرب ازداد حلكة في ظل عرب ميركا ، ولكن الايمان بالتحرير ووعي الجماهير والتمسك بالبندقية سينهي حكاية الليل ليل ملوك الطوائف والمنافع والقمع ليبدأ نهار الحرية والديمقراطية والتحرير ، فلكل ليل اخر ولكل طغيان وخيانة نهاية .

الباحث

مجلة فكرية تصدر مرة كل شهرين

عن الشركة الشرقية العلمية للصحافة والنشر

١١٦ جادة الشانزليزي ٧٥٠٠٨ باريس
هاتف ٥٦٣١٧٢٧

المؤسس : **قاسم خزعل**
المديرة المسؤولة : **هبة منصور**
رئيس التحرير : **الدكتور ج. زيناتي**

Digitized by Birzeit University Library

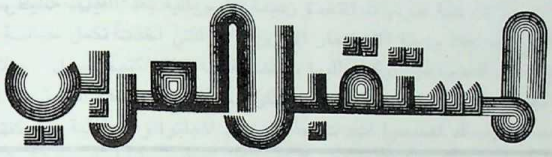

هل يتسع المجال بعد لمجلة فكرية عربية جديدة ؟

نحن نقول نعم .. شرط ان تكون

- **وحدوية ● مستقبلية**
- **موضوعية ● جـــادة**
- **اهتمامتها من المحيط الى الخليج**
- **قراءتها من المحيط الى الخليج**

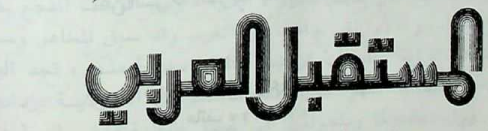

تصدر في مايو (آيار) ١٩٧٨

هدفهـــا

*** وعي الوحدة العربية**
*** وحدة الوعي العربي**

رئيس التحرير د. انيس صايغ
تصدر عن « مركز الدراسات العربية »
(ص.ب ٦٠٠١ ـ ١١٣ ، بيـــروت)

Digitized by Birzeit University Library

مقالات ودراسات
ادبية وفنية

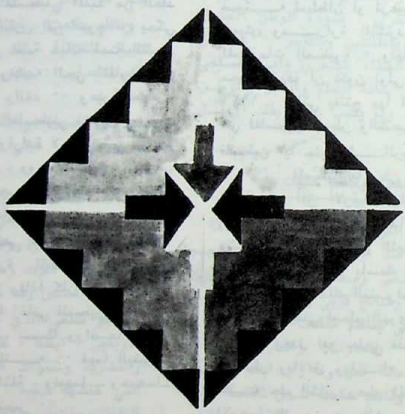

Digitized by Birzeit University Library

ابو سلمى.. وتجدّد النار

نزيه ابو نضال

في الزمن الفلسطيني الممتد من العقد الاول لهذا القرن الى اليوم .. يحكي **ابو سلمى** عبر قصة حياته قصة الشعب الفلسطيني ، ونبضه الحي المقاوم من اجل الحياة والغد .. وعبر شعره ، يتوهج التاريخ الفلسطيني نضالا وصمودا وعنفوانا ، وارادة لا تنحني ، رغم النفي والتشريد ، ووجع الشوق ، رحراب التآمر ، وطموحا لم يتزعزع بحتمية الثورة والانتصار .

لماذا **ابو سلمى** هو هذا كله ؟ ولماذا استحق ، بجدارة لقب « شاعر الاجيال الفلسطينية » ؟ ولماذا كان « السنديانة التي نبتت عليها اغاني فلسطين » ؟

ويأتي الجواب بسيطا وواضحا : لانه احب شعبه ووطنه .. فهما اليقين ، ومنهما يستمد الثقة ، وفيهما ـ وحدهما ـ سر الخلود والنصر ..

ولانه آمن بالشعب ، ظل قويا لم يرهن صوته لسلطان او لزعيم رغم قساوة العيش ومرارة التشرد ومغريات المساومات الصغيرة . ولهذا لم تكن مجرد صدفة ان تكون اولى قصائده عام ١٩٣٦ ، والتي يفتتح بها ديوان شعره هي لفلسطين الوطن والشعب :

فلسطين ايا حلم الثائرين
فلسطين يا وطن الخالدين
اطلي على افق الارجوان
معطرة بشذا الدارعين
وشعبك يزحف فوق اللهب
ويقسم باسمك ان لا يدين
ترابك يا طهر ذاك التراب
يغني فيحلو الهوى والحنين(١)

هكذا يجدل **ابو سلمى** فلسطين بالحلم وبالعطر وبالافق وبغناء الارض ... لكنه حلم الثائر وعطر المقاتل وافق الارجوان* .. هو الشعب المدجج بالكبرياء وباللهيب وبالغد .

---

(١) **ديوان ابي سلمى** ـ عبد الكريم الكرمي . بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٨ ، من قصيدة (فلسطين) ص ١١ (كافة الاستشهادات الواردة ، فيما بعد ، هي من الديوان) .

* للارجوان والدم والاحمر ، دلالات سياسية في شعر ابو سلمى ، كما سيبدو ذلك واضحا بعد قليل .

Digitized by Birzeit University Library

وهذه الجدلية ، التي نجدها في مطلع قصائده ، لا نلبث ان نسمعها عام ١٩٧٥ :

ان فلسطين لابنائها
وانهم على الردى وطنوا
اعراسهم تسابق في الغدا
قد انحنى الموت ولم ينحنوا
وكيف نهدي الفجر اعلامه
وجنح هذا الليل لا يظعن
يا وطني !.. لا تأس انا على
عهدك ، مهما طالت الازمن
تغنى الزعامات واشباهها
والخالدان : الشعب والوطن(٢)

ومرة اخرى ، صورة الوطن المجدول بالشعب وبالقاتلين وبالفجر . خمسون عاما من العطاء الشعري **وابو سلمى** واقف على حافة الحلم والفجر والوطن لم ييأس ، ولم يتعب ، ولم يفقد الامل والتفاؤل .

■ ابو سلمى وناظم حكمت :

وهذه القوة الروحية الهائلة نجدها دائما ، عند اولئك الذين امتلأت قلوبهم بحب الشعب وبحتمية الانتصار . ومن هنا نجد وشائج قربى روحية عديدة تربط **ابو سلمى بناظم حكمت** .. المنفي .. السجين .. المطارد .. والمطرود من وطنه ثلاثون عاما تمر ولا زال **ابو سلمى** منفيا ، **وناظم حكمت** سجن ثلاثة عشر عاما ، ثم عاش ، بعدها ، في المنفى اربعة عشر عاما اخرى ، اي ما يقارب الثلاثين عاما ، ايضا .

وكلاهما آمن بالشعب الكادح والمقهور ، وبالانسانية التقدمية ترفع راية التحرر والاشتراكية والسلام .

ناظم حكمت ، ومن قلب السجن ، يغني لابعد نجمة في السماء ، ويعلن ان :

اجمل انهار العالم لم نرها بعد
اجمل اطفال العالم لم تكبر بعد
اجمل ايام العمر لم تشرق بعد
وانا لم اهمس في اذنك
اجمل ما اتمنى ان اهمس لك به (٣)

وناظم حكمت ، حين كان يغني هذه الابيات المتفائلة ، كان ينتظر ان ينفذ فيه حكم الاعدام .. وهو يقول في القصيدة نفسها :

فلو انهم نجحوا في شد الحبل على عنقي
ما وجدوا في عيني الزرقاوين سحابة خوف
فستبقين ويبقى اصحابي في عيني
حتى مغرب اخر ايامي
ما اروع ان اشرد وافكر فيك
عبر ضجيج الموت وصخب النصر

وانا في السجن وقد جاوزت الاربعين(٤)،

وابو سلمى الذي كان قد تجاوز الاربعين ، ايضا ، حين دخل عالم النفي والتشريد وسنوات القهر والجوع والالم التي عاشها شعبه ، راح يبث فيه روح التفاؤل والامل والاصرار :

---

(٢) من قصيدة الخالدان الشعب والوطن ، ص ٣٦٥ .
(٣) ناظم حكمت . **اغنيات المنفى** . ترجمة محمد البخاري ، ص ١٧ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .
(٤) ناظم حكمت ، **المصدر السابق** .

Digitized by Birzeit University Library

ايها الباكي !.. وهل يجدي البكا
بعدما اصبحت في كل مهب
كفكف الدمع وسر في افق
حافل بالامل الضاحك رحب
يا اخي .. ما ضاع منا وطن
خالد نحمله في كل قلب (٥)
وان تحمل الوطن في قلبك يعني ان
تضحي من اجله ، فيقول **ناظم حكمت** :
ان لم احترق انا
وتحترق انت
ونحترق نحن
فمن ذا الذي
ينير هذه الظلمات (٦)

ويقول **ابو سلمى** :
نحن ان لم نحترق كيف السنى
يملأ الدنيا ويهدي كل ركب(٧)

ومن المنفى يغني **ناظم** لوطنه ، شوقا ووصية :
يا رفاقي ، اذا لم يكن من نصيبي رؤية
ذلك اليوم ،
اي اذا مت قبل الخلاص
فاحملوني الى الاناضول ،
وادفنوني في مقبرة في احدى القرى (٨)

ابو سلمى يكاد ينصهر شوقا للارض، وهو ينشج بالالم :
زحفت الثم ارضي وهي باكية
والقلب باك وراحت تنتشي القبل(٩)
ولان الارض وراء الاسلاك والحرس الاسود فهو يوصي الاحباب الذين قد يصلون الارض :
يا احبابي .. يا رفاق الاماني
قبلوا عني التراب الخضيب(١٠)

■ اليساري الملتزم :

هذا التشابه بين الشاعرين التركي والفلسطيني يتجلى ، بوضوح اكبر ، على المستوى السياسي والايديولوجي .. **فابو سلمى** من اوائل شعراء فلسطين الذين آمنوا بدور الطبقة العاملة وبرنامجها الثوري ، وفي تلاحمها مع حركة التحرر العالمي والمعسكر الاشتراكي، انه النضال الانساني المشترك ضد الفقر والجهل والاستعباد :
ونحن الذين نثور على الظلم
والجهل والفقر في كل حين
ومبدأنا عالم واحد
وتخليد حرية العالمين (١١)

هذه الابيات هي من اوائل شعر **ابو سلمى** ، واول قصائد الديوان ، وهذا المعنى يتكرر مع **ابو سلمى** ، عام ١٩٤٣:
مشيناها خطى حمرا
وشدنا عالما حرا
وقل يا ايها الانسان
عش حرا ومت حرا (١٢)

والى الميناء السوفياتي البطل سيفاستبول ، الذي صمد ، ببطولة ، امام الوحش النازي **يغني ابو سلمى** ، عام

---

(٥) من قصيدة **المشرد** ، ص ١٥٦ .
(٦) حنا مينه : **ناظم حكمت** ص ٥٥ ، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ٧١ .
(٧) ابو سلمى ، **المصدر السابق** .
(٨) ناظم حكمت ، **المصدر السابق** ، ص ٣١ .
(٩) ابو سلمى ، من قصيدة **ارض فلسطين** ص ٢١٥ .
(١٠) ابو سلمى ، من قصيدة **التراب الخضيب** ، ص ١٥٩ .
(١١) من قصيدة **فلسطين** ، ص ١١ .
(١٢) من قصيدة **ابو الاحرار** ص ٤٩ .

Digitized by Birzeit University Library

١٩٤٤ :

حرروا العـــالم المقيد حتى
لا نـرى غير عـالم الاحـرار
ايها الحاملون رايتنا الحمر
وتاريخ شعبها الجبـــار
قبس من جهادكم غمر الدنيا
فلاحت مواكب الانـوار (١٣)

من المهم ان نلاحظ ، هنا ، ان **ابـو سلمى** يتحدث عن « رايتنا الحمر » ، ولا يقول لمن يخاطبهم : « ايها الحاملون راياتكم الحمر » .

وفي قصيدته « مرحبا بالرفاق » يبدو وكأن **ابو سلمى** يترجم نداء « يا عمال العالم اتحدوا » شعرا ، فيقول :

ايها الثائرون في العالم الر
حب على الظالمين في الآفـاق
اينمـا كنتـم فنحـن رفـــاق
وحدتنـا حريـة الاعنـــاق
في الميادين والمعـامل أخوانا
وفوق الربى وفي الاعمـــاق
جمعتنا مبـــادىء وعهـــود
فالتقينا من قبل يوم التلاقي(١٤)

وفي **مؤتمر العمال العرب** بيافا ، عام ١٩٤٧ ، يقول :

اهلا بعمال البلاد يحاربون من استبدا
حمر الصحاف سطروها باللظى بندا فبندا
الفجر خلف ركابهم يهدي الورى والركب
اهدى
قالوا : يساريون قلت اجلهم عملا ومبدا
وطن عـلى ايديهم يجني مع الايام سعدا
لم يعرفوا كيف المبادىء تشترى عدا ونقد
هذي المطارق والمناجل تحصد الظلام حصدا
وتحرر الانسان حتى لا ترى في الكون
عبدا (١٥)

بهذا الوضوح الحاسم حدد **ابو سلمى** التزامه باليسار وبالشيوعيـة ، وفـي الوقت الذي كانت الهيمنة الرجعية فـي فلسطين تهدر دم كل من يرفع شعـــار المطرقة والمنجل ، ولم يكـن **ابو سلمى** يجهل ذلك وحيث تعرض عدد من الوطنيين والشيوعيين للتصفية الجسدية من قبـل هذه القوى .

■ تهديد بالقتل :

وبالفعل تلقى **ابو سلمى** تهديدا بالقتل، وكان يمكن ان ينفذ في اية لحظة كمـا حدث مع غيره لولا ان سارعت قيـادة الحزب الشيوعي بتوجيه تهديد مضـاد بقتل من يتعرض بالاذى **لابو سلمى** .

في رثائه **لمخلص عمرو** ، احد ابـرز قيادات الحركة الشيوعية الفلسطينية ، تلمس ، بوضوح ، العواطف الجياشة ، والخاصة التي يحملها **ابو سلمى** لهـذا القائد والشهيد الفلسطيني .. وربمـا ألقت حرارة هذه القصيدة الاضـــواء على قصة تهديد **ابو سلمى** بالقتـــل .. لكننا لا نريد ان نستبق شاعرنا الكبيـر في اعلان ما ـ ربما ـ لا يود اعلانـه في هذه المرحلة .

□

■ العروبة في شعر ابو سلمى :

عاشق فلسطين ، **ابو سلمى** ، لم يحل عشقه دون رؤية فلسطين جزءا من **هذا** الكون الكبير ، ونضال شعبها جزءا من

---

(١٣) من قصيدة **فرسان سيفاستبول** ، ص ٥٠ .
(١٤) من قصيدة **مرحبا بالرفاق** ، ص ٥٤ .
(١٥) من قصيدة **مؤتمر العمال في يافا** ، ص ٥٥ .

Digitized by Birzeit University Library

نضال الانسانية ، ضد الفقر والجوع والاستغلال والعبودية ..

وهذا العشق نفسه ، ورغم طعنات التآمر من انظمة الرجعية العربية . لم يحل بين **ابو سلمى** وبين رؤية فلسطين جزءا عضويا من الوطن العربي ، ونضال جماهيره من اجل التحرير والتقدم .

في قصيدته « **لهب القصيد** » تجول في ارجاء الوطن العربي ليفضح تآمر الملوك والرؤساء ، وخياناتهم ، وتخلفهم واجهاضهم لثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ لكنه - وهو يفعل ذلك - لا يسقط في اية مشاعر اقليمية ضيقة فيهتف :

ايه شعوب العرب
انتم مبعث الامل الوحيد
يا من يعزون الحمى
ثوروا على الظلم المبيد
بل حرروه من الملوك
وحرروه من العبيد (١٦)

وعن وحدة الدم والنضال العربي ، واسهامه في معركة التحرير القومية في فلسطين ، يقول :

ارض فلسطين استحالت حرما
مقدسا فقبلوا الترب الندي
من كل قطر عربي عصبة
ثائرة ترعى اصول المحتد
هبت على الوادي واجرت دمها
متحدا يا للدم المتحد
ام العروبة اضحكي يا امنا
فكلنا اليوم ابر ولد (١٧)

والارض الواحدة التي يدافع عنها ثوارها العرب تخلق العشق الواحد ايضا لان الجذر في الاعماق واحد :

هذي فلسطين الهوى وطني
جل الهوى العربي والنسب(١٨)

ويكتب **ابو سلمى** النشيد واغاني الاطفال ، ليكرس فيها الروح القومية ، فيقول بلسان الوحدة العربية :

دعو كل الذي قلتم وجدوا اليوم في طلبي
فاني الوحدة الكبرى سأحميكم من النوب
فقولوا رايتي عاشت وعاشت وحدة العرب (١٩)

وهذا المعنى يتأكد مرارا في شعر **ابو سلمى** ، فتراه يقول :

عروبتنا توحدنا بآمال وآلام
فما الاردن الا مصر مصر سوى الشام (٢٠)

■ فلسطين محور النضال العربي :

الحس العروبي والقومي يتمحور حول فلسطين ، فهي القلب والهدف وكل ما عداها باطل كقبض الريح .. فلا حرية حقيقية ولا انتصار حقيقي في اي وطن عربي ، ما دامت فلسطين في الاسر وشعبها في المنفى ، ورغم الجانب العاطفي الذي يعكسه تكريس هذه المعاني عند **ابو سلمى** ، فانه يمثل من جانب اخر حقيقة هامة ، لان فلسطين هي مركز النضال العربي ، وهي المقياس لتقدمية اي نظام وصحة توجهاته :

---

(١٦) من قصيدة **لهب القصيد** ص ٢٠ .
(١٧) **الدماء تصيح** ، ص ٢٧/ وهذه القصيدة يعود تاريخها الى عام ١٩٣٨ .
(١٨) **جل الهوى العربي** ، ص ٢٦٦ .
(١٩) **الوحدة العربية** ، ص ٣٧٩ .
(٢٠) **الانهار الثلاثة** ص ٣٨٥ .
(٢١) **فتى الثورة** ، ص ٣٦٩ .

Digitized by Birzeit University Library

كل نصر عربي لم يكن
دون تحرير الحمى الا سرابا(٢١)

وفي هذا المعنى يقول ، حول حرب تشرين :

ما شهر « تشرين » اذا لم يعد
لي بيدري والكرم والمسكن
واي نصر وانا لم ازل
مشردا وليس لي موطن (٢٢)

وحول فك الارتباط ، او فصل القوات، يقول **ابو سلمى** في حقل تابين **عزيز اباظه** ١٩٧٤ :

اي فك لبني العرب ، اذا
لم يفكوا من فلسطين السراحا(٢٣)

والسخرية هنا كان يمكن ان تكون اكثر وضوحا ، لولا طبيعة المناسبة، ومكانها وهذا الهاجس اليومي الفلسطيني هو في المقدمة دائما ، ولهذا يقول **ابو سلمى** ، في اعقاب معارك بور سعيد ، وبعد اغلاق قناة السويس ، وتفجير انابيب النفط :

لا تعيدوا القناة والزيت حتى
تستعيدوا فردوسنا المفقودا(٢٤)

وابو سلمى يسخر من القمم العربية ، والعواصم الزاهية ، والالقاب الكبيرة ، فاقل شيء دون فلسطين هو ظل سراب :

قمم ؟!.. اي قمة وفلسطين
وراء الدموع والاسوار
اصبحت هذه العواصم بعد القدس
ركنا في متحف الآثار
بردى والفرات والنيل ان لم
يسترد الاردن دمع جاري(٢٥)

واكثر من ذلك ، فالعالم كله ظلام ، حتى يبزغ فجر فلسطين :

لن تضيء الدنيا... اذا لم يطل
الفجر من ارضنا مع النيران

■ خطان وموقفان

منذ عام ١٩٣٣ ، تاريخ اول قصيدة مثبته في الديوان ، **وابو سلمى** يواكب، في شعره ، احداث وتطورات القضية الفلسطينية ، سواء في ظل احداثها الداخلية ، او بارتباطها بالقضية العربية، وبابعادها الامنية ، ومن مواقع الالتزام التقدمي بخط المناضلين الثوريين ، وبالجماهير العمالية والفقيرة . وفي مواجهة كل اطراف الجبهة المعادية للثورة ، داخليا وخارجيا ، وهذه المعادلة حددت المعالم الاساسية لرحلة **ابو سلمى** الشعرية .. ففي عام ١٩٣٦ يضع النموذج الثوري ، **الشيخ عز الدين القسام** ، في مواجهة تآمر وخيانات الملوك والرؤساء العرب فيقول :

ايه ملوك العرب لا
كنتم ملوكا في الوجود
قوموا انظروا « القسام »
يشرق نوره فوق الصرود
يوحي الى الدنيا ومن فيها
باسرار الخلود (٢٧)

وفي عام ١٩٧٠ يؤكد هذه المعادلة ، بوضوح تام :

وقوى الشر جبهة ... وقوى الثورة
والحق ... كلها جبهات

---

(٢٢) **الخالدان الشعب والوطن** ، ص ٣٦٢ .
(٢٣) **جراح فلسطين** ، ص ٣٥٧ .
(٢٤) **اغنية الموج** ص ٢٤٦ .
(٢٥) **دم اهلي** ، ص ٣١٣ .
(٢٦) **من فلسطين ريشتي** ، ص ٣٠٨ .
(٢٧) **لهب القصيد** ، ص ٢٠ .

Digitized by Birzeit University Library

شر ما في دنيا العروبة ... ان يعزل شعب ... وتحكم الثكنات (٢٨)

او ان يقول :

ايها الحاكمون !.. باسم بلادي
ما الذي تغزلون خلف الستار
كل حكم يطغي على الشعب
باسم الشعب حكم مصيره للبوار
ايها الحاكمون !.. ماينفع الحكم
اذا ما اختفى وراء شعار
انه الشعب وحده يعقد الحق
على النصر راية للفخار(٢٩)

وكما غنى **ابو سلمى** للقسام وللشيخ فرحان السعدي ولابي خالد (محمد صالح الحمد) ولخلص عمرو ولجول جمال وحنا الناخوري وعدنان المالكي ، غنى ـ ايضا ـ للقائد الشهيد **عبد المنعم رياض** ، لانه يمثل النقيض الشائع للقيادات فيقول :

حين اغفى على «القنال» شهيد
الشعب والجيش لاح اعلى منار
ليس من قاد للشهادة جيشا
مثل من قاد جيشه للفرار(٣٠)

وابو سلمى ، في المنفى ، فتح طاقات امل وضياء ، وهو يغني لفلسطين ويبشر بالثورة المسلحة ، وبحتمية العودة والانتصار :

ويسألني الرفاق الا لقاء
وهل من عودة بعد الغياب
اجل سنقبل التراب المندى
وفوق شفاهنا حمر الرغاب
غدا سنعود والاجيال تصغي
الى وقع الخطى عند الاياب
نعود مع العواصف داويات
مع البرق المقدس والشهاب
مع الرايات داميات الحواشي
على وهج الاسنة والحراب
ونحن الثائرين بكل ارض
سنصهر باللظى نير الرقاب(٣١)

ومع انطلاقة الثورة ، يحدو **ابو سلمى** قوافل المناضلين والشهداء ، وروحه مشحونه بالعزة والكبرياء :

من رأى الفتيان يمشون على
لهب الموت رأى الامر العجابا
والبنيات على درب الردى
في فلسطين يحطمن الصعابا
ولد الاطفال ابطالا على
وهج الثورة لم يحنوا الرقابا
شرفت دنيا فلسطين بهم
وبهاقد شرفوا الدنيا انتسابا(٣٢)

□

■ الاصالة والتراث وتجدد النار

استلهم **ابو سلمى** ، في شعره ـ ومن مواقع التزامه الطبقي والاممي ـ التاريخ الحضاري والثقافي لامته ، ليبعث في وجدان شعبه تراثه النضالي ، والجوانب الحية والمضيئة والايجابية في هذا التراث، فتراه ، على الدوام ، يغني لليرموك وحطين واجنادين وعمورية .. ولرايات مروان العربية ، ولخالد ، وعمر ، وصلاح الدين .

عن تجدد النار بين الماضي والحاضر

(٢٨) **عوني عبد الهادي** ، ص ٣٢٦ .
(٢٩) **دم اهلي** ، ص ٣١٣ .
(٣٠) **المصدر السابق** .
(٣١) **سنعود** ، ص ١٧٢ .
(٣٢) **فتى الثورة** ، ص ٣٦٩ .

Digitized by Birzeit University Library

يقول **ابو سلمى** :

اخت صلاح الدين عشت حرة
تأبى لـــك العلياء ان تهودي
معركـة اليرمـوك هذا نقعهـا
يروح فوق هـامنـا ويعتـدي
يطل من بين العصـور عاطرا
فيه من الماضي عبير السؤدد
ايامنا تطـوي عصورا جمـة
النار فيها تنتهي وتبتدي(٣٣)
والوطن هو امتداد حي للتاريخ :
لا تقل هـــذا تـراب جـامد
انما الاحياء في هذا الجمـاد
واحفظ الاجيال في ذاك الثرى
فالدم الحر من التراب ينادي(٣٤)
وتراب الوطن المقدس ليس ذرات لكنها
حروف المصحف :
مـــا تلـــك ذراتـــك
بل تلك حروف المصحف (٣٥)
وبمناسبة حلول شهر رمضان ، يقول :
الاهازيج في السماء وفي الارض
تحيي شهـر الهـدى والنـور
ضمخ العرب بالطيوب فكانوا
وحدة في صحيفـة المقـدور
انت من علم المساواة فالناس
سواء في بردك المنشور (٣٢)
ثم يخاطب رسول الله ، ويشكو لـه
سوء الاحوال من بعده . فيقول :
الا يا رسول الله عفوا ورحمة
ستزور عنا عندما نلتقي غـدا
حميت ديار العرب ثم صهرتها
ووحدتها قلبا وسيفا ومقصدا
وها هي بين الديـــار غريبـة
نرى دولا شتى وشملا مبـددا
عصفت باصنام وجاءوا بمثلها
من الناس، ما اخزى الدمى والتعبدا
وعهدي بمسراك المقدس طاهرا
فما باله بعد النوى قد تهودا
فلسطين يامسرى النبوة هل سرى
على ترابك القدسي نور الهدى سدى(٣٧)

هكذا ، يستلهم **ابو سلمى** من تراث الامة . وقيمها ، ووجدانها ، كل ما يمكن ان يدفعها للنضال وللعمل .

وهكذا ، اصبح **ابو سلمى** جزءا من تراثنا الثقافي والوطني ، وعنوانا لتجدد النار والنضال ، مـع تعاقب الاجيـال الفلسطينية .

■ عاشق فلسطين

لا شك ان **ابو سلمى** هو امام شعراء الغزل الفلسطينيين . فالمرأة او الحبيبة هي فلسطين ، وفلسطين هي الحبيبـة ، ويختلط الامر ، احيانا ، فلا تكاد تميـز بمن يتغزل :

كيف اعد الصبح قد مر بي ؟ !
لا صبح لـــي الا اذا لحـت
لا يحمل النور اذا لـم يقـل
لي كـل يـوم كيف اصبحـت
عيناك قـــي قلبي اغـانيهما
يـردد الآهـات فـي صمـت
اضاء لـــي حبـك آفاقـه
فيه مـــن الانجم مـــا شئـت
ربيع قلبـــي وبـــلادي ، اذا
لم تزرعي الاشواق ٠٠ لأياتي(٣٨)

ولنستمع الى هذه الابيات ، ايضا :

اشواك فـــي اغنيـــة حـرة

---

(٣٣) **الدماء تصيح** ص ٢٧ ٠
(٣٤) **ارض الجهاد** ، ص ٣٢ ٠
(٣٥) **حفنة التراب** ، ص ٣٣ ٠
(٣٦) **رمضان السمح الكريم** ص ٣٤ ٠
(٣٧) **اخت الهدى** ، ص ٣٤٩ ٠
(٣٨) **سحر بلادي** ، ص ٢٨٩ ٠

Digitized by Birzeit University Library

يخفق فيها الناي والمزهر
في طلة الفجر على المنحنى
يهفو اليه الكرم والبيدر
اهواك في شعبي وفي موطني
فأنت لا احلى ولا انظر (٣٩)

ومثل هذا القول :

سأل الفجر: اين خوله فانهلت
طيوب وتمتمت : كيف تسأل ؟
هي في كل زهرة من بلادي
عبق في صميمنا يتغلغل
حفنة الطيب من ثرى الوطن الغالي
وآه على الثرى ٠٠ لو يقبل(٤٠)

وماذا يقول **ابو سلمى** حين يغازل جارته ؟

جارتي ٠٠ كم اغار من قبل الصبح
ومن خفقة الشعاع المحير
هل سرقت الفتون من قسمات
القدس او فجرها الحبيب الاشقر
لست ادري هل جملتك بلادي
ام تمثلت انت في كل منظر(٤١)

وفي لغة شعرية مجنحة وبأرق مفردات الغزل ، يقول ، مخاطبا بلاده :

كلما حاربت من اجلك
احببتك اكثر
اي ترب غير هذا التراب
من مسك وعنبر
اي افق غير هذا الافق
في الدنيا معطر
كلما دافعت عن ارضك
عود العمر يخضر
وجناحي يا فلسطين

على القمة ينشر (٤٢)

هكذا يعلن عاشق فلسطين الكبير الحب على وطنه ، كما يعلن الحرب من اجله ٠٠ وهذا الاعلان يأتي منسجما مع العالم الشعري **لابو سلمى** ، بجوانبه الوطنية ، والطبقية ، والقومية ، والاممية ٠٠٠ ومع اليقين بحتمية الانتصار وبالفرح الآتي ٠

■ ابو سلمى يحدد وظيفة الشعر ودور الشاعر

منذ هتف **ابو سلمى** « انشر على لهب القصيدة » ، عام ١٩٣٦ ، الى ان قال « شعري جسر يلتقي فوقه اهلي » عام ١٩٧٥ ، يكون قد اعطى اربعين عاما من حياته لقضية الشعر الملتزم بالثورة وبالجماهير ، فكيف تسنى **لابو سلمى** ان يحقق ذلك ، وما رؤيته لوظيفة الشعر ودور الشاعر ؟

ابو سلمى يضع حدا فاصلا بين نوعين من الشعر والشعراء :

انه الشعر كالاناسي في الكون فحرف حر وحرف ذليل (٤٣) وهو ينزه الشعر الحق ان لا يكون صادرا عن الشعور والالتزام بقضايا الجماهير وبآمالها وآلامها وان لا يكون سلاحا وضوءا ينير الطريق :

يخجل الشعر حين يغفو على الاعتاب،
لا كان ٠٠٠ ان عداه الشعور
هو لم يحشد اماني « فلسطين »
وآلامها ٠٠٠ لقى وقشور

---

(٣٩) **ابنة بلادي** ، ص ١٧ ٠
(٤٠) **فلسطينية** ص ٢٩٣ ٠
(٤١) **الافق المعطر** ، ص ١٦٥ ٠
(٤٢) **احببتك اكثر** ، ص ٢٩٩ ٠
(٤٣) **الطائر الغريب** ، ص ٢٨٦ ٠

Digitized by Birzeit University Library

كل حرف حر يضيء طريق الشعب كالسيف للجهاد يشير(٤٤)

ابو سلمى وظف شعره سلاحا بيد الجماهير ، وادان كل اشكال الشعر الذليل الذي يتمسح على اعتاب السلطان ... كما ادان شعر الاغتراب، والتغريب، والتعقيد ، والغموض والضبابين ، ودعا الى انخراط الشعراء في قلب حركة الجماهير ونضالها ، وان يهبطوا من ابراجهم العاجية ، ويتحملوا مسؤولياتهم بحماية شرف الحرف المضيء ورايه الشعر المناضل :

ايها الحاملون الوية الشعر
تهاوى الستار والتمثيل
ان تشريد شعبنا يخضب الشعر
وتدمي حروفه والنصول
فاهبطوا .. لا ترابطوا في البروج
البيض فلشعر كله مسؤول
شرف الحرف ان يذود عن الحق
فان رمتم المقال فقولوا
واضيئوا باللظى ليبث النور
فالليل عالم مجهول
انه الحرف ، جل ان يشتريه
حاكم ظالم وعلج دخيل (٤٥)

هكذا يحدد **ابو سلمى** منهاج كامل لدور الشعر وموقعه ، وهذا ، بالضبط ، ما جعل **ابو سلمى** – بحق – شاعر الاجيال الفلسطينية والسنديانة التي نبتت عليها اغاني فلسطين .

ان الشعر المخضب بالدم ، والمغمس بقلب الشعب المجرح ، لا بد ان ينطلق من وسط الجماهير ، لا من الابراج العاجية ، ولا بد ان يكون منارة ورايه تتقدم جحافل المناضلين من اجل الحرية :

ريشتي في يدي ، تسير امام الشعب
في زحفها على الطغيان (٤٦)

ان شرف الحرف هو شرف الوطن ، وكرامة الشاعر هي كرامة الشعب ، ولهذا يقول **ابو سلمى** :

ابها الشارعون اقلامنا الحرة ذودوا
عن حرمة الافكار
المداد الكريم كالدم في الميدان ، حرا ،
حرب على الاشرار
دافعوا عن كرامة الحرف والانسان في
افق هذه الاقطار
بحروف فيها حياة وخفق لا اساطير
من ضباب معار (٤٧)

ابو سلمى يدعو الشعراء ان يكتبوا بلغة واضحة وبسيطة ، بساطة الشعب ، وتحكي عن حياته هو ، وتراثه هو ، لا ان تستعير اجواء اليونان والرومان الاسطورية ..ولا ان تغرق في ضبابية التهاويم ، والرموز والالغاز الغريبة ، ذلك ان :

هذى الحروف جريحة الكبد
مثلي ومثل الشعب والبلد (٤٨)

ويقدم **ابو سلمى** نموذج الشعر القاوم في الارض المحتلة ، ليعبر من خلاله عن مفهومه للشعر ولدوره :

شعراء الجليل والشاطىء الغربي
انتم طلائع الفرسان

---

(٤٤) **الاحرف الحمر** ص ٣٠٢ .
(٤٥) **الطائر الغريب** ، ص ٢٨٦ .
(٤٦) **من فلسطين ريشتي** ، ص ٣٠٨ .
(٤٧) **دم اهلي** ، ص ٣١٣ .
(٤٨) **اين العواصم** ص ٣٣٦ .

Digitized by Birzeit University Library

تتحدون بالقوافي المدمـــاة
نضـــالا عصابـة الشيطان
كل شعر سواه تلوى به الريح
ويطويـــه عـالم النسيـــان
شعركم وحده يعمق في الارض
جـــذور الصمود والعنفوان
شعركم وحده المجلجل في الساح
رفيق السلاح في المعمعان (٤٩)

ان كبرياء الشاعر وكرامته هي بقـدر احترام الشاعر للكلمة ودورها وموقعها في نضال شعبه ، ولهذا لم يضعف او يتردد او يساوم وظل على الدوام قادرا على قول كل ما يريد لان :

كل الحروف تظـــل شاردة
ان لم تقل ما دار بالخـــلد
من لم يذد عن حرفـــه ابدا
فعن الحمى والشعب لم يذد(٥٠)

□

هذه جوانب متعددة حاولنا من خلالها الاقتراب من عالم **ابو سلمى** الشعري ، واقتصر فيها حديثنا على مضمون هذا الشعر .. اما جانب الشكل والتقنيـة والابداع الفني وهي الوجه الآخر لمضمون هذا الشعر والذي حقق فيه ابو سلمى تجاوزا نوعيا للمدرسة الكلاسيكية وان حافظ على عمودها الشعري ، فتحتاج الى وقفة ثانية .

(٤٩) **من فلسطين ريشتي** ، ص ٣٠٨ .
(٥٠) **اين العواصم** ، ص ٣٢٦ .

قريبـــاً

مهرجانات تكريم شاعر فلسطين

أبو سلمى

(عبد الكريم الكرمي)

في كتاب تصدره الامانة العامة للاتحاد العام
للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

Digitized by Birzeit University Library

الاغنية السياسية اللبنانية الى اين؟

جهاد ا. صالح

عندما اشتعلت الحرب اللبنانية ، تفجر المجتمع ، وانهارت صيغة التعايش بين مختلف طبقاته وفئاته الاجتماعية ، ضمن مسارات ودوافع متشعبة الدلالات والاهداف ، عكست الاستحالة في استمرار هذا التعايش غير المنطقي ، رغم كل أشكال والوان التحايل التي مورست منذ اعلان الصيغة وحتى انهيارها الدامي ٠ ولقد بذلت جهود مضنية من قبل الفئات التي ظلت فترة طويلة تجني ثمار تلك الصيغة التآلفية الالزامية ، على حساب طبقات وفئات غالبية الشعب ٠ ولكن صرخة التمرد والتغيير كانت هي الاقوى ، فسقطت الصيغة مع آلاف القتلى والجرحى على امتداد الارض اللبنانية ، وانتشرت مع شظايا القنابل والقذائف واعمدة الدخان ، وانهيار المؤسسات التي كانت تحمل كل أسباب انهيارها في احشائها ٠

فالحرب اللبنانية ، بحد ذاتها ، كانت عبارة عن صرخة تعبيرية عنيفة لتلك المسارات الهشة التي افرزها تعايش قسري بين الطبقات وتآلف مصلحي بين فئات اجتماعية محددة ٠

ونستطيع القول بأن ما شهدته الساحة اللبنانية ليس حربا ، بل هو انحلال وانفلات لتلك العقد المتشابكة عن بعضها، كل الى منبعه، وكل الى مساره الطبيعي، وكل الى مصبه ، رغم ماحمل من زيف ديمقراطي سياحي ٠

Digitized by Birzeit University Library

لقد اعتقد مصممو نهج المرحلة السابقة ، انهم قادرون على الاستمرار في المحافظة على الوضع الناشىء ، من خلال عملية التزيين الدعائي للمجتمع المبتكر، ومن خلال بعث مؤسسات يتماسك ظاهرها قسريا ، لقمع التفاعلات بداخلها ، المتوحدة احيانا ، المتناقضة غالبا ·

ولقد عملوا على فرض ثقافة موحدة تتلاءم مع المعطيات الاجتماعية المتقولبة ضمن مفاهيم جمالية محضة ، مستفيدين من زوايا تاريخية وتراثية محددة ، فتبدو هذه الثقافة وكأنها فرز طبيعي للظروف الاجتماعية والاقتصادية ولا سبيل لمحاولات التغيير ، التي تطفو على السطح بين فترة واخرى ·

ويبدو ذلك للوهلة الاولى منطقيا ، ولكن المجتمع الطارىء ، الذي يحمل في كل تفاصيله اسباب انهياره ، كان طبيعيا ان يفرز ثقافة هي ، ايضا ، قابلة للتفجير عند اول مواجهة حقيقية مع الواقع ، الذي راح يتطور بسرعة وذهول على الساحة اللبنانية ، خاصة في تلك الفترة التي سبقت الانفجار الشامل ·

ولان الشعر والاغنية هما المجالان المباشران اللذان يستطيعان ان يعبرا عن المواقف والاحاسيس والحالات بسرعة ، على صعيد الافراد والجماعات ، فاننا نلاحظ ان بداية الفرز الثقافي تتوقف مرحليا على الشعر والاغنية ، باعتبار ان لا ضرورة ملحة لعملية الاختمار الطويلة حتى يتم الابداع والتوصيل الجيد والمعبر ·

وهنا لا بد من التذكير بأن الادب التعبيري المرتبط بالحركة (الغناء ، الرقص ، الفولكلور ··· الخ) اكثر قدرة على عملية التوصيل ، والتغلغل الفوري من الادب التعبيري المكتوب ، والمختصر (الرواية ، القصة ، اسرحية ·· الخ) ·

ففي حين قد يكتفي الادب المكتوب بأوساط وحلقات مثقفة محدودة للحكم على نجاحه ، فاننا نجد ، بالمقابل ، ان الادب المرتبط بالحركة يشترط فيه التغلغل في صفوف عامة الشعب، ويخلق حالات واحاسيس متقاربة عند العامل والفلاح، والمثقف ·

وهنا يكمن الفرق بين الشعر والاغنية (مثلا) · الامر الذي يفرض علينا مناقشة جادة لظاهرة ولادة الاغنية السياسية الجديدة ، والتي ولدت على الساحة اللبنانية ، اثر عملية الانهيار العظيم · لأن الولادة ، لا تعني القدرة على النمو

Digitized by Birzeit University Library

والاستمرار ، كما لا تعني ان الاغنية السياسية اصبحت « ممثلا شرعيا وحيداً » للاغنية اللبنانية ، كما يقول الفنان احمد قعبور ·

ان طموحنا باغنية بديلة موجهة ، يحتاج الى نضـال مستمر ، وتيار ثقافي كفاحي في وجه التحديات الكبيرة والكثيرة ، خاصة اذا اعتبرنا ان هذه الولادة لم تات بفعل الفراغ الذي اعقبته الحرب ، بل اتت لتعبر عن مواقف واحاسيس وطنية مكبوتة ومقموعة بوحشية ، اتت الحرب ففجرتها ·

اذن فنحن امام صراع ثقافي واجتماعي واقتصادي ، ينبع من شكل جماعي من الاحتجاجات اليومية المباشرة وغير المباشرة ، ومـــن رؤيا سياسية واضحة الجوهر ، وادوات ، واشكال ، ومستقبل الصراع ·

فالاغنية القادرة على خلق احساسات وانفعـــالات نابعة من حلم ومعاناة الجماهير ، تكون قادرة على تحويل فعل هذه الاحساسات الى قـوة مادية فعالة تشارك في دفع وتطوير الصراع لصالح القوى الوطنية المناضلة ·

اذن نحن الآن أمام ولادة ابداعية تعبيرية ، ساهمـــت الحرب اللبنانية في ظهورها الى حيز الوجود ، فلا بد من طرح تساؤل مشروع حـــول مستقبل هذه الاغنية لمرحلة ما بعد الحرب ·

هل تستطيع ان تنمو بعيدا عن القابلة القانونية التي شاركت في ولادتها ؟

« ليس المطلوب من النتاجات الابداعية حول الحـرب اللبنانية ، ان تستوعب هذه الحرب ، بل أن تستوعب الحرب والانسان ، ليس المطلوب منها ان تكون سجلا تاريخيا لما يدور ، بل لحظة رؤيا تستشف المستقبل وتساهم في صبغه » (١) ·

بذلك يكون اول هدف للاغنية هو تجاوز التصوير التسجيلي ليوميات احداث الحرب ، بقوة واندفاع ، من اجل تحقيق عالم ، انساني عميق ، مرتبط ، ارتباطا وثيقيا ، باشكال الصراع التي تخوضها القوى الوطنية والقومية والطبقية :

« المهم تجاوز ما هو آني وعابر ، دونما اهماله ، وذلك عن طريق اعادة ربط الخلفية اللبنانية ، في سلسلة الاحداث العربية ، وربط المذبحة الآنية بما سبق ،

(١) غادة السمان · مقابلة مع مجلة الحرية (بيروت) ، العدد ٨٩٠ ، ١٣-١١-١٩٧٨ ·

Digitized by Birzeit University Library

وما سيأتي ...» (٢)

ولكي تتحول الاغنية الجديدة الى تيار نضالي وهذا ليس من مهام الملحنين الشباب وحدهم ـ يجب الوقوف طويلا عند التحديات التي تقف في وجهها ، بجدية وشمول ، ليكون تشكلها وتأسيسها على قدم ثابتة . والتحديات اما ان تكمن في الاغنية نفسها ، او في الملابسات المحيطة والمرتبطة بطبيعة الصراع بشكل عام .

اول هذه التحديات هو نصوص الاغنية السياسية الجديدة ، والتي راحت تختار نصوصا متميزة من الشعر الحديث ، سواء لشعـــراء المقاومة (محمود درويش ، سميح القاسم ، توفيق زياد ... الـــخ) ام لشعراء لبنانييـــن (حسن عبد الله ، محمود عبد الله ... الخ) .

ولقد لعب الشعر الحديث لهؤلاء الشعراء دورا اساسيا في دعـــم الاغنية الجديدة .

ونظرة سريعة الى النماذج الشعرية التي اختارها الملحنـــون ، نلاحظ انهم اختاروا نصوصا متقدمة ، ومكتملة ، مما أعطى الاغنية زخمـــا وقوة . وأساسا ثابتا لانطلاقة جديدة .

هذا الزخم هو ، بحد ذاته ، تحد مزدوج ، فهو مـــن ناحية جعل الملحنين يبداؤن الحانهم بقوة ، من حيث الشكـــل ـ الصوت ، واللحن ـ ومـــن حيث المضمون ـ النص الشعري ـ فأصبح عليهم ليس فقط المحافظة على هذا المستوى، بل تجاوزه نحو الافضل .

هذا التحدي سيظل قائما لفترة امتحان قاسية ، نتمنى ان تستطيـــع الاغنية الجديدة تجاوزها ، بانتاج لغة شعرية غنائية تواكب رحلة الاغنية جنبا الى جنب.

ولا تتوقف معضلة النص عند هذا الحد ، بل انها تفرض تحديا آخر ، فاذا نظرنا الى النصوص التي غناها الملحنون ، فاننا نجـــد أنها تعبر عن حالات وجدانية شاملة ، غير محددة بزمان او مكان ، بل تتمدد في الزمان لتصبح موقفا انسانيا ، وتتمدد في المكان لتغدو معاناة وهموما انسانية منتشرة .

.....

(٢) المصدر نفسه .

Digitized by Birzeit University Library

وهذا لن يكون هدف الاغنية على المدى القريب ·

ذلك ان الدور الذي يفترض أن تلعبه ، هو مواجهة متطلبات الموقف الراهن ، المتفجر والمتغير بسرعة ، لتتمكن من الانتشار الواسع بين الشعب في المصنع ، والحقل ، والمدرسة ، والشارع ، والخندق ، وروضة الاطفال · فهي تحريضية ، منحازة ، بحكم ولادتها · الامر الذي يتطلب نصا بسيطا ، يعبر عن هموم واحلام الشارع الوطني ، بلغة تعبيرية جميلة ومفهومة ، تستبدل مأساتهم التي سببتها الحرب ، بفرح انساني موجه ·

اذن ، لكي تستمر الاغنية الجديدة ، التي بدأت متألقة، يجب ان تدخل بهدوء في حياة الناس الخاصة ، في كل اماكن انتشارهم ، وبكل تفاصيلها الحياتية الدقيقة ، وان تختار نصوصا بسيطة يقوم بتحويلها الى حالة من الاحاسيس والمواقف ، حتى بعد انتهاء حالة التوتر والاضطراب ، التي سببتها الحرب في المرحلة الراهنة ·

ثاني هذه التحديات التي تواجهها الاغنية الجديدة هي : التجربة المميزة لفيروز والرحبانية ·

ففيروز بصوتها ، والرحبانيةبلحنها ، استطاعت أن ترسم لنفسها تجربة مميزة تعد ، بجدارة ، من تراث لبنان بل والوطن العربي ، في المرحلة الاجتماعية التي سبقت الحرب في وقت اخذت الاغنية العربية تفقد قيمتها ·

وتعتبر هذه التجربة بمثابة تطوير ناجح للاغنية العربية المحتضرة ، بفعل الارهاصات السياسية المتلاحقة التي شهدتها الساحة العربية · متى ؟

ولقد تمكنت هذه التجربة من الاستفادة القصوى من التراث الفولكلوري اللبناني ، بشكل خاص ، لابراز نموذج ابداعي عميق ، من حيث الشكل الجمالي للاغنية ·

أما المضمون فلقد أدى هو ، ايضا ، دوره في التعبير عن الظروف الاجتماعية في تلك المرحلة ، والتي ساهمت بورجوازية الخدمات في قيادة دفتها ·

فأغاني فيروز خاطبت كل فئات وطبقات الشعب ، انتشرت معهم كالنار في الهشيم ، رافقتهم في احزانهم واحلامهم ، في فرحهم وقسوة حياتهم ·وتغلغلت

Digitized by Birzeit University Library

لتغطي ـ الجبل ، والريف ، والمدينة ، والبقاع ، والجنوب ، والقدس ، والشام ، والحقل ، والمصنع ، والمدرسة ... الخ .

ان هذا الانتشار ، وهذا التماس المباشر مع التفاصيل الدقيقة لحياة الناس، بلغة شعرية وموسيقية كثيفة ـ متأصلة في وجدان الشعب ، يكشف مدى تجاوب هذه التجربة مع الظروف الاجتماعية التي سبقت الحرب .

وذلك بحد ذاته شرط اساسي لنجاح اي تجربـــة ثقافية ، سواء كانت تعبيرية مكتوبة ، ام تعبيرية حركية .

فهذا الشرط الذي توفر في التجربة الفيروزية ـ الرحبانية ، في مرحلة ما قبل الحرب ، نراه يتوقف ويعجز عن الاستمرار عندما انفجرت الاحداث اللبنانية بشكل حاد ، وانقسم المجتمع اللبناني الى فئات متباينـــة عديـــدة ، والى مناطق كثيرة ، والى حواجز طيارة ، ومناطق قتل وحـــرق ، فأصبحت اغنية « بحبك يا لبنان » اغنية الجميع ، وشعار الجميع . القاتل والمقتول ، والظالم والمظلوم ، الجاني والمجني عليه ، الوطني واللاوطني ، فسقطت الاغنيه ، وغـــاب الصوت المخملـــي مـــع اصـــوات الانفجارات ، لانـــه لـــم يستطع ان يكون اقوى من هذا الانفجار . لقد التزمت الحياد ، والحياد بداية السقوط ، بل انهايته ايضا ، فمذهب الفن للفن لا يعني شيئا بالنسبة للقوى المتصارعة بعنف .

لم يستطع الرحابنة ان يستمروا بتجربتهم خلال فترة الحرب ، فخلفوا فراغا على صعيد الاغنية .

في هذه الفترة ، فترة الحرب ، ولدت الاغنيـــة السياسية الجديدة ، لتلبي حاجات الناس ، ولتعبر عن مشاعرهم ومواقفهم ، ضمـــن الظروف الاجتماعية الراهنة . وهذه الولادة ، بحد ذاتها ، لن تصبح انتصارا الا اذا استطاعت ان تتواصل وتتشكل مع مرحلة ما بعد الحرب .

تلك المرحلة التي ستشهد صراعا عنيفا بين هـــذه الولادة الجديدة ، وبين التجربة الفيروزية ـ الرحبانية التي ستحاول ان تنقذ عرشها بعد ان تهدأ المدافع وتدفن الجثث، شأنها شأن القوى التي تمثلها . مما يفرض على الملحنين والشعراء الشباب رص الصفوف ، ورسم الخطط ، لارساء تراث غنائي جديد قوي ، وتشكيل

Digitized by Birzeit University Library

تيار جديد يتغلغل ، بعمق ، في نفوس الشعب ·

أما التحدي الثالث الذي تواجهه الاغنية السياسية فهو الثقافة التقليدية ·

فالمفروض ان الحالة التي تخلقها الاغنية عند المستمع لا تنتهي بتوقف آلة التسجيل او الراديو ، بمعنى انها غير محددة بزمن الاستماع اليها · بل يجب ان تستمر حالة التأثر حتى يصبح للاغنية دور في تحويل المجتمع ·

لقد كانت الاغنية السابقة بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم ، الذي فرضته اجهزة الدعاية الرسمية ، وانتجته الثقافة السائدة فكان مقياس جودة الاغنية قدرتها على الطرب ، وخلو نصها من مضمون يتعلق بالتغيير الجذري لصالح مستقبل افضل · وبهذا المفهوم الرجعي ظلت الاغنية العربية بشكل عام ، واللبنانية بشكل خاص ، اسيرة غير متحررة ، تجارية ، تتأرجح بين الشرق والغرب، ولكن لم تجرؤ على التقرب من معينها التراثي ·

حتى المثقفون ظلوا يعتبرون هذا المفهوم مقياسا لاحكامهم ، حيث لا يمكن زحزحة الاغنية عن مسارها لانها انتشرت وتمددت · وتحت هذه الوطأة حافظت الاغنية على رجعيتها واستمرارها ، حيث ان طبيعة الظروف الاجتماعية على الساحة العربية لم تكن قادرة على خلق اغنية بديلة (خاصة في لبنان) ·

ولكن ما حققته وما افرزته الحرب اللبنانية كان دافعا لظهور اكثر من مغن سياسي ، من خلال اغان عبرت من مشاعر واحاسيس الشارع الوطني ، فكانت عبارة عن :

« الرضة الكبرى ، وخلخلة القوالب والمدلولات الثابتة في افق محدود ومن ثم لتخطي الحاجز الى الموقف ، والوصول الى مستوى التوتر الصدامي في تفجير الابعاد التعبيرية والثورية ، داخل لعبة الخلق والفعل الانساني (٣)·

ومحاولات احداث الرضة الكبرى ، وخلخلة القوالب ، على حد تعبير الفنان مارسيل خليفة ، لم تكن بدايتها التيار الجديد على صعيد الاغنية اللبنانية ، بل

(٣) الفنان مارسيل خليفة · مقابلة عن الاغنية السياسية الحديثة · الحرية ، العدد ٨٨٧ ، ١٣ـ١٠ـ١٩٧٨ ·

Digitized by Birzeit University Library

جرت محاولات قديمة عديدة في اماكن اخرى من الوطن العربي ·

ونذكر مـا قـدمه الثنائي الشيـخ امـام واحمد فؤاد نجم (في مصر) ، وعابد عازريه وبول مطر (في سوريا) ·

ولكن هذه المحاولات جرت بعيدة عن التفجر الشامل والفـرز الاجتماعي ، فظلت تدور ضمن حلقات المثقفين ·

ومع وجود المفجرات الساخنة ، والتوتر العنيـف في العلاقات الاجتماعية اثناء الحرب اللبنانية برز هـــذا التيار الكفاحي للاغنية الجديدة ، ومن مواقع التفجير نفسها ، لاعادة صياغة المجتمع ضمن علاقات مستقبلية جديدة ·

هكذا فدور الاغنية مرتبط بدور المجالات الثقافية الاخرى لدفع عجلة تطوير المجتمع وصياغة علاقاته الجديدة ، واجراء التحـــولات على جميع الاصعدة هو ضمانة خلق تراث فني جديد ·

ناحية اخرى لها علاقة بالموضـــوع · الانتشار المسامي ، والجذري ، يجعل من الصعب زعزعة هذه الولادة والقضاء عليهـــا في بواكير انتفاضتها ، لانها ليست عارضا بل بداية قول ·

ان اهم معوق امام هذا الانتشار هو اجهزة الاعلام الرجعية ، وهذا يتطلب جهدا موحدا وملتزما من قبل القوى السياسية التقدمية ، لدفع عملية الانتشار ، وخلق المناخات والمناسبات لايصال هذه الاغنية الى جميع فئات الشعـــب ، عن طريق المهرجانات ، والامسيات ، والاشرطة ، والاذاعات المحلية ، وعبر الصحف والمجلات · وذلك :

« لتوفير امكانية العيش والاستمرار ، في خضم الفنـــون الرجعية ، ومنها الاغاني التجارية ، المستوردة سلفا يظهر اجهزة الاعلام الحاكم » (٤) ·

والتعويض الجمالي هو التحدي الرابع الذي تواجهه الاغنية السياسية ·

---

(٤) الشاعر حسن ضاهر ، المصدر نفسه ·

Digitized by Birzeit University Library

فالاغنية السياسية والموسيقى اقدر على الوصول لغاياتهما بشكل عام ، وذلك لانهما تدخلان ضمن مجال ارحب قريب الى قلوب الناس ، خاصة اولئك الذين اضنتهم الحرب ، ومعاناة الاضطهاد ، لتوفير عامل التشويق ، والانسجام وعدم بذل الجهد · (المتعة ـ الراحة ـ الاسترخاء) ·

فالموسيقى تداعب المشاعر وتهدىء القلـــوب او تؤججها ، بتوجه حسب الغاية ، تمهيدا لخلق حالة قادرة على استيعاب المضمون · وهي ، في الحالتين ، تخاطب وتثير العامل الجمالي والحضـــاري عند الانسان ، الذي كاد ان ينسى الفرح تحت وطأة الاحداث وفظاعتها ·

والفن ، بحد ذاته ، هو عملية تصوير بارعة للواقع والحدث ، بلغة مبتكرة يفهمها الانسان بلغته المألوفة ·

من هنا يجب ان لا تخلو الاغنيـــة السياسية من الجانب الجمالي ، والا اصبحت تقريرا عن الحدث ، او نشرة اخبار :

« الاغنية السياسية الملتزمة هي ، قبل كل شيء ، عمـــل فني ، وليس بيان سياسي ، والا فقدت تسميتها » (٥)

فالفن الثوري هو الوسيلة التي يجب ان تضفي على الفقراء ، والمضطهدين بعدا حالما ، وتطمئنهم الى مستقبل كله فرح وسرور ، وتحمل المقاتل المتصارع ، باستمرار ، مع اسباب الموت على اجنحة وردية ، فـلا يختصر العالم عنده بتلك البندقية ، وذلك المتراس ، وبقسوة الحياة ، وشغف العيش ، بل يحمله الى ذلك العالم البعيد عن الهموم ، المليء بالفرح والجمال :

« الفن الثوري الحديث ، يزين الحياة امام جموع الشعب بفقرائه وكادحيه ، وهو دعوة صادقة لتغيير الحياة القاسية » (٦)

والتعويض الجمالي ، لا يفترض التصوير الناجح من خلال النص واللحن ، بل يفترض الغـــوص في التـــراث الفولكلوري ، والاغاني والآلات الموسيقية

.....

(٥) الفنان غازي بكداشي ، المصدر نفسه ·
(٦) الفنان اسامة الحلاق ، المصدر نفسه ·

Digitized by Birzeit University Library

الشعبية ، والبحث عن الاهتمامات الحضارية المتأصلة · وهذا ، بالضرورة ، لا يعني استمرار القديم على قدمه ، لان التراث ، أساسا ، يكمن فينا جميعا · ولكن كيف تتم عملية الايصال التراثي ؟ ذلك ما نعنيه بالغوص ·

ان استخدام الآلات الموسيقية الشرقية ، مثلا ، جنبا الى جنب مع الآلات الحديثة ، يمكن ان يخلق لغة تعبيرية غير متناقضة ، بل لغة متآلفة بين **التراث والتجديد** · ولعل من احد اهم اسباب نجاح الاغنية الجديدة عند الفنان **مارسيل خليفة** هو استخدامه ـ بفعالية ـ العود مع الآلات الحديثة الاخرى··

وهذا بعض ما ميز اغنيته عن اغنيات الآخرين ، الذين اعتمدوا على الآلات الحديثة فقط ·

والتعويض الجمالي لا يتوقف عند الآلة فقط .ل يعتمد، اساسا، على الصوت الغنائي ـ المغني ـ الكورس ·

صحيح ان الاغنية في المرحلة الراهنة هي عبارة عن تعبير جماعي لهموم اجتماعية طبقية وفئوية ، والتعبير الافضل هو صوت الكورس المتآلف ، الا ان الوقوف عند هذا الحد سيحول الاغنية بالنتيجة الى مجرد « اهازيج ثورية ، او بيانات سياسية ، او مارشات عسكرية » ·

فالصوت هو شكل جمالي يضفي على المضمون ، والموسيقى سحرا وبعدا ، وقدرة على الايصال والانتشار ·

وهذه ، ايضا ، ميزة اخرى تميز بها الفنان **مارسيل خليفة** ، الذي يمتلك صوتا جميلا قادرا على التماوج والتغير مع حركة الموسيقى ومتطلبات النص ·

★★★

ان نظرة جدية ، لتيار الاغنية السياسية الجديدة ، ضمن ما هو متوافر بين ايدينا من اشرطة ، وما يتنازع رواد هذا الاتجاه من طموحات ، ومن خلال رؤيتنا السابقة للتحديات التي تقف في وجه هذه الولادة الشرعية والانطلاقة الجريئة، يجعلنا نتطلع الى مستقبل أفضل لهذه الاغنية ، فالنجاح الذي لاقاه هذا العمل الابداعي ، والذي استطاع في فترة قصيرة ان يجد النور في قلوب جماهير

Digitized by Birzeit University Library

الشارع الوطني ، ولياليهم ، وحلقاتهم ، يعتبر أساسا قويا ستشيد عليه الاغنية الجديدة بناءها العظيم ، بيد ان استمرارها سيبقى مرهونا باستمرار النضال ، الذي لا يتحمل مسؤولية تجذيره وتصاعده ، فقط ، مجموعة الملحنين والشعراء الشباب الذين قادوا هذا التوجه الاصيل ، بل جميع القوى السياسية التقدمية ، بالابتعاد عن النظرة السطحية ، سواء من حيث الاطراء المفتعل والمبتذل ، أو من خلال التهجم والاحباط وخلق التيارات المعاكسة ، واخضاعها لقوالب النقد القديمة ، والتي هي من نتاج الثقافة البورجوازية للمرحلة السابقة ·

وهذا يتطلب المزيد من الدفع والعمق ، لمواجهة التحديات الرجعية · لكي تصلب الاغنية السياسية موقعها من اجل تكامل ووضوح اهدافها بدون تعصب ، لان الفن لا يمكن ان يكون محدودا بحلقات او فئات ·

بل هو عملية فرز وفعل تغيير للظروف الاجتماعية ·

المسألة اليهودية والحركة الوطنية العربية

بقلم : جورج حداد

اطلبه من : مكتبة دار الكاتب

بيروت – خندق الغميق

ملك عسيران – تلفون ٢٩٢٨٧١

وجميع المكتبات الرئيسية في بيروت والمناطق

Digitized by Birzeit University Library

الف عام وعام، من المسرح العربي

تاتيانا بوتنسيفا
ترجمة : عدنان مدانات

اكثر من مقال نشر في الاونة الاخيرة ، ناقش مسألة اصول المسرح العربي . من هذه المقالات ما كتبه **ادونيس** ، في العدد الثاني من مجلة « **دفاتر المسرح** » ، وما كتبه الناقد والمؤلف المسرحي **رياض عصمت** ، في العدد الاول من مجلة « **الكاتب الفلسطيني** » ، ومساهمة في هذا الحوار ، ننشر ترجمة لمقطع من مقدمة كتاب « **الف عام وعام المسرح العربي** » ، الذي صدر عام ١٩٧٧ ، في موسكو ، باللغة الروسية ، للمستشرقة **تاتيانا بوتنسيفا** . والكتاب من اكثر الكتب التي تعالج المسرح العربي في ماضيه وحاضره ، علمية وشمولية ومعلومات .

في المقاطع المترجمة ، تحاول المؤلفة ، ان تعيد صياغة السؤال حول اصول المسرح العربي ، انطلاقا من القناعة المبدئية بوجود هذه الاصول ، وانطلاقا من موقف جمالي يفترض انه ليس بالضرورة ان يكون الشكل المسرحي الذي عرفته اوروبا ، هو الشكل الوحيد الممكن للعرض المسرحي .

اذن ، فعمر المسرح العربي الف عام وعام ؟ ـ انكم تسألون هل حقا بهذه الدقة ـ الف عام وعام ؟ علي ان اجيب رأسا ، ان لا دقة في هذا الرقم . لا تتعجب ايها القارىء . انني اذكرك ، حتى لا تلومني على الارقام غير الصحيحة او على السعي نحو الاصالة ، ان « الف عام وعام » تعني بالنسبة لمعظم اللغات الشرقية نوعا من التضخم ، اي « كثيرا » و « كثرة » . ان البديهية التركية

Digitized by Birzeit University Library

«بين بير » (حرفيا «الف عام») ، هكذا تترجم ، مثلا · بينما في اللغة الفارسية « كثرة » ـ هي ببساطة « الف » · وبهذه الطريقة فان عنـــوان الكتاب لا يحدد التاريخ الصحيح لوجود المسرح العربي ، على الرغم من انه ، وحسب قنـــاعة المؤلفة ، يقترب الى حد كبير منه ·

ان ثقافة العالم العربي ، ومن ضمنها مرحلة ما قبل الاسلام ، تبلغ في كل الاحوال حوالي الالفي عام · لقد تغذت العلوم المتطورة جدا عنـــد العرب ، في مراحلها الاولى ، من انجازات الاجداد الاوروبيين ، اما الشعر فقد قدم فيمختبر الحضارة العربية نمـــاذج خالدة ، وثبتت الموسيقى العربية قوانينها · وهنـــاك مجال واحد فقط من الثقافة العربية لم يكن يعرف عنه شيئا ـ المسرح · ومـــع ذلك فان تطور الثقافة لا يستطيع الا ان يفترض تطور عناصر الفن المسرحي · لقد ولدت هـــذه العناصر في كل مكان ـ في الاوساط المجاورة وفي الوسط العربي الخاص ـ في رقصات القبـــائل الافريقية ، وفي الشعائر الاحتفالية للشعوب العربية ، في فن الرواة الجوالين ، وفي الحكايات البيزنطية · هذا يعني انه من الغريب ، الحديث عن نشوء المسرح العربي فقط منذ زمن غير بعيد ، في اواسط القرن الماضي ·

وفي نفس الوقت ، جرى الحديث لفترة طويلة ، بل واحيانا تجـــري الآن فكرة ، تشير الى كما لو ان المسرح العربي يوجد فقط في حالة المخاض · حتى ان **يو· ن· زافادوفسكي** ، الاراببست السوفييتي الكبير ، كتب منـذ فترة غير بعيدة عن ان « الادبيات العربية التقليدية لا تعرف الدرامية ، ذلـك لان الفن العربي لم يعرف المسرح » · ان المؤرخين الغربيين ، ونقاد المسرح الاميركيين والاوروبيين، حتى عندما يعترفون بواقعة وجود المسرح العربي ، غالبا ما ينكرون عليه وجوده المستقل ـ فهم اما يعتبرونه ناتجا بطريقة ما عـن المسرح الاوروبي ، او يربطون كل تاريخ المسرح الشرقي فقـــط بالمسرح الياباني ، والصيني ، والهنـــدي والاندونيسي ، وفي حـــالات نادرة بالمسرح الفارسي والتركي · بالمناسبة ، اذا كان ادب العالم العربي الشهير ، قد بدأ ، منذ زمن وجيز فقط ، يستحوذ عـــلى اهتمام الباحثين ، فهل يجدر العجب ، من ان المسرح العربي بقي لفترة طويلة « بقعة بيضاء » في تاريخ الثقافة العربية ·

ان احـــدى المحاولات الجادة لتفسير ظاهرة المسرح العـــربي الثقافية والاجتماعية، هي التي قام بها استاذ جامعة بنسلفانيا، **يعقوب ليتداو**، في كتابه « **دراسات في المسرح والسينما عند العرب** » (١٩٥٨) · وعلى الرغم مـــن ان

Digitized by Birzeit University Library

يعقوب ليندا و قد اعترف انه لا يملك مادة كافية ولا تجربة سابقة لاختصاصيين سابقين من اجل الوصول الى استنتاجات تاريخية وجمالية كاملة القيمة ، فان انجازه ، مع ذلك ، كبير · لقد وضع لاول مرة ، اذ كان قد بحث في المواد المخطوطة المكتشفة في مكتبات الارشيف في روما والقاهرة، جدولا بكل المسرحيات من عام ١٨٥٠ الى عام ١٩٥٠، وهو جدول يعكس اهم عروض المسارح العربية ، ذلك انه ضم الى هذا الجدول ليس فقط الكتابات الاصلية للمؤلفين العرب ، بل وايضا الترجمات ، او بالاحرى ، اعادة الصياغة المحلية باللغة العربية للمؤلفات الدرامية العالمية · كانت صعوبة الابحاث تكمن في ان مخطوطات المسرحيات ، عادة ، اما ان تحفظ لاسباب تتعلق بالغيرة ، من قبل كل فرقة لاجل مسرحياتها ، او كانت ببساطة تضيع او تحرق بسبب عدم الحاجة اليها · ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل امتلاء الكتاب ، بالوقائع ، فان مفاهيمه تعاني من الاحكام المسبقة والنقص ، او بشكل ادق ، تعاني من بعض المركزية الاوروبية · ان خطأ مثل هذا الفهم لفن المسرح العربي واضح · كتب المستشرق السوفييتي المعروف **ن · بي · كونراد** « ان المركزية الاوروبية العلمية تخفي ، دائما ، في اعماقها خطر النقل الميكانيكي للمفاهيم المكتشفة في تاريخ وثقافة بلدان الغرب ، الى الظواهر التي تتم ملاحظتها في تاريخ وثقافة دول الشرق » ·

ان **يعقوب ليندا** ، وعلى الرغم من انه يتوقف عند الاشكال الشعبية لفن المسرح العربي ، لا يرى ان لها صلة مباشرة مع تطور المسرح العربي ، وينفي الجوهر الوطني لنشوء المسرح ، وغالبا ما يعزز انجازاته الى الاستعارات من المسرح الاوروبي· ولهذا فان المؤلف يركز اهتمامه الرئيسي على تأثير الحضارة الاوروبية على ثقافة العالم الاسلامي · وهو في احسن الاحوال ، يفسر بعض انجازات المسرح العربي عن طريق تركيب المحلي والاجنبي ، معطيا ، مع ذلك ، للبدايات العربية منزلة ثانية · ويؤكد ليندا و ، انه في الوقت الذي تكون فيه الادب ، والموسيقى والفن التشكيلي في الدولة العربية بناء على تقاليد محلية ، فان المسرح الذي وصل الى مرحلة التطور الحرفي فقط ، في منتصف القرن التاسع عشر ، قد انتقل الى ارض عذراء ، وكان جوهره غريبا · هل هذا ممكن ؟ فان الادب والموسيقى والشعائر الاحتفالية بمواضيعها المحلية ، وبنماذجها الشعبية وبقصصها المأخوذة عن الوجود العربي الواقعي ، قد حملت في داخلها عناصر الفن الدرامي ، منذ وقت سابق جدا على القرن التاسع عشر ، وبالتالي فقد افقدت هذه الارضية « عذريتها » · عن اي وجود « غريب » يجري الحديث اذن ؟

Digitized by Birzeit University Library

لقد برهن البروفيسور في جامعة هاوارد **هاميلتون الكسندر جيب** ، في كتابه « الادب العربي » ، ربما ، عن عدم الثقة والشك والجهل بالمسرح العربي · ان كل ما هو مكتوب في عمله عن المسرح يتلخص بالكلمات التالية : « بقي مسرح الظل في حالة المخاض ، اما الدراما العربية فقد ولدت ميتة » ·

لقد كرس العلماء الفرنسيون ابحاثا كثيرة لهم ، لوصف الحياة الثقافية في العالم العربي وقضايا الفن الاسلامي · وهم ، فيما يتعلق بقضية نشوء المسرح العربي ، يدافعون عن اكثر المفاهيم قدما ـ انهم يجهدون لربط الفن المسرحي العربي بالبنية المعهودة ، التي وجدت لدى المسرح في المرحلة الاخيرة من تطوره، اي بوجود الابنية المسرحية ، خشبة المسرح ، الستائر ، قاعة المتفرجين ، برنامج العروض ··· الخ ، بما يشير كما لو انه لم توجد ، ابدا، اشكال اخرى لوجود المسرح نابعة من اعماق الفن الشعبي التجميعي ·

في النقد المسرحي الالماني ، المشهور بدقته ، لا شيء تقريبا مكتوب عن المسرح العربي وعن ممارساته التمثيلية ، اذا استثنينا الاشارة الى الدرامية في « **تاريخ الادب العربي** » المكون من خمسة اجزاء ، للمؤلف ك· بروكلمان (١٨٩٨ ـ ١٩٤١) ، وبعض الاعمال المكرسة لمسرح الظل ·

في اعمال العلماء السوفييت ، الذين يبحثون في تاريخ الادب العربي ، غالبا ما يذكرون الدرامية فقط في الهوامش · اما الاستثناء المفرح فهو ما تكونه اعمال **ي· يو كراتشكوفسكي** ، وبشكل خاص اعمال **آ· ي· كريمسكي** ، الذي خصص لتاريخ المسرح العربي ، وبالذات المسرح وليس فقط الدرامية ، بضعة فصول طويلة من مؤلفه الكبير « **تاريخ الادب العربي الحديث** » · (ان الوثائق الموجودة فيه والمواد العلمية الغنية ، قد ساعدتني كثيرا في تأليفي لهذا الكتاب) ، وايضا كتبت **آ· آ· دولينينا** و **س· ف· بروجوغينا** ، اللتين ادخلتا الدراما الى ابحاثهما العلمية · اضافة الى ذلك، فان الكثير من اعمال المستشرقين السوفييت والاجانب (**ف· بيليافسكي** ، **ب· بيرمان** ، **يو· زافادوفسكي** ، **آ· ميتس** ، **آ· ميولر** ، **ي· فيلشتينسكي** ، وغيرهم) ، المكرسة لمختلف مسائل الثقافة العربية والفن ، ولكن التي لا تتطرق ابدا الى الفن المسرحي ، تعيد ، وبشكل مفصل ، انتاج حياة ووسط مصالح المجتمع العربي في القرون الماضية ، بحيث انها تسمح بالخروج ببعض الاستنتاجات والمقترحات المتعلقة بمكانة المسرح ضمن تطور الثقافة العربية ·

Digitized by Birzeit University Library

للاسف ، هناك الكثير في تاريخ المسرح العربي ، مما يجب تركيبه بناء على الفرضيات والاحازير ، مع توضيح الحقيقة عن طريق مقارنة ومطابقة الوقائع ، التي قد تبدو عرضية . يمكن ان نلمح بعض المواد حول الظواهر المسرحية في العالم العربي في يوميات ووثائق الرحالة الروس والغربيين في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من سطحيتها ، فان كل واقعة مذكورة فيها تحمل ، في ذاتها قيمة كشهادة حية عن ايام مضت الى الابد ومع ذلك ، اذا كانت عدم دقة الشهادات معذورة حينما يجري الحديث عن ازمات انتهت من فترة طويلة ، فان يجب تقديم صورة واضحة جدا عن المرحلة الحالية لتطور المسرح العربي . ولكن هنا ، يمكن ملاحظة تطرف آخر : ان ظواهر الفن المسرحي بدءا من لحظة محددة وبالضبط بدءا من لحظة حصول الدول العربية على استقلالها الوطني ، هي جد متنوعة ومتغيرة ، بحيث لا تستسلم لاي « كشف للحساب » . ربما لهذا السبب ، تكون الاشارات حول ظواهر الفن المسرحي ، والتي يمكن ان توجد في الملاحظات التي يكتبها ، اثناء الرحلات ، الادباء المعاصرون والصحفيون ، عرضية وغير منتظمة . حتى انه في ملاحق مجلة « **الوقت الجديد** » ، في السنوات الاخيرة ، حيث توجد معطيات دقيقة ومفصلة عن وجود المدارس وصالات السينما والمتاحف والمكتبات وغيرها من المراكز الثقافية في عواصم الدول العربية ، يتم تجاهل قضايا العمل المسرحي (الاستثناء موجود فقط بالنسبة للقاهرة والجزائر) .

ان اول من اتجه ، بشكل جدي واصيل ومنظم ، نحو دراسة المسرح العربي من منابعه وحتى ايامنا الحالية ، هم رجال المسرح في الدول العربية نفسها . وخلال وقت قصير ، نسبيا ، امكنهم انجاز ابحاث جدية كثيرة . ومنها كتب ابرز رجال المسرح المصري ، **زكي طليمات** ، **احمد رشدي صالح** ، **محمد مندور** ، **محمود تيمور** ، **محمد يوسف نجم** ، الاستاذ في جامعة بيروت ، الناقد المسرحي التونسي **ابن حليم حمادي** ، الباحث السوري **سلمان قطايا** ، مذكرات الممثل الجزائري والمؤلف المسرحي **محي الدين باشتارزي** ، اطروحة الناقد المسرحي المصري الشاب **فوزي فهمي احمد** ، اعمال رجل المسرح التونسي المعروف **محمد عزيزة** .

في عامي ١٩٦٨ ، عندما كنت اعيش في الجزائر ، وقفت شاهدة على نقاشات عاصفة ، مكرسة لقضايا نشوء وتطور المسرح العربي . اذكر حينها ، كيف دخلت عالم تصوراتي النقدية المسرحية المعتادة ، مفاهيم جديدة كليا وصور ومقولات ، وكيف توسعت اطر استقبال الفن المسرحي الاوروبي ، وكيف برز عندي ، في البداية ، فضول انساني محض ، ومن ثم اهتمام مسرحي نقدي حرفي

Digitized by Birzeit University Library

واخيرا طموح نحـــو البحث العلمي · واذا أعدنا ترتيب كلمات عنوان كتابي السابق « هنا تبدأ افريقيا » ، والذي صدر نتيجة لرحلتي الى الجزائر ، فانه يمكن القول انه في الجزائر قد بدأ المسرح العربي بالنسبة لي ، بدأ ، بالذات ، خـــلال هذه النقاشات الحيوية الإبداعية ·

ان من بادر الى هذه النقاشات في المغرب ، هو مدير المعهد الموسيقي الوطني في تونس ، استاذ جامعتي باريس والجزائر محمد عزيزة · لقد سعى المشاركون في هـــذه النقاشات ، التي امتدت سواء في قاعات المؤتمر او عـــلى صفحات الجرائد اليومية المحلية ، الى توضيح ، قبل كل شيء ، لماذا تم تجاهل او بالاحرى اخضع فن المسرح الى تجاهل طويل الامد ، خلال تاريخ الثقافة العربية الغني ·

كان السؤال الاول الذي احتل الصدارة هو : الم يكن هذا النسيان ، نتيجة، انه حقا ، لم يكن هناك مسرح بحد ذاته ؟ وعلى هـــذا السؤال اجابوا : لم يكن المسرح موجودا حقا ، اذا فهم مـــن مصطلح « مسرح » فقط ، التكوين المعاصر لمجموعة عناصر خارجية ، واذا تم تجاهل كل الاشكال الشعبية للفن المسرحي · ذلك انه حتى محمد عزيزة ، في اعماله المتعددة ، والتي نشرت لاحقـــا ، نسب لحظة ولادة المسرح العربي الى عام ١٨٤٨ · غير انه من السهل ذكر هذا التاريخ، ويمكن تثبيته تاريخيا ، بدون ايما جهد ، كتاريخ اخـــراج اول مسرحية عربيـــة رسمية ، والتي قدمت في بيروت · الاصعب هـــو تفسير لماذا حدث ذلـك بشكل متأخر الى هذا الحد ، في اواسط القرن التاسع عشر ، عندما كان الفن المسرحي في كل دول العالم تقريبا ، قد وصل الى قمته · ولكن مـــن الممكن ، ضمن ظروف العالم العربي ، عـــدم التمسك بمقاييس واحكام الـــدول الاخرى ؟ ربما يجب اخضاع مفهوم « الاحتراف » نفسه للشك ، اذا كانت هذه النظرية قائمة عليـــه ؟ ربما يجب ان نتذكر على ماذا استندت اقتراحات وبراهين كل المؤرخين السالفين، الذين انكروا حقيقة وجود المسرح العربي ، او استقلاليته الوطنيـــة ؟ لان نشوء المسرح في البلدان العربية يرتبط ، في الواقع بظروف غريبة غامضة ، وصعبـــة على التفسير ·

ان اقدم المفاهيم البرجوازية ، ولكن المنتشرة ، حتى الآن ، تؤكد بأن الثقافة العربية كانت جد متخلفة ، عن ان تلد هذا الفن الرفيع الكامل : المسرح · قـــد يعتقد ان وجهة النظر هذه تبدو مضحكة بشكل كاف ، ولكن طالما هي قد وجدت بسرعة ولا زالت توجـــد ، ولاننا بدأنا (احيانا على اثر **محمد عزيزة**) نقاش كل التفسيرات المحتملة ، سنتوقف ، باختصار ، عند وجهة النظر هذه · والآن يندر

Digitized by Birzeit University Library

ان تجد من يشك في الارث العظيم الذي قدمه رجال العالم العربي بالنسبة للعلوم والثقافة الانسانية العامة ، وفي النتائج المذهلة التي توصلوا اليها في العصور الوسطى · لقد تجاوزت العلوم العربية في « فترتها الذهبية » العلوم الاوروبية كثيرا · في تلك الفترة بالذات ابتكر العلماء العرب اعمالا تأسيسية في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والطب ، وهي اعمال غذت العلوم الاوروبية حتى القرن السادس عشر ·

لم يكن عصر النهضة قد خيم على اوروبا بعد ، بينما كانت ثقافة اللغة العربية في الشرق . خلال القرون الوسطى ، قد قدمت للعالم مجموعة هائلة من الموسوعيين . الذين كانوا ، في نفس الوقت ، فلاسفة وعلماء رياضيات ، وتاريخ . واطباء . وجغرافيين ، وشعراء · ان اعمال الفلاسفة والمؤرخين العرب – **المعري** . **ابن خلدون** . **ابن رشد** – تشكل قاعدة صلبة لدراسة التطورات العالمية · كرس العلماء العرب انفسهم لعلم اللغة ، ولخلق قواميس متعددة الاجزاء . مبرزين ومحافظين ، في ذات الوقت ، على اللغة العربية في صفائها الكلاسيكي . والتي اصبحت مع نهاية القرن الماضي ، بالنسبة للشرق الاسلامي ، بمثابة اللغة اللاتينية بالنسبة لاوروبا ، – لغة الدين ، الديبلوماسية ، الحقوق العلوم والثقافة · كتب **احمد بن الاندلسي** اول موسوعة في العالم ، من مائة جزء · وواحدة تلو الاخرى ظهرت اشهر روائع الفن المعماري الموريتاني · ويترك الشعراء الذين يتمتعون باحترام كبير بين رجالات الثقافة العربية ارثا غنيا بشكل غير عادي · لقد ورثت اوروبا الكثير من عناصر الادب الاسلامي العربي في القرون الوسطى : ان مواضيع القصص العربية قد غذت اعمال الكتاب الاسبان والايطاليين (ومنهم بوكاتشيو) . الاشعار الرومانسية حول الحب ، والاخلاص ، وامجاد الابطال البدو . كانت اساسا لكثير من القصص الفرنسية وروايات الفرسان في العصور الوسطى (على الاقل « **اوكاسين ونيكوليت** » او « **فلوار وبلانشيفلير** ») وادت الاخبار التاريخية العربية ، المسماة الرواية الغرناطية ، الى انشاء الرواية التاريخية الاوروبية، والخ· الا نلاحظ ، في مثل هذه الحالة، تطورا عكسيا – « تقريبا » من نوع خاص للعالم الاوروبي ، يسكت عنه باستحياء علماء ومؤرخوا اوروبا ؟ وايضا ، الا يصرح المثل المنتشر في الغرب (الضوء من الشرق) عن الاعتراف العام بانجازات الشرق العربي الثقافية ؟ حتى ان الشاعر والفيلسوف الايطالي **رايموند لوللي** (القرن الثالث عشر – بداية القرن الرابع عشر) كتب : « لا شيء عند اللاتينيين يستحق الذكر ، وما عندهم اخذوه من الشعوب الاخرى · وبشكل خاص من المسلمين » ·

Digitized by Birzeit University Library

قبل القرن التاسع عشر ، اي قبـــل الفترة التي لقبت ، في تاريخ الادب ، بالفترة « العربية الجديدة » ، كان ادب الاقطار العربية قـد قطع طريقا طويلا ، وتشكلت مراحله : حالة المخاض – المرحلة العربيـــة القديمة (قبل الاسلام) المرحلة الاموية – القرنين السابع والثامن ، عندما بدأت الثقافية العربية تغشني بفضل انجـــازات الشعوب التي دخلت ضمـن دولة الخلافـــة – اليونانيون الايرانيون ، الاقبـــاط ، البربر ، اليهود ، سكان افريقيا الاستوائية ، ما وراء القفقاز ، اسيا الوسطى ، الهند ، فالمرحلة الكلاسيكية – القرنين الثامن والتاسع، ومرحلة ما بعد الكلاسيكية – من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر ، ومرحلة الانحطاط – من القـــرن السادس عشر حتى الثامن عشر · فهل كان بالامكان ، ضمن هذه التقاليد التي تمتد على اتساع عـــدة قرون وضمن ذلـــك الاساس التاريخي الراسخ ، ان يكون الفن المسرحي العربي غير فعال ، ولا يملك امكانية للحياة ، على الاقل من خلال عناصره الاولية ؟ على اي تخلف او عـــدم نضج عند الشعوب العربية ، يمكن الاستناد ؟

ان تاريخ الثقافة العربية ، في الحقيقة ، يضع امامنا لغـــزا اضافيا : لماذا العلماء والفلاسفة العرب ، الذين اصبحوا ، الى حـــد كبير ، مكملين لقضيـــة اسلافهم العظماء – قدامى اليونانيين ، قد تجاهلوا بطريقة غريبة الدرامية عنـد **اسخيل وسوفوكليس ايفريبيد** · بل واكثر من ذلك ، لماذا عنـد ترجمة اعمـــال **ارسطو** الجمالية الى اللغة العربية والتي اعتمد عليها من حيث الجوهـــر ، كل مسرح اوروبا الغربية اللاحق ، تم ، عـــن قصد ، حذف الفصول المكرسة لفن المسرح ؟ والآن توجد محاولات لايجـــاد تفسير نفسي لذلك · ويتوضح ان تلك المقاطع في كتاب « **الشعر** » ، التي جرى فيهـا الحديث عـــن فن المسرح لم تكن ملغاة ، بل هي فهمت بشكل غير صحيح ، وترجمت وفقا لذلك · ان علماء العالم الناطقين بالعربية قد فهموا من مفهوم « الحوارات الشعرية » فقط المقطع الثاني – « الشعرية » · واما في ترجمات « **الشعر** » (ومـن بين المترجمين كانت هناك اسماء عربيـــة كبيرة مثـــل **الفارابي** ، **ابن سينا** ، **وابن رشد**) ، فان المصطلح الدرامي « كوميديا » استبدل بمصطلح شعري اكثر اقترابا من الثقافة العربيـــة « الهجاء » ، بينما مصطلح « تراجيديا » ترجم « المدح » · اما النصوص الدرامية نفسها ، فهي لم تبعث على الاهتمام ، لان العرب ، اذ نسبوها الى مجال الشعر ، فضلوا ،بنوع من الكبرياء الابداع الاصلي ، الذي بلغوا فيه الذروة ·

اما الرأي الثاني ، الذي يسعى لشرح استحالة وجود المسرح في العـالم العربي ، فهو يستند الى نمط الحياة الرعوي للسكان ، في الوقت الـذي يتطلب

Digitized by Birzeit University Library

فيه الفن المسرحي متفـــرجا متحضرا · ويؤيد هـــذا الرأي ، مثلا ، المسرحي المصري **زكي طليمات** ، الذي يعتبر ان البـدو مؤهلين للتمتع بالعدسة السحرية ايضا ، التي انتشرت في عصر العباسيين (٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م) ، بينما الفن المسرحي من الصعب عليهم بلوغه · ولكن بالذات ، في عصر العباسيين كانت مدينة « الف ليلة وليلة » ، مدينة بغداد الاسطورية عاصمة لدول الخلفاء الجبارة · وحتى قبل ذلك ، في فترة خلافة **الموافي** (القـــرن السابع) ، وفي ذروة الاسلام ،ازدهرت دمشق الرائعة ، بينما في القرن الثامن اصبحت بيروت الساحلية مدينـــة كبيرة ذات ثقافة متطورة جدا ، ومليئة بالعديد من المؤسسات العلمية · يمكن ان نستمر طويلا في هذا السجل المجيد · وتدخل فيه ، ايضا ، حلب ، **التي** سماها الشاعر والمؤرخ الفرنسي **الفونس لامارتين** « اثينا آسيا » ، وكذلك الاسكندرية مركـــز الثقافة القديمة ، والقاهرة التي عمرها عشرات المئات من السنين ، اكبر مدينة في افريقيا المعاصرة ، ـ المدينة ، التي قالت عنها **شهرزاد** نفسها : « الذي لم يـر القاهرة لم ير العالم » · او المراكز القديمة للثقافة الاسلامية في تونس والمغرب ـ مدينة تونس، التي قدمت للعالم ، في فترة السلالة الحافظية ، **ابن خلدون** العظيم، الذي سبق كثيرا انجازات اوروبا الثقافية والعلمية ، او مدينة فاس المغربيـــة بجامعة القرويين الشهيرة ، التي اسست في القرن التاسع · كان يمـــكن للفن المسرحي ان يزدهر منذ زمن في جميع هذه المدن العربية ·

Digitized by Birzeit University Library

استفتاء
حول المعرض العالمي من اجل فلسطين

في ٢١ اذار ١٩٧٨ افتتح **المعرض العالمي عن اجل فلسطين** ، في قاعة **السوسول** ، بالجامعة العربية · ضم المعرض ما يقارب مائتي لوحة ومنحوتة ، لفنانين من احدى وثلاثين دولة، بينهم عدد كبير من مشاهير الفنانين في العالم (**ميرو ، ماتا ، كوتوزو، بينيون ، فازارلي وغيرهم**) · هذا اضافة الى الطابع المميز للمعرض ، حيث شارك حشد كبير من الفنانين الذين يعبرون عن قضايا التحرر والصراع ضد كل اشكال القهر والاضطهاد في العالم ·

لن نلجأ ، في هذا المقال ، الى تقييم اللوحات ومدلولاتها ، بل سنكتفي بتقديم نتائج الاستفتاء ، الذي اجاب عليه ١٥١ مشاهد، هم عينة لبعض مشاهدي المعرض، في ثلاثة ايام ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ اذار ١٩٧٨ · وسنكتفي بملاحظات ، وتعليقات، واستنتاجات اولية ·

جرت العادة في كل مرة تقام فيها المعارض ، الفردية او الجماعية، ايا كانت غاية هذه المعارض ، ان تتحدث الصحف والمجلات عبر نقادها · وفي افضل الاحوال تناقش مثل هذه المعارض في ندوات ، مفتوحة او مغلقة ، تستطلع فيها الاراء من قبل جمهور يضم النخبة من المثقفين والمهتمين ، وقلما تجد بين هؤلاء اناسا عاديين · هذا برغم الحديث الدائر منذ سنوات طويلة في اروقة الفنانين ، عن الفن الجماهيري وكيفية ايصال اللوحة الى المشاهد ، واستخدام العمل الفني كوسيلة تحريض ·

لذلك قمنا باستفتاء المشاهدين في كل ما يتعلق بالمعرض ، من خلال الاسئلة المبينة هنا ، وانا لا ادعي ان هذا الاستفتاء غطى كل ما نريده ، ولكنه يلقي بعض الضوء على حقيقة العلاقة بين الفنان والمشاهد ، وعلى الجانب المتعلق بهذا النشاط ، في حدود ما تم حتى الان ·

ـ الاستمارة المطروحة كانت كالتالي:

س: هل تزور المعارض عادة ؟

س: ما هو دافعك لزيارة هذا المعرض ؟

س: ما هي الاعمال التي اعجبت بها (اسم اللوحة ، وصاحبها) ؟

Digitized by Birzeit University Library

س: **ما هو الانطباع الذي كونته عن المعرض بشكل عام ؟**

س: **ما هي مقترحاتكم لنشاطات مشابهة؟**

س: **ما اهمية هذا النشاط في خدمة القضية ؟**

س: **ملاحظات اخرى**

المهنة : **العمر :**

التحصيل العلمي : **الجنسية :**

الجنس :

تاريخ زيارة المعرض :

الاجابات كانت كالاتي :

هل تزور المعارض عادة ؟

خمسة واربعون ، من اصل مائة وواحد وخمسين ، قالوا (نعم) .

★ ٣٣ منهم تتراوح اعمارهم بين (١٦ ـ ٢٦) ، وواحد (١٤) سنة والباقون من (٢٨ ـ ٣٥) سنة .

★ (٣٠) منهم طلاب مدارس وجامعات . (١٥) مهن مختلفة (فنانون ، موظفون، متفرغون للعمل السياسي او العسكري وتاجر واحد) .

★ (٣٨) ذكور و (٧) اناث .

★ (١١) جنسيتهم لبنانية ، و(٢٣) فلسطينيون ، و (٥) اردنيون ، و(٤) سوريون ، وواحد عراقي ، وآخر سعودي .

سبعة وسبعون قالوا : (احيانا) .

★ (٧٢) منهم تتراوح اعمارهم ما بين (١٦ ـ ٢٦) سنة . وخمسة منهم اعمارهم (٣٠)، (٣١)، (٣٢)، (٣٥)، (٤٥) سنة .

★ (٥٩) منهم طلاب .

★ (١٨) موظفون ، او مقاتلون ، او عمال .

★ (٥١) ذكور و(١٦) اناث .

★ (٤٠) جنسيتهم لبنانية ، و(٢٨) فلسطينيون ، و(٥) اردنيون وواحد سوري ، و(٣) قالوا ان جنسيتهم عربية .

تسعة وعشرون قالوا : (كلا) .

★ خمسة وعشرون منهم تتراوح اعمارهم ما بين (١٦ ـ ٢٦) سنة ، واربعة اعمارهم (٢٧) ، (٢٨) ، (٣٤) ، (٣٥) سنة .

★ (٢٢) منهم طلاب .

★ (٧) موظفون ، او مقاتلون ، او عمال .

★ (٢١) ذكور و(٨) اناث .

★ (١٤) جنسيتهم لبنانية ، و(١١) فلسطينيون ، وثلاثة اردنيون ، و(١) جزائري .

ما هو دافعك لزيارة هذا المعرض ؟

★ **مائة وعشرة** ، من اصل مائة وواحد وخمسين ، قالوا : ان دافعهم لزيارة المعرض لانه **(من اجل فلسطين) و(للاطلاع على اهتمام فناني العالم بالقضية الفلسطينية)** ، وكيف ينعكس على انتاجهم) ، ولانهم يفضلون زيارة المعارض الملتزمة وخاصة ما يتعلق منها بفلسطين.

اقوال اخرى :

– (لا عجب في ذلك **فانا فلسطيني**) اعيش في الوطن المحتل ، وذكرني هذا المعرض بمعارض كثيرة في غرف السجون حيث تحولت الجدران كلها الى لوحات فنية فلسطينية ، ترنو الى المستقبل المنشود) .

– **(لاطلع على قتلة الشعب الفلسطيني)** ووجوههم القبيحة ، وازيد حقدي عليهم) .

– **(اندفاع وطني ، اكثر مما هو فني)** .

– **(انني مقتنع بالثورة)**

★ (٤١) قالوا انهم زاروا المعرض لانهم من **هواة الفن** ، او لانه يتعلق بمهنتهم

Digitized by Birzeit University Library

ودراستهم (بعضهم زاره بسبب وجود بعض اللوحات الهندسية) · **والآخرون بالصدفة او لحب الاستطلاع ·**

ما هي الاعمال التي اعجبت بها ؟ (اسم اللوحة وصاحبها)

١ ـ **مارك قبريش** (طائر الموت) ٣٥ ·

١ ـ **اسماعيل شموط** (تل الزعتر) ٣٥ ·

١ ـ **كلود لازار** (الحياة اليومية في الارض المحتلة) ٣٥ ·

٤ ـ **محمد غني** (فدائي) ٣٠ ·

٥ـ **جيمس ديورات** (من اجل فلسطين) ٢٨ ·

٦ ـ **فلاديمير تماري** (غرفة الاعتقال في سجن المسكوبية في القدس) ١٩ ·

٧ـ **عارف الريس** (استشهاد وبعث) ١٧·

٨ ـ **ابراهيم غنام** (معصرة الزيتون) ١٦

٨ـ جميع اللوحات ١٦·

٨ ـ **خزيمة علواني** (تل الزعتر) ١٦

١١ـ **سميرة بدران** (التماسيح) ١٥·

١٢ ـ **مايو سامونا** (شمس من اجل الرفاق) ١٤·

١٣ ـ **سليمان منصور** (فلسطين) ١٢·

١٣ ـ **لطفي قاسم** (انتظار) ١٢ ·

١٥ ـ **اوجين بالاد** (الدفاع عن حدود الوطن) ١٠ ·

١٦ ـ **كاظم حيدر** (تل الزعتر) ٩·

١٦ ـ **ارنست بينيون** (مداخلة في نيس لاعتبار المدينة توأم لمدينة (كيب تاون) عاصمة التفرقة العنصرية) ٩·

١٨ ـ **صباح فخري** (تل الزعتر) ٧·

١٩ـ **سعيد مخلوف** (دون كيشوت) ٦·

١٩ـ **جوليو لوبارك** (تنغيم د· س· ٥١) ٦·

٢٠ـ **جمانة الحسيني** (القدس) ، **سيتا مانوكيان** (المدينة الصفراء) ، **جوزيه بالمس** (طريق النصر) ، **برهان كركوتلي** (الثورة الفلسطينية)، **ميساك** (شغب)، **موسى طيبا** (الانسان والشمس) ، **نذير اسماعيل** (حصار تل الزعتر) ، **سوزان حجاب** (التعذيب) ، **جانيت قون براون** (جريمة صهيونية في اول تشرين ١٩٧٢ قتل وائل زعيتر بالرصاص، بينما كان يدخل شقته في روما) · وكل منهم حاز على (٥) اصوات ·

(٣) قالوا انهم معجبون بجميع الاعمال التي موضوعها تل الزعتر ·

ما هو الانطباع الذي كونته عن المعرض بشكل عام ؟

مائة وثلاثة وثلاثون قالوا انهم يودون ان **يتكرر هذا النشاط سنويا** ، وان تقام مثل هذه المعارض في بلدان عربية ، وفي العالم كما اقترح ان تنتقل هذه المعارض الى المخيمات والاحياء الشعبية لوحظ كذلك ، **قلة المنحوتات** ، وطلب عرض غنائم الثورة من مخلفات جيش العدو · اقترح **تشجيع الهواة** واقامة معارض لهم، اضافة الى **معارض للاطفال** ، وهناك من طالب **بلوحات او مجسمات عن العمليات الفدائية** البطولية في الوطن المحتل ، وبخروج هذه الاعمال الى الشارع ، وثمة اقتراح بعمل **مسابقات للفنانين** ، لاعمال يكون موضوعها القضية الفلسطينية · واقترح ، ايضا ، عمل **فيلم سينمائي عن المعرض ·**

اقترح ان تقدم **معلومات عن الاعمال المعروضة** ، وخاصة اعمال الفنانين الاجانب ·

لاحظ احدهم ان هناك عددا كبيرا من الاعمال تصور المآسي الفلسطينية ،وتساءل **لماذا لاتكون هناك اعمال تسجل الانتصارات**، ايضا · وطالب اخر بأن تكون هناك

Digitized by Birzeit University Library

رسومات عن المظاهرات في غزة والضفة الغربية وعن المناضلين في سجون العدو.

كذلك طلب **اقامة معارض رسوم وصور لتخليد شهدائنا الكبار** (كمال جنبلاط ،عبد الناصر ، كمال عدوان ، كمال ناصر ، غسان كنفاني ، ابو يوسف النجـــار وغيرهم .) احدهم طالب (بنشرالعادات الفلسطينية ، لكي نحول دون اندثارها) . وطالب آخر بأن ترافق المعـارض **ندوات للفنانين** المشاركين ، تناقش فيها الاعمال المعروضة ، مما يساعد على فهمها . طلب ايضا ، (**انشاء مركز لتعليم الفنون** ، لان الفن لا ينفصل عن حمل البندقية) . ثم (اقامة **معارض اخرى للتحف** ،والاواني والادوات ، والالبسة المستعملة فـــي فلسطين) . وان يرافق مثل هذه المعارض نشاط اعلامي اكبر .

اقترح ان تقـــام ، بالاضافة الى هذا النوع من المعارض،**معارض اخرى مقتصرة على اعمال عن فلسطين** .

فدائي قال : ان بعـــض الاعمال المعروضة تـــدل على أن البندقية التي **نحملها تقف خلفها حضـــارة ، وليس ارهاب وتخريب وتقتيل** .

اقترح ، ايضا (اقامة **معارض تبيـن خيرات بلادنا** ، ومناطقهـــا ، بالصور وبالرسم) و (الاهتمام بعـــرض اعمال للفنانين الفلسطينيين الذين غابوا عـــن المعرض) .

الباقون ، وعددهم ثمانية عشر ، لـــم يجيبوا ، او لم تكن لديهم مقترحات .

ما هي اهمية هذا النشاط في خدمـــة القضية ؟

كثيرون ربطوا بين هذا النشاط وبين الكفاح المسلح، واعتبر هاديـــا وداعما للثورة ، ومدللا على الجوانب الحضارية للشعب العربي الفلسطيني . ويساهم في تعريف العالم بقضيتنا ، ويزيدنا اصرارا على مواصلة كفاحنا ، **وخاصة** ونحن نرى التفاف العالم ، عبر فنانيه ، حول قضيتنا العادلة ، وهذا يلفـــت انتباه العالم الى قضيتنـــا ، **ويوسع دائـــرة** المساندين والمتعاطفين معها ، خاصة وان الفن لغة عالمية يفهمها الجميع .

اقوال اخرى :

★ **انه يثبت الوجه الحضاري والتقدمي للثورة** ، عكس مـــا تبثه الدعاية الصهيونية من اننا شعب بـــلا مقومات حضارية .

★ ان هذا النشاط يعطي فكرة واضحة عن **رأي الشعوب المختلفة في القضية العادلة** ، لذلك يمكن اعتبار هذا النشاط **نصرا معنويا** .

★ (١١) لم يجيبوا .

و (٢) قالا بمحدودية الخدمـــة التي يقدمها مثل هذا النشاط .

ملاحظات اخرى :

اثنين طالبا بطباعة (بوست كارت) للاعمال الموجودة .

وآخرين طالبا بوضع موسيقى فلسطينية في المعرض .

قال احدهـــم : ذكرني هذا المعرض بالمعارض الموجودة والمخفية على جدران السجون في الوطن المحتل .

وقال آخر : علينا ان نحـــاول **اجتذاب فنانين عالميين** على نطاق اوسع .

ثالث طالب بالاهتمام بالحركة داخل المعرض ، والتوجيه ، وتركيب اللوحات (مهندس معماري) .

قيل في اجابات سابقـة ، وشكر للقائمين على المعرض ، والمشاركين فيه ، وتمنى اقامة « مثل هـــذه المعـارض على ارضنا الحبيبة فلسطين **وفي عاصمتها القدس** »

Digitized by Birzeit University Library

ملاحظات واستنتاجات :

اول ما أود ان الفت الانتباه اليه هو روح المسؤولية العالية التي اجاب بها المشاهدون على هذا الاستفتاء · مما اتاح لنا فرصة التعرف والاستفادة من الآراء التي جاءت ، بمجموعها ، هاديا ومعلما لكل من يريد ان يتعلم من الناس ويسترشد بارائهم ، بعيدا عن النزعات الفردية في العمل · فقد رسمت هذه العينة طريقا واضحا لعمل مثمر وبناء · وحتى لا نتوقف عند الكثير من التفاصيل، التي اعتقد انها جاءت واضحة بما فيه الكفاية ، اود ان اناقش الاجابات التي جاءت ردا على السؤال : ما هي الاعمال التي اعجبت بها؟ فهذه تستحق اكثر من مناقشة سريعة واستقراء فردي ·

١ ـ ان الاعمال المنتخبة والحائزة على اكثر الاصوات هي قطعا الاعمال التي تحمل مضمونا مباشرا وتصويرا مباشرا ايضا (واقعي) · لوحة **كلود لازار** مثلا (الحياة اليومية في الارض المحتلة) صورت بما يعرف بالواقعية الحديثة التي هي اشبه بالتصوير الفوتوغرافي · في نفس الوقت الذي تتضح فيه الحركة القائمة على العلاقة المطروحة ، بشكل مباشر ، بين فتاتين من الارض المحتلة تقفان ، بتحد وصلابة ، امام جندي الاحتلال الذي يشهر سلاحه · يضاف الى هذا كله تفاصيل اخرى تخدم هذا الجانب ، مثل القبضة التي تدل ، بالاضافة الى العينين، على التحدي والصلابة ·

ولن اقول هنا ان الامكانات التقنية في معالجة اللوحة لعبت دورا هاما ، لان احد الاعمال الذي يفتقد لمثل هذه المعالجة كان من بين الاعمال الاولى التي انتخبت ضمن الاعمال المفضلة · وهذا ما سنعود اليه في مكان آخر ·

٢ ـ الفنانون الاجانب الذين رسموا بشروط النقطة الاولى كان لهم اولوية واضحة بسبب (عقدة الغربي !) هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان الشهرة التي يحظى بها بعض الفنانين في اوساط الجماهير ساهمت بشكل واضح بتقديم نتاجهم على الآخرين ، كما عند **اسماعيل شموط وعارف الريس** · وهذا بتوفر الشرط الاول ايضا · ذلك ان هذه الاعمال قد تقف في مرتبة اقل بجانب اعمال اخرى اذا ما اخضعت لشروط النقد السائدة ·

٣ ـ الاعمال (الستاتيكية) البعيدة عن الحركة والصراع و (الميلودراما) ظلت اقل اثارة للاهتمام برغم وجود عناوين مباشرة ، كما هي الحال مع لوحة **سليمان منصور** (فلسطين) ، من المدرسة الكلاسيكية الحديثة ، وتصور فتاة ترمز الى فلسطين تحمل البرتقال وخلفيتها نساء يقطفن البرتقال ، يغلب عليها الطابع الشاعري الرومانسي ·

بينما جاءت بمرتبة متقدمة لوحة **سميرة بدران** (التماسيح) اي بعنوانها غير المباشر ، ولكن مع وضوح الحركة داخل اللوحة ، حيث يحاول كل من التماسيح التهام الاخر ، بينما يقف حصانان بعيدان على خط الافق وتشاهد في مقدمة المنظر بقايا خراب ودمار واعمدة خشبية ملفوفة بقماش ابيض وحبال وثمة جذع آدمي مضمن ومثقل باشياء غريبة ·

٤ ـ هنالك مسميات او صفات حفرت عميقا في الذاكرة الفلسطينية ، غربة ، انتظار، من خلف الاسلاك ··· هذه العناوين برغم تغير المرحلة التي تعبر عنها الا ان لها حضورا سجل نفسه في استفتائنا ، من خلال لوحة **لطفي القاسم** (انتظار) ، والتي يمكن ان يتناولها النقاد ، من الناحية الفنية ، بطريقة مختلفة قد تصل الى التجريح احيانا ·

٥ ـ **المعاناة اليومية ، وهموم المشاهد، وذكرياته ، وكل ما يتصل به من القضايا الكبيرة ، تحتل حيزا كبيرا ،**

Digitized by Birzeit University Library

ايضا · وهـذا يظهر في لوحة **فلاديمير تماري** التي قـد لا تكـون بالنسبة له اكثر من (سكتش) لذكرى جمعته مـع هموم شعبنا بينما لن تلاقي تجاربه الاخرى المتقدمة ، على الرغم من اهميتها ، نفس درجة الاهتمام في مثل هذا الاستفتاء ·

٦ ـ **العناوين ، وحدها ، كانت كافية** احيانا لجذب الانتباه والاصوات ، كما في لوحة **مايو سامونا** (شمس من اجـل الرفاق) · اللوحة شمس برتقالية كبيرة وازرق · واعتقد اننا لو قمنا بلعبـة بسيطة بأن نسمي اللوحة (شمس في يوم ما) ، مثلا ، لانخفضت اصـوات هذه اللوحة ·

هذه بعض الملاحظات الاولية ، والتي تعيد طرح السؤال ، مرة اخرى ، حول العلاقة بين الفنـان الملتزم والناس · وبالطبع مع الاخذ بعين الاعتبار سلبيات وايجابيات ما هو قائم حتى الآن · اذ ان الاجابات حول الاعمال المفضلة تضمنـت ذوقا متدنيا ، في الكثير من الاحيـان ، والذي لا بد من البحث عـن مسبباته ، وطرق حلها · فمن حق الناس الاعجاب بالاعمال التي تعبر ، بوضوح ومباشرة ، عن معاناتهم · ولكنا سنبحث ، ايضا ، عن المسؤول لرفع السوية الثقافية الفنية لدى جمهورنا ، الذي لا يزال بعيدا عـن هذه الثقافة · اي كيف نقدم للناس ونشاركهم معاناتهم ، التي من المفترض انها معاناتنا ايضا ، في نفس الوقت الذي نستخدم فيه كل الامكانات الفنية والثقافية ، مستفيدين من كل التجارب الانسانية ، كما يطرح عادة · اذ بدون ذلك سيظل الفنان وخبرته وتجاربه في موقع لا تطاله ايدي الناس ، وبذلك يظل هذا الفنان بعيدا عن امكانية الفعل والتأثير والتحريض ·

وهذا بالطبع يحتاج الى الكثير مـن النقاش والاغناء من قبل من يهمهم الامر· صحيح ان كثيرا من فناننا يعبرون بصدق ومسؤولية ، مسجلين مشاعرهم ومعرفتهم وخبرتهم ، ولكن يظل كل ذلك في دائرة لا تتسع لاكثر من النخبة مـن المهتمين وابناء المهنة · وصحيح . ايضـا ، ان قراءة العمل الفني ليست مسؤولية الفنان وحده · اذ لا بد من التقاء مساهمـات عديدة في هذا المجال · نيرودا شـاعر الشعب ولكنه شاعر الحـزب ، ايضا · شعراء الارض المحتلة حملوا شجون الناس ومعاناتهم والتقوا معهم في همومهم ولكن قدمتهم الثورة ايضا · للفن التشكيلي حديث آخر فهو لم يدخل بعد حيز الاهتمام لدى الاحزاب والتنظيمات والحركات في بلادنا الا بقدر ضئيل ، كثيرا مـا شكى البعض من تكريس نماذج مـن المفترض ان يكون قد مضى اوانها ، منذ زمن بعيد ولـم تمضـي · وحتـى لا نـذهب بعيـدا ، ولكـي نضـع يـدنا على الجرح ، لا بد من برمجة محاولـة الخروج من هذا المأزق · ومرة اخرى لا ادعي تقديم الدواء القاطع المبلسم انما اخدم وجهة نظـر فقـط · فأنا ارى ان مسؤولية الفنانين تدارس هذا الامر لتهيئة انفسهم واعمالهم لتكون قريبة لعيـون الناس وعقولهم ، وهذا باعتقادي لا يمنع استخدام احدث التقنيات والمفاهيـم المتعلقة بالشكل والاطار الذي تقدم بـه اللوحة · هذا ليس سهلا ابدا ، بل يجب ان نكون واضحين ، كما هي الامـور واضحـة بالنسبة لما يتعلق بجمهورنا ، هكذا ببساطة وبدون مكابرة ·

النقطة التالية هي البحث في امكانية رص الصفوف، والعمل من خلال مجموعات تستطيع ان تغني نفسها من الداخل ومن الخارج ، مما يسهـل عملية الايصال ونشر الثقافة والاعمال الفنية البديلـة ، وبالتالي رفد هذا العمـل بمساهمات اعلامية وسياسية لتنشر على اوسع نطاق· هذا دون الدخول في التفاصيل المتعلقة

Digitized by Birzeit University Library

بالمهنة ، مع اعتقادي بأهميتها البالغة · فنحن نعرف انه مع ظهور عصر البرجوازية والرأسمالية تحولت اللوحة الى سلعة كما هي الاجناس الادبية والفنية الاخرى وبذلك اخضع الفنان للاطر التي قدمتها البرجوازية فيما يتصل بعمله ونتاجه ابتداء بطريقة العرض وانتهاء بالاشكال والمواصفات المحددة لتكون اللوحة مستوفية لشروط السلعة · اقول مع اهمية هذه المسألة والمسائل الاخرى التي لا بد من وضع حلول بديلة ، لكي تتم عملية الفرز المتكاملة في الانتاج والانتماء عند الفنانين ·

وفي ما يتعلق بموضوعنا الاساسي ، ضيف انه كما هو ضروري لرفع سوية المعرفة الثقافية والسياسية ، لا بد من الالمام بالقراءة والكتابة ، على اقل تقدير ، فلا بد من وجود ابجدية اولية لقراءة العمل الفني · لذلك يجب الاهتمام بنشر الثقافة الفنية لتكون مرافقة لمشاهدة الاعمال الفنية ، اذ بدون ذلك ستظل امكانية العلاقة وتطورها بين الفنان وجمهوره محدودة جدا ·

في الختام اود القول بأن الاستفتاء والملاحظات والاستنتاجات هي مادة اولية مطروحة للنقاش والبحث ، آملا ان يكون لها بعض الفائدة ·

ناصر السومي

مجلة **الكاتب الفلسطيني**

وجميع منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تطلب في بعلبك من : **مكتبة الاحمر**

Digitized by Birzeit University Library

« الحصاد » مبادرة جديدة في اطار النشاطات المشبوهة في الضفه الغربية

في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وجه رئيس حكومة العدو الاسبق **بن غوريون** ، نداء الى سكان الضفة الغربية ، يدعوهم فيه لاختيار « ممثلين » عنهم ، من اجل اقامة « ادارة ذاتية » في الاراضي العربية المحتلة . وشكلت هذه الدعوة المبكرة ، وما تلاها من دعوات اخرى ، اطلقها قادة الكيان الصهيوني ، الذين تعاقبوا على السلطة ، حافزا امام نفر من الشخصيات المعروفة بولائها للحكم الهاشمي ، ومهادنتها للاحتلال . في ذات الوقت ، فارتفعت ، خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية ، عدة اصوات ، معلنة استعدادها للتحرك في اطار بلورة « قيادة محلية »، تتسلم زمام الامور الادارية والمدنية ـ شكليا ـ في الاراضي العربية المحتلة ، بما ينسجم مع الاحتلال ومخططاته .

ومنذ حرب حزيران ١٩٦٧ . وحتى الان ، والعدو الصهيوني ، يتبنى سياسة واضحة في هذا المجال ، تقوم على اساس رعاية وتشجيع الوجوه العميلة . لبلورة « ممثلية » فلسطينية محلية، بديلة **لمنظمة التحرير الفلسطينية.**

فاتاح العدو الصهيوني المجال ، امام عدد من الشخصيات المشبوهة ، للتعبير عن آرائها بشكل علني ، ووجدت السلطات ان مجال الصحافة ، هو من اهم المجالات واكثرها تأثيرا ، لنشر آراء هذه القلة بين سكان الضفة الغربية .

من هذا المنطلق ، ظهرت في رعاية الاحتلال وتشجيعه الصحف ، والمجلات والدراسات المشبوهة . ونذكر في هذا المجال ، الكتب المتعددة التي نشرها **محمد ابو شلباية** ، وهي « لا سلام بدون دولة فلسطينية حرة » ، « واحسرتاه يا قدس » ، « الطريق الى الحرية » و « الخلاص . والسلام » .

اما على صعيد الصحف ، فقد ظهرت خلال الفترة الماضية ، عدة صحف ومجلات مشبوهة ، منها ما توقف ، ومنها ما زال قائما ، ومن هذه الصحف، صحيفة « **البشير** » لصاحبها **ابراهيم حنضل** والتي صدرت في السنة ١٩٧١ ، وتوقفت نهائيا سنة ١٩٧٥ ، وصحيفة « **صوت الجماهير** » **لمحمد ابو شلباية** ، وهذه صدرت سنة ١٩٧٣ وتوقفت بعد صدور عشرة اعداد منها ، نتيجة اخفاق اصحابها في تحقيق الهدف الرئيسي من انشائها ، وهو تجميع اكبر عدد من المؤيدين للصحيفة ، ولخطها السياسي . حيث طرح **ابو شلباية** اسم الصحيفة في الاسواق ليتمكن اهالي الضفة من المساهمة فيها بما يشعرهم بأن هذه الصحيفة هي صحيفتهم

Digitized by Birzeit University Library

ويعملون على تشجيعها ، وعلى ترويج الاراء التي تطرحها . كما ان هناك عدد غير قليل من الصحف والمجلات التي صدرت ، وتوقفت ، بفصل مقاطعة الجماهير لها .

ومع مطلع العام الجديد ١٩٧٩ ظهرت في الضفة الغربية ، محاولة جديدة ، بطلها المحامي **حسين الشيوخي** ، حيث اصدر مجلة في القدس المحتلة ، حملت اسم « **الحصاد** » .

■ من هو الشيوخي ؟

ظهر اسم المحامي **حسين الشيوخي** ، في السنوات الثلاث الاخيرة ، عندما كثر الحديث ، عن امكانية مشاركة «ممثلين» عن المناطق المحتلة ، في اية مفاوضات قادمة ، وعلى الرغم من ان **الشيوخي** بدأ نشاطه المشبوه منذ عام ١٩٧٣ ، الا ان هذا النشاط لم يأخذ اي طابع علني الا في اواخر عام ١٩٧٦ ، حين بدأ نشاطه المعادي **لمنظمة التحرير الفلسطينية**، بشكل خاص ، وللخط الوطني بشكل عام . وتجسد هذا النشاط في مساعيه لعقد اجتماع عام في الضفة الغربية ، يضم الشخصيات المرتبطة بالحكم الهاشمي ، وبالاحتلال الصهيوني في آن .

اضافة الى ان **الشيوخي** اطلق جملة من التصريحات العلنية ، يطالب فيها اهالي المناطق المحتلة بأن يختاروا « قيادتهم » بأنفسهم ، وقام **الشيوخي** ومجموعته بتوزيع بيان في بعض مدن وقرى الضفة ، تعرض فيه الى م.ت.ف. وطالب بالغاء تمثيلها للشعب الفلسطيني، ووقع البيان باسم « **جبهة القوى الفلسطينية الموحدة** » .

وآزر **الشيوخي** ، في تحركه هذا ، وزير الشؤون الاجتماعية الاردني السابق **مصطفى دودين** ، وعضو البرلمان الاردني ، **عبد الرؤوف الفارسي** ، وعدد من الشخصيات المعروفة بعمالتها ، امثال الصحافي **محمد ناصرية ، وعبد الوهاب زاهدة** ، وغيرهما .

وعلى الرغم من تشجيع سلطات الحكم العسكري لمبادرة **الشيوخي** ، فان هذه المبادرة لم تلق النجاح نتيجة وعي جماهيرنا في الداخل ، عندما اضطر **الشيوخي** الى التراجع عن ارائه ـ بصورة مؤقتة ـ واعلن مجبرا بأن **منظمة التحرير الفلسطينية** ، هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

ونتيجة هذا التراجع ، تبين ان الذين يمسكون خيوط مبادرة **الشيوخي** القابعين في عمان وفي تل ابيب، ارادوا استخدام سياسيين من الدرجة الثانية (امثال **الشيوخي**) ، وذلك لاختبار ردود فعل اهالي الاراضي العربية المحتلة من جهة ، ولتمهيد الطريق امام موجات من النشاطات المشابهة في المستقبل من جهة ثانية ، خاصة وان في الضفة الغربية وقطاع غزة من هم اكثر كفاءة من **الشيوخي** ، الا ان ساعة شروعهم في العمل ، لم تأت بعد .

ومنذ ان تراجع **الشيوخي** عن ارائه في شهر اب (اغسطس) ١٩٧٧ وحتى ساعة اصداره للمجلة الجديدة ، لم يصدر عنه اي تصريح علني ضد **منظمة التحرير الفلسطينية** ، ويبدو ان اولي الامر ، اوعزوا له بالتريث والتوقف مؤقتا ، حتى تتوفر اجواء انسب وافضل للتحرك .

ومع مطلع العام الجديد ، طالعنا **الشيوخي** بخطوته الجديدة ، فاصدر « **الحصاد** » ، مجلة نصف شهرية .

Digitized by Birzeit University Library

وصدر العدد الاول منها ، يوم الاثنين ١-١-١٩٧٩ .

■ **ملاحظات اولية :**

لدى مطالعتنا للعددين الاولين ، يتضح لنا ان **الشيوخي** عمل كل جهده ليتجنب اثارة الريبة حول المجلة ، واهدافها ، فالمجلة ما زالت وليدة . لذلك ، لا داعي لان يقتلها في المهد ، وقبل ان تعطي ثمارها التي ينشد . وقد عرف **الشيوخي** مجلته بأنها « حصادا من شتى حقول الثقافة ، والفكر ، والادب ، والاجتماع ، والعلم ، والفن ... » (العدد الاول ، ص ٢) .

اما مواد المجلة ، فهي مستقاة بمعظمها ، من صحف العالم العربي ، ومجلاته ، ودوره هنا - كما يقول - هو القيام بعملية اختيار « مقالات واخبار ، ومناقشات ، واراء ، حتى يبقى القارىء على صلة بالعالم العربي ، وبما يدور فيه من نقاش فكري ، واجتماعي ، ويطلع على الافكار المتصارعة فيه .. » (العدد الاول ص ٢) .

اذن ، فالواجهة التي يختبىء وراءها **الشيوخي** ، هي الرغبة في ابقاء القارىء العربي في الاراضي المحتلة ، على صلة بما يجري في العالم العربي ، ولكننا نتساءل هنا ، ماذا تخفي عملية **الاختيار والانتقاء** ، التي يتحدث عنها **الشيوخي** ؟ وبالتالي ، ما هو الهدف الحقيقي الذي يقف وراء عملية الاختيار هذه ؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة ، تكمن في معرفتنا اولا لطبيعة الافكار التي يتبناها **الشيوخي** ، وثانيا فيما ستكشفه لنا الاعداد القادمة من المجلة .

■ **حول اسرة التحرير :**

لم يرد في كلا العددين ، اي اسم باستثناء اسم **حسين الشيوخي** ، كصاحب لامتياز المجلة . وفيما عدا ذلك فان كل الاسماء الواردة هي اسماء لكتاب عرب ، من خارج الارض المحتلة ، قام **الشيوخي** بنقل موضوعاتهم ، كما هي من صحف ومجلات عربية مختلفة ، ان بشأن « **اسرة التحرير** » فهناك عدة مواضيع ممهورة بتوقيع « اسرة التحرير » ، ومع ذلك ليست هناك اية اشارة لاسماء اعضاء « **اسرة التحرير** » هذه .

ونحن نتساءل ، هل هناك اسرة تحرير فعلا ؟ ام ان **الشيوخي** يخفي وراء هذه العبارة « امنية » في بلورة اسرة تحرير مستقبلية ؟!

فاذا كانت هناك اسرة تحرير ، لماذا لم يذكر **الشيوخي** اسماء اعضائها ؟ هل يخشى **الشيوخي** ان تحترق اسماء هذه الاسرة ، وبالتالي يكون قد وضع العراقيل امامها قبل ان تؤدي دورها ؟ ام ان اعضاء اسرة التحرير يخشون الكشف عن اسمائهم في الوقت الحالي ؟

ان عبارة « اسرة التحرير » بهذا الشكل تعني الاحتمالات التالية :

- ان الوقت لم يحن بعد للافصاح عن اسماء اسرة التحرير .
- ان المجلة ، هي من اعداد الاجهزة الصهيونية التي تقف وراء **الشيوخي** .
- ان هذه العبارة تخفي امنية لدى **الشيوخي** في تشكيل اسرة تحرير منسجمة مع ارائه وافكاره .
- او ان كل ما ذكر صحيح . وهذا هو الاحتمال الارجح ، فليس هناك اي تناقض بين هذه الاحتمالات . وذلك لان الامور التالية :

١ - **السماح باصدار مجلة جديدة :** فمسألة اصدار مجلة جديدة في الاراضي العربية المحتلة ، عملية صعبة ، بل تكاد تكون مستحيلة ، اذ ان الحكم العسكري عارض ، وما زال يعارض اعطاء تصاريح

Digitized by Birzeit University Library

باصدار صحف ومجلات جديدة ، وقد ذكرت صحف الارض المحتلة ، ان احد المواطنين العرب ، تقدم بدعوى الى المحكمة العليا يحتج فيها على ممانعة الحاكم العسكري من طلبه في اصدار مجلة جديدة ، في الوقت الذي يسمح فيه **للشيوخي** باصدار مجلة دون اية عقبات ..

ب ـ **تكاليف المجلة** : تطبع المجلة ، على نوعية جيدة من الورق ، وعدد صفحات العدد الاول ٧٤ صفحة ، بينما كانت صفحات العدد الثاني ٧٠ صفحة ، وتباع بـ (١٠) ليرات اسرائيلية (نحو ١٥٠ قرشا لبنانيا) ، وبذلك تكون الحصاد ، بالنسبة لحجمها ونوعية ورقها ، من اقل المجلات التي تصدر في فلسطين المحتلة ، ثمنا ...

ونحن نتساءل ، من اين يغطي **الشيوخي** تكاليف مجلته الباهظة ؟! ومن هي الجهة التي تقف وراءه ، وتسانده ، وتدعمه ماليا ؟! ثم لاي غرض تدعمه ؟!

ج ـ **مادة المجلة ، ومصادر المعلومات :** ان نظرة سريعة لمادة المجلة ، تؤكد لنا الخدمات الكبيرة التي تقدمها اجهزة الحكم العسكري **للشيوخي** ، ففي العددين الاولين ، اقتبس **الشيوخي** من عدد كبير من المجلات والصحف العربية ، نذكر منها : **الرأي** (الاردنية) ، **الدستور** (الاردنية) ، **الاخبار** (الاردنية) ، **اللواء** (الاردنية) ، **تشرين** (السورية) **السفير** (اللبنانية) ، **النهار والنهار العربي والدولي** ، **الانباء** (الكويتية) ، **القبس** (الكويتية) ، **الحرية** (اللبنانية) ، **الكفاح العربي** ، **السينما** (السورية) ، **فكر**(التونسية) ، **الدوحة** ، مجلة **الاسبوع العربي** ، **نشرة الصورة الفلسطينية** (الاعلام الموحد ـ مؤسسة السينما الفلسطينية) .

★★★

هذه هي بعض الصحف ، والمجلات التي اعتمد عليها **الشيوخي** في اصدار المجلة ، وجميع هذه الصحف الحديثة التاريخ ، والسؤال الان ، من اين يحصل **الشيوخي** على هذا الكم الكبير من الصحف ؟؟! وكيف تصله في الوقت الملائم ؟...

علما بأن الصحف العربية ، التي يسمح بها الحكم العسكري الصهيوني بدخولها الى الضفة الغربية ، عبر جسور الاردن ، وبالتنسيق مع الجهات الاردنية في اطار « تبادل الصحف اليومي » بين الطرفين ، محصورة في : الحسناء سوبرمان ، ميكي ، الموعد ، وبعض المجلات الاخرى التي لا شأن لها بالسياسة . اما بالنسبة للصحف الاردنية ، فان الحكم العسكري ، يسمح بدخولها ، وان كان لا يسمح بتداولها ، فهي مخصصة للاجهزة الصهيونية المختلفة .

وبعد ،

فان اسم **الشيوخي** ، كاف لاعطائنا فكرة عن طبيعة مجلته ، ونحن على يقين بأن مصير **الحصاد** لن يكون افضل من مصير **صوت الجماهير و البشير** . وكما سقطت هذه الصحف ، وسقط اصحابها، سيسقط **الشيوخي** ، وستكون مجلته حصادا لسقوطه .

وليد الجعفري

Digitized by Birzeit University Library

حينما أخطأوا بالاحتفال باليوبيل الفضي للغد .

ولدت مجلة **الغد** ثلاث مرات .

كانت المرة الاولى في نيسان (ابريل) ١٩٣٩ ، حين صدرت عن « **رابطة الطلبة العرب** » ، التجمع الطلابي اليساري في فلسطين ، والذي كان قد تشكل في العام ١٩٣٧ . وعرفنا من رموزه كلا من : **توفيق طوبي ، اميل توما ، عبد الله البندك ، عمانويل ابراهيم ، داود تززي، ونجلا بولس شحاده** . لكن السلطات الاستعمارية لاحقت الرابطة ومجلتها ، فعطلتهما ، بعد ان احست الخطر من النشاط الاجتماعي والثقافي للرابطة ، سواء من حملتها لمحو الامية ، او لحملتها من اجل مساعدة اليمين (١٩٣٨ ـ ١٩٣٩) .

وفي العام ١٩٤٤ كبر الطلبة ، وغدو مثقفين ، وخرجت الى الوجود « **رابطة المثقفين العرب** » ، وعن هذه الرابطة صدرت **الغد** ، من جديد ، (اب ١٩٤٤). وواطبت على الصدور حتى نكبة ١٩٤٨ ، تطل على قرائها اول ومنتصف كل شهر ميلادي ، لتشيع الثقافة الحرة التي « يتسع افقها لجميع الثقافات ، القديم منها والحديث ، الشرقي والغربي ، وهي التي تطلب العلم والمعرفة اينما وجدا ... وهي الثقافة التي تؤدي الى التقدم والازدهار ، وتقود البشرية نحو عالم حر ، يتساوى فيه الافراد بالحقوق والواجبات » ، على ما تقول الغد في افتتاحية اول عدد لها بعد صدورها الجديد .

وكان طبيعيا ان تتوقف مع النكبة .

لكن السواعد الفتية اعادت اصدارها في مطلع العام ١٩٥٤ ، من حيفا في الوطن المحتل ، منبرا للشبيبة الديمقراطية ، وشمعة تضيء مع مطلع كل شهر ميلادي، وتهل مع شقيقاتها ، **الاتحاد الجديد والدرب** ، ترسانة فكرية تقدمية في وجه الفكر الصهيوني العفن في الارض المحتلة .

وفي مطلع كانون الثاني (يناير) الماضي ، احتفل المناضلون التقدميون في فلسطين المحتلة باليوبيل الفضي **للغد** . مستقطين بذلك خمسة عشر عاما من النضال خاضتها **الغد** ، في استمرار متقطع وتقطع مستمر ، منذ ١٩٣٩ . ولا ندري ما اذا كان هذا الاهمال قد حدث سهوا ، ام من باب التواضع الثوري . ام هو تنازل لحساب المجهول ؟!

ولعل سر قوة **الغد** يكمن في دورها الكفاحي المتميز ، ورسالتها النبيلة تجاه الشباب الوطني في الوطن المحتل. حيث تمد هذا الشباب بالفكر التقدمي والمواقف الوطنية الديمقراطية تجاه مختلف القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، وتكشف للشباب جوهر وافاق الصراع الطبقي ، وتأخذ بيده نحو فلسطين المستقلة الديمقراطية.

وامتشق الشباب **الغد** ، سلاحا لا يثلم في وجه الصهيونية ، واساليبها اللئيمة ، ومؤامرتها الغادرة .

واصبحت **الغد** مع شقيقاتها المكافحات (**الاتحاد ، الجديد ، والدرب**) صوت القومية المضطهدة في الارض

Digitized by Birzeit University Library

المحتلة ، صوت العـــرب الفلسطينيين المتمسكين ـ بالاسنـــان والاظـــافر ـ بهويتهم القومية ، ولغتهم العربيـــة ، وتاريخهـم ، وارضهـــم ، وعزتهـــم ، وكرامتهم الوطنية ·

وفضحت **الغـد** ، ولا تـزال ، اشكال واساليب الارهـــاب والقهر القـــومي والتمييز العنصري التي تنتهجها سلطات الاحتلال الصهيوني ·

وحول **الغـد** التف شبابنـــا الوطني الديمقراطي في ارضنا المحتلة ·

واليوم يمكننـــا ان نهنىء **الغـد** ، ونهنىء انفسنا ، على مثابرة مجلتنـــا على صفح الاحتلال ، وصمودها كشجرة زيتون تضرب بجذورها في اعماق ترابنا الوطني ، صمودها في وجه بلطـــات الاحتلال الصهيوني البغيض ·

وتهنئة **للغـد** واسرة تحريرها وقرائها، بعد صمود اربعين عاما في وجه الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية والرجعية العربية ، معا ··· واملا في عمر مديد وكفاح لا يلين ، وصولا الى يوم يرفرف علمنـــا الفلسطيني عـــلى ربى فلسطين المستقلة الديمقراطية ·

عبد القادر ياسين

Digitized by Birzeit University Library

تهتم هذه الزاوية بالتعريف بالفنان الفلسطيني ، حياة وفنا وموقفا ، ضمن التسلسل التاريخي للفنانين الفلسطينيين المعاصرين ، دون التقييم النقدي لاعمالهم من وجهة تشكيلية .

« زهرة من عمان »

اسماعيل شموط

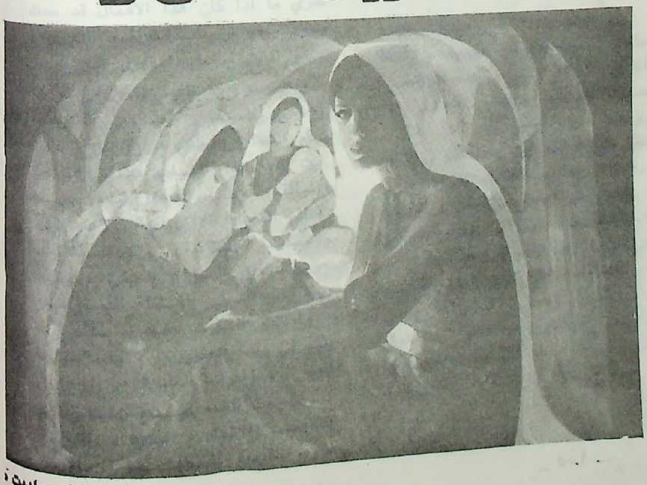

« ثلاث حوايين »

Digitized by Birzeit University Library

★★★

يحتل الفنان الفلسطيني **اسماعيل شموط** مكانة خاصة بين الفنانين الفلسطينيين ، فهو رائد الحركة التشكيلية الفلسطينية بالمعنى الاصطلاحي المعاصر للكلمة · فقبل **اسماعيل** لم نعرف تشكيليا على الاطلاق ، سوى بعض الفنانين التطبيقيين ، الذين درسوا الزخرفة والخط وما شابه · ان النشاط الفني المبكر والفعال **لاسماعيل** عزز موقع ريادته للحركة التشكيلية ، واسهم ، اسهاما فعالا ، في خلق موكب جديد من الفنانين الفلسطينيين ·

★★★

دخل الفن التشكيلي الى بعض اقطار الوطن العربي في وقت مبكر بالنسبة لفلسطين ، التي كانت تعيش ظروفا خاصة ، وقد جاء هذا الفن عبر رواده الذين درسوا في اوروبا الغربية ، حاملا معه ، في معظم الاحيان ، الاتجاهات المعاصره التي كانت تعبر ، هناك ، عن تفاقم ازمة الرأسمالية ، دون ان يكون للبنية المحلية، في ذلك الوقت ، اي تأثير يذكر ، فيما حملت اعمال الفنان **شموط** شكلا متحيزا، بدا اكثر التصاقا بالواقع ، وقد يكون ذلك نتيجة الحاح الظروف القاسية التي عانى منها شعبنا ، بعد نكبة عام ١٩٤٨ · وساهم ذلك ، بدون شك في تأجيل الدور الطليعي للفن التشكيلي ، مما اتاح الفرصة لمن جاءوا بعده ، للدخول من باب واسع · وهذا ما جعلنا نسقط من حسابنا اي تحفظ تشكيلي ، نظرا لاهمية ودقة الظرف التاريخي الذي عبر عنه الفنان · صحيح ان **اسماعيل** لم يبتعد كثيرا ، عن بداياته اذا ما قيس الزمن بالنسبة لحجم التصور الفني ، ولكن يمكن القول ، في كل الاحوال ، انه لم يتراجع الى الوراء ، بل اضاف ـ نسبيا ـ اضافات اعطت بعدا متقدما لفنه ولعمله · والآن لنتساءل ، من هو **اسماعيل شموط** هذا ·

ولد **اسماعيل** في مدينة **اللد** الفلسطينية ، عام ١٩٣٠ ، اي اثناء تفاقم الوضع السياسي والاجتماعي نتيجة الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين ، من اب متوسطي الحال · فقد كان ابوه بائع خضروات بسيط ·

اظهر **اسماعيل** اهتماما مبكرا بالرسم والموسيقى وانواع الفنون الاخرى ولكن حلول النكبة ، عام ١٩٤٨ ، حول اهتمامه باتجاه آخر ، فقد وجد نفسه واسرته في مكان غريب موحش بعيدا عن بيته ، واصبح يأوي الى خيمة تظله مع عائلته ، مثل الكثيرين من ابناء الشعب الفلسطيني ، الذين اضطروا الى النزوح عن ديارهم · بل ، اكثر من ذلك ، كان لابد ان يترك كل شيء ليعمل في بيع حلوى

Digitized by Birzeit University Library

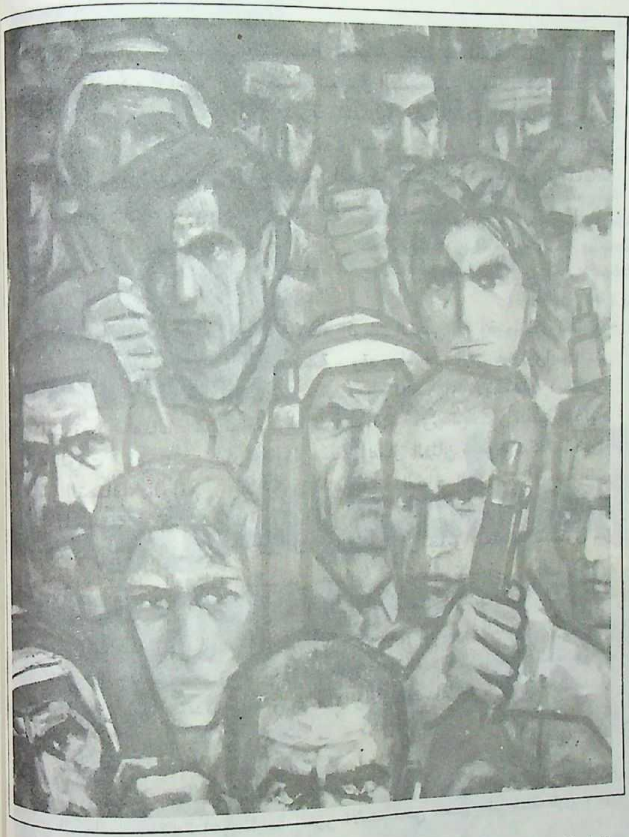

« الطريق »

عام ١٩٦٥ عاود الفلسطينيون نشاطهم المسلح ، فكان ذلك تعبيرا حقيقيا عن ارادة وطموحات الشعب الذي عرف طريقة الصحيح الى الخلاص . ولوحة **الطريق** كشفت هذا الشعور الجماهيري ، الذي سبق الانطلاقة بسنة مما يؤكد دور الفن الطليعي ، وقدرته على استشفاف امال وطموحات الشعب .

Digitized by Birzeit University Library

مـع اخية ، لكي يسدوا رمقهم وعائلتهم ، في ظل غياب فـرص التعليم والعمل والحياة · ولكن ماليثت ان جاءت فرصته ، مجددا ، عندما اصبح مدرسا في ملاك **وكالة غـوث اللاجئين** ، استطاع بعدها ان يتابع طموحاته فـذهب لمتابعة دراسته في مجال الفنون في القاهرة ، عام ١٩٥٠ ·

ولكن هموم **اسماعيل** لم تنته عند هذا الحد ، فقد برز له نوع آخـر مـن المشاكل ذلك ان غالبية الطلبة هم من ابناء الطبقات الموسرة ،التي تهتم بالجماليات وشفافية الحياة ، فيما هو لا يستطيع الابتعاد عن مطاة مـا يعانيه هـو وشعبه وهما هو يقول : « كنت احس دائما ان في دخيلتي الكثير من آثار النكبه ، وكان علي ان اقوله · كنت اريد ان اصرخ بأعلى صوتي » وصرخ **اسماعيل** فعلا بأعلى صوته ، ورسم لوحته « **اللاجئه الصغيره** » (١٩٥١ ـ ١٩٥٢) ثم « **اين ابي ؟** » و « **الى اين ؟** » · بعدها اقام معرضه الاول في غزة عام ١٩٥٣ ، وكان المعرض الاول الذي يقام لفنان فلسطيني في فلسطين · كما أتاح هذا المعرض **لاسماعيـل** انيتعرف الى نفسه ، والى جدوى عملـــه ، وتأثيره على جمهور تلـــك الحقبة التاريخية · التي أخذ بعدها فرصة أخرى عندما ذهب للدراسة في روما ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ ، فاضاف الكثير الى ثروته الفنية ، وتعرف ، عـن قرب ، الـى فنانين احبهم ، مثل **غويا** ، **ورمبرانت** ، **وفان غوخ** ، بل اعجب بشخصياتهم · مما ترك تأثيره الواضح في اعمال الفنان اللاحقة ·

مبتعدا ، بذلك ، عن النزعـات والاتجاهات الفنيـــة الحديثة ، التي غزت ايطاليا والعديد من الدول الاوروبية · وتمسك برموزه الحميمة ، فجعل من صلب المسيح ومعاناته موضوعا ورمزا لحياة شعبه وآلامه · في نفس الوقت الذي لـم يحرم فيه نفسه ولوحته من معالجة معاصرة ، في حدود مجال لعب دور ايجابي لخدمة المضمون في اللوحة ·

في عام ١٩٥٦ بدأ اسماعيل، في روما ، برسم لوحته **ذكريات ونار** ، والتي تعتبر واحدة من الاعمال التي شكلت منهجا وطريقا لاعمال الفنان ورؤياه · وبعد هذه الحقبة بقليل شهد **اسماعيل** ، مع شعبه وامته ، تقلبات سياسية واجتماعيـة مختلفة ، تركت وشما باقيا في جملة الأعمال التي انتجها ، منذ تلك الفترة وحتى الان · فقد كان يسارع النبض ويشتد التوتر على اثر النكبات المتلاحقة (١٩٥٦، ١٩٦٧ ، السموع ، مجازر ايلول ، مذبحة تل الزعتر) · وفي كل هذه الاحوال خرج اسماعيل عن المألوف ، وسيطر عليه توتر واضح ، اخذ فيه الانفعال مكانه

Digitized by Birzeit University Library

على حساب المعالجة التشكيلية ، الا ان تسجيليته المنفعلة هذه ما تلبث ان تختفي ، ليعود الانسان والتفاصيل والحياة والأمل ، من جديد ·

اختار **اسماعيل** نفسه ليكون معبرا من خلال لوحته عن واقع شعبه وامته ، واضعا بذلك اطارا محددا لنفسه وعمله · الا انه استطاع ، فعلا ، عبر هـــذا السياج ، ان يشير كل مرة ، مؤكدا دور مدرسة كان يصعب الانتماء اليها ، في ذلك الحين · وبذلك استحق ان يكون رائدا لجيل من الفنانين الفلسطينيين ·

ن·س·

« ثلاث حواديت »

(١٩٧٠) ، زيتية ، ١٠٠ × ٧٠ ، من مقتنيات الدكتور **ناظر بيروت** · في هذه اللوحة يظهر تأثير مرحلة عصر النهضة وانسيابية **بوتشللي** بوجه خاص ، ضمن محاولة واضحـــة لتأصيل فعل اللوحة ومردودهـــا ، تشكيليا وجماهيريا ، وذلك بواقعية الشكل ورمزية المضمون ، ثم بالاقتراب، تشكيليا ، من مفاهيم استقرت لدى عدد من الفنانين العرب عن ادخال قيم تراثية الى العمـــل الفني تظهر هنـــا في الاقواس والشفافيات وانسياب الخطوط ·

« زهرة من عمان »

(١٩٧١) زيتية ، ١٠٠ × ٧٠ سم ، من مقتنيات **بسادا** ، فرنسا · اللوحة واحدة من الاعمال التي خرج فيها الفنان عن المألوف ، وظهر فيها قوة التوتر والانفعال بالموضوع ، كمـــا في اعمال اخرى رسمت في مناسبات مشابهة ·

Digitized by Birzeit University Library

شعر

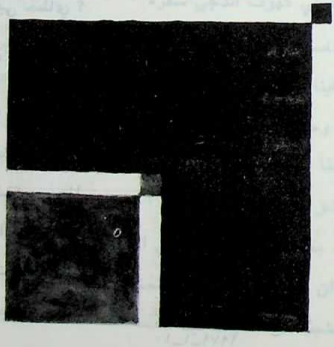

Digitized by Birzeit University Library

قصائد

خالد علي مصطفى*

١ ـ تعب

دخلت فيك طفـــلا ،

خرجت منك كهـــلا ،

ولم تمر غير لحظة . فمن يعيرني عصاي

من قبل أن تميد بي خطاي ؟

١٩٧٣

٢ ـ زيارة قصيرة

نحن لم نحفظ من الليل سوى

آية صغرى ، وترتيل حصاة

فافتحي الباب وشدي روحنا

بأسارير الندى والحشرجات :

كنت ضيفا لم يبت ليلته

حين القى سره فينا ، ومات !

١٠ـ١ـ١٩٧٩

---

* ولد اواخر سنة ١٩٣٩ .

- في عين غزال (فلسطين) .
- صدر له : موتي على لائحة الانتظار ، ١٩٦٩ .
- سفر بين الينابيع ، ١٩٧٢ .
- البصرة ـ حيفا ١٩٧٥ .

وستصدر له مجموعة قريبا .

Digitized by Birzeit University Library

٣ ـ موت الطفل الفلسطيني

الى احمد مصطفى ، الاب

كان يعرف أن الطريق الى الشجرة
يستدير الى منزل موحش ،
فأراح على ظهره صرة الزاد ثم مضى
تاركا خلفه شبحا عالقا بالستائر والأوجه العكره ٠
كان يعرف أن الرياح تشل خطاه ، وتلقيه في بركة
تتدلى الغصون عليها بلا ثمر ،
فاستجار بعينيه كي تمنحاه بلا منة ثمره ،
ومضى عاشقا في كهوف الدجى سفره ٠

أيها الراحل المستغيث بأهدابه
كنت تكشف فينا خرائب ممتدة
بين أعراسنا ومسيل دمانا ،
وتعيد لأرواحنا بعض أسمالها ،
فبأي دليل نشق بهذا الفضاء خطانا ؟
وبمن نتعلل ، بعدك ، حين نزاحم في العربة
بعضنا دون ان نتكلم او نبتسم او تنحني الرقبه ؟
كنت تفضح شيئا من الخوف فينا
حين تكشف أوراق لعبتك الخاسرة ،
لم نكن غير سر بدا لحظة
واختفى أبدا في ارتعاشات أنملك الضامره !
أنت اغريتنا أن نسائل فاتحة السفر عن خاتمه ،
أن نرى البحر في كوز ماء ،

Digitized by Birzeit University Library

أن نلم عرى الارض في قطرة من ماء ،
غير أن الشفاه التي سقطت في الهواء
بحثت في وصاياك عن قبل أنهكتها أساريرنا الآثمه
دون ان تدرك البحر ،
أو تمسك الأرض ،
او تبلغ الخاتمة !

١٩٧٨

٤ ـ وصية الطفل الفلسطيني

الى احمد مصطفى ، مرة ثانية

اوقد التل ناره ، ثم وافانا
مع الليل موكب من جياع
هيء هناء البيت ياأبي ، هيء الزاد ،
وهيء ضماد كل ذراع ،
فعلى اوجه الضيوف غبار
ناسج في الجفون سر الوداع ،
وخطايا توزعت في الشرايين
وسنت شريعة من ضياع .
وليكن في المرحبين ادلاء
يفضون ختم كل شعاع ،
ثم طوف بين الجموع وحدث
شيخهم كيف مر طير البقاع ،
واستمع منه كيف ماد على الارض
دماء بزوغ كل شراع .

Digitized by Birzeit University Library

قد تمطي لوح الجنون على الاكتاف ،
مستنفرين كهف الضباع ،
وتساقوا مع الرعاة كؤوسا
شاحبات ... لكنهم دون راع .
هاهم يهبطون ، شاخصة ابصارهم ،
يبطلون سحر الافاعي
فافتدي ، ياأبي ، قوافلهم
بالماء والنار عن ساح الصراع
تفتح القاع عن نبيين غابوا
كي يشقوا الصخور في كل قاع
وارقص ، الآن ، يا أبي رقصة
السيف ولوح بنصله الملتاع ،
وأطلقي ، يا أمي ، الزغاريد جهرا
ثم « هاهي » امام كل الجياع .

١٩٧٨

٥ ـ لوحة شتائية

ينتشر الجليد فوق أسطح البيوت ،
ويمنح الضباب كل منزل عباءة وقبعة .
الناس في الشوارع الرطبة يسرعون ،
تمتصهم روائح الحديد في الصباح ،
تعصرهم مداخل البارات في المساء .
بين الصباح والمساء ينزوي الضباب في الطرق ،
ويلتوي على الجذوع والغصون لاعقا

Digitized by Birzeit University Library

آخر ورقة بذيله الطويل ·

أطلقت الأشجار في أغصانها صفارة الشتاء ،

والناس يختفون في الصبح ؛ ويسمعون – في البارات – بالضياء ·

الصبح خلف النافذة ،

يغسل بالجليد والضباب

ساقيه ، ثم يستريح فوق اسطح البيوت مغلق الاهداب·

ومن شقوق النافذة

تنسرب الرياح بغتة الى الغرف

تمسح عن جدرانها دفء الأسرة القديمه ،

وتصبغ المرايا

بارجل مقطوعة وأعين من الخزف ·

وحين تصبح الرياح في اسار كل مدفأه

تنزع عنها جلدها ،

وترشف النيران في لهف !

تنفجر الرؤوس حتى قبل أن تجلس خلف المنضده ،

وقبل أن تنغمر الأقدام في مكيفات الضوء والهواء ·

هنا العيون لا ترى الألوان والأطفال والنساء

ولا تريح ضوءها الا متى ينطلق الحراس في المساء ·

الثلج والضباب يرقدان تحت كل معطف ،

يرافقان الروح في صعودها من السرير ،

ويصحبان الروح في هبوطها الى السرير ،

تاكلت اقدامها من القيام والجلوس والمسير

Digitized by Birzeit University Library

ولا تريد غير ان تدفن تحت الاغطية

أسمالها ،

وترتضي في الحلم أي أمنية !

بخارست ٥_١٢_١٩٧٧

٦ ـ مشهد سينمائي

للظلمة عشرة ابواب

تفتحها عشر أصابع ٠

تمتد أصابعك الخمس ،

وتمتد أصابعي الخمس ،

ونمتد معا في الظلمه ٠

تتلامس في البدء أصابعنا ،

تتقاطع ، ثم يعانق بعض بعضا ،

فاذا الكفان تصولان بغيض من نور أسود ،

تشتبكان وتلتويان ،

تحترقان وتغتسلان

بمياه النار المجهوله ـ

حين تضيء القاعة تفترقان !

هل نقدر أن ندخل في القاعة من دون حقائب ؟

لم تبق الظلمة بين أصابعنا أي طريق لم نحفظها ،

فلماذا ندخل ثم نغادر من باب واحدة ؟

ونشيع زحمة وجهينا في الباب ؟

لم نقرأ في الظلمة غير كتابينا

Digitized by Birzeit University Library

ثم صحونا في ضوء القاعة من غير كتاب ٠

قيل بان الطرقات اعتصمت بأصابعنا ،

وصواها غرقت بدمانا ،

قيل بأن الافق التف على ارجلنا –

صارت نزهتنا أن نسجن أعيننا في كفينا

ونكلم أغصانا من دون ثمار

غافلنا النهر وأغلق في وجهينا التيار

ومحا الضوء لنا كل الأسرار

وانتهت الرقصة قبل هبوط الأستار ٠

١٩٧٧

٧ ـ حالات خاصة لعاشق فلسطيني

١

أنت لم تستطع أن تقول لها كلمة واحدة ،

غير أنك أسكنت قلبك في غرفة باردة ،

ومضيت تقلي الأصابع عن قطرة من أصابعها ٠

أنت تذكر انك اخفضت عينيك ثم مضيت

قانعا بالوجوه التي عبرتك الى المهرجان :

كانت الشمس تغرب فيك ، وتبزغ في قطرة من دخان ،

وبقيت تحدق وحدك في اللافتـــات وفي العربات وفي

أوجه العابرين ٠

أهو خوف السنين التي طمرتك في قعرها ؟

أم هي الريح تأتي وتذهب ساخرة ؟

انك الآن ميت ، ولم يبق الا الفتات على المائدة ٠

Digitized by Birzeit University Library

قلت : على غدا قادم بمسراته ،
غير أنك لا تملك الآن الا ارتعاشات غرفتك الباردة ،
وصحائف مهملة ،
وانتظاراتك البائدة !

٢٨ـ٨ـ١٩٧٨

٢

قلت : اورثنا الليل بعض الذي نشتهي :
الخطى تتقافز بين الطريق وصوت الشجر ،
والأغاني تخيم في شفتيها ، وتوقظ فيك الطفولة ،
غير أن الصباح أزاح عن الصدر أشواقه وذهوله ٠
جمدت في الشفاه التحية ، وارتد عنك البصر ،
عبرتك الحبيبة خطفا ، كأن لم تبعثر شفاهكما الحب في
الليلة الماضية ٠
كيف سولت للنفس أن تشتهي غير دمعتك الباقية ؟
أنت منذ الصباح بلا مسند او رفيق ،
خذ طريقا الى الباب واهرب ، لعل زحام الطريق
يتشعب في مقلتيك ، ويرمي عليك سيوله !
غير أنك لا تستطيع سوى ان ترى وجهها ،
طافرا فوق كل الوجوه يشق اليك سبيله ٠
حين تنفض رأســـك ، يسقط من شفتيك الصراخ بـلا
ضجة او دموع ـ
تلك أيامك الباقيات تقول بانك تسكن بيتا بغير شموع

٣٠ـ٨ـ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

٣

في الطريق الى جبل التجربة

كنت مستيقظا ،

وتحاور وجه التي علمتك الصعود الى منزل الحب بعد الأوان ·

كنت كالطفل في مقلتيها ، وكان الزمان

يتلعثم مستسلما بين وجهيكما ·

أنت لم تنتبه لمرور الفصول ولم تنتبه لانتهاء القطاف ،

كنت مستغرقا في ينابيعها وهي تغسل عنـــك السنين العجاف ،

كنت تشرب من وجهها يقظة الروح ، تحلم بالبحر دون الضفاف ،

أنت تحلم ؟ ماذا حملت لها غير احلامك الخاسرة ؟

غير وجه توزع بين المنافي ، وصفرت الريح في شمسه العـاثرة ؟

كنت مستيقظا ··· تشتهي أن يطيل الرحيل رحيله ،

وتحاور وجه التي علمتك الطفولة ـ

غير أن الصحارى تطاردك الآن في القلب والشفتين ،

وتفصل أعلامها من ثيابك ،

فدع الموج للموج ، واحفظ لوجهك سوط عذابك !

٣١ـ٨ـ١٩٧٨

٤

يمر بك الاصدقاء القدامى ،

تمر الوجوه التي ضاحكتك على كأسك العاشرة ،

وكانوا لدمعك خير الندامى ـ

Digitized by Birzeit University Library

يمرون ... لم يلتفت احد . انكروك وانكرت اشواطك العاثره ،

وها أنت وحـــدك ليس سوى الريـــح تعبث بالثوب والخاصره .

تقول بان الشوارع مرمية

أمامك ، خلفك ... فاتخذ الآن منها رصيف العزاء

وحدق بأبواب كل البيوت

لعلك تسمع صوتا يعيد الى الذاكره

وجوه الذين اضاعوك في المدن الماكره !

فكيف ارتضيت لنفسك ان تستريح على ضفة النهر من دون ماء

وكيف خسرت مع الليل وجهك حتى

أضاعتك أسماء كل الشوارع ، كل الدماء ؟

وها أنت وحـدك تسمع في غمغمات المصابيح هـوت النهار ،

فدع كل سر لأحزانه ، واستند ـ قبل أن يختفي ـ فوق هذا الجـــدار !

٢ـ٩ـ١٩٧٨

٥

يصادفني مرة عابر في الطريق ،

ويوقفني صائحا : « أين أهرقت أعوامك الفائرة » ؟

وكيف احتفلت بآخر محبوبة ، أيهذا الصديق ؟ »

فأبهت في وجهه ذاهلا ،

وارتد أبحث عن وجهه بين أسماء من عبروا الذاكره ،

فأفطن أن السكاكين لم تبق في جسدي أي وشم قديم .

Digitized by Birzeit University Library

تراني نسيت الوجوه التي ساجلتني بأسرارها ،
وأسريت في الليل مدرعا كل سجن ومقهى وبار ؟
فكيف التقينا على ضجة من زحام النهار ؟
ـ « أتذكر ؟ ... »
ـ « لا اذكر الآن شيئا
سوى أنني أسترد لذاكرتي حلما مستعار ! »
ويتركني غائبا في زحام النهار ،
فأسند رأسي على راحتي
أصلي لدمعي ، واسمع فيه صفير القطار !

٤ـ٩ـ١٩٧٨

٦

دخل الغصن نافذة العربه ،
قلت : « هذا لنا ! »
فاستوى حلم طائر بين اوجهنا التعبة ،
وارتدى من بريق العيون خفايا الصعود الى الهضبه .
كيف غافلنا الغصن ثم اختفى ،
وتناثر فوق الرصيف مع الريح بعد الوصول ؟
نحن جئنا مع الشمس حين افتتحنا طريق الرحيل ،
ورجعنا مع الليل حين اختنقنا بأصواتنا الشاحبه .
كنت مثلك في غربة العشق أيتها الراهبة ،
انقرى بعينيك اسرار وجهي ،
غير أن الحقول أفاءت علينا مواسمها الناضبة ،
فرجعنا الى الريح نسأل أين انتهى الغصن بعد الجفاف ؟

Digitized by Birzeit University Library

لم نقل عنه شيئا سوى أننا
قد تعبنا من الذهر قبل اقتراب الضفاف !

٢٢-٩-١٩٧٨

٨ ـ عرس ليس فلسطينيا

لم يقل أحد عنك شيئا ،
غير أني سمعت الشفاه تتمتم عن حفلة في المساء
ملأتها المزامير بالنور والأذرع العارية
وهي تلتف حول الشموع وتفتح أيامك الآتيه ·
كنت مجهولة الروح والوجه بين عيون النساء
ترفعين الثياب بكف عن الأرض ثم تسوين بالثانية
خصلات من الشعر مطوية تحت اكليلك المشتهى ·
وسمعت الشفاه تتمتم ان المسافة
ـ بين بوابة الحلم والغرفة التالية ـ
أثمرت في ممراتها سدرة المنتهى ،
غير أن بعينيك ما لا تراه العيون :
موجة اثر أخرى تدحرج سرا ، وتودعه في السجون ·
من وراء النوافذ مد بصيص مـــن الضوء عينيـــه بين الشقوق ،
راح يذظر كل الوجوه واصباغها في اختناق الزحام ،
ثم انهكه البرد من قبل ان يستدير الشروق ،
فتدثر فوق الرصيف ونام
حالما بالمياه الغريبة تغمر اردافه في حقول الظلام
فاتركي لحظة ضجة الحفل ثم انظري

Digitized by Birzeit University Library

من وراء الستائر آثار ضوء تدثر فوق الرصيف

علك الان تسترجعين بقية حلم تلوى ومات على زغردات الضيوف !

كيف أمضيت هذا النهار الطويل ؟

أرجعت الى حلم كان يخطر بين النخيل ورائحة الجلنار؟

أنا أعرف أنك موشومة بالردى والبحار ،

والدماء التي لوحت بالمناديل قبل الرحيل .

فانصبي بين كفيك جسرا تقوم على جانبيه القرى النائية،

فهنا ضفة يبدأ الحب منها ،

وهناك على الضفة الثانية

يرتدي الحب اردية الريح والموت كيما يشب على صهوة داميه ،

وانظري كيف ماد بك الجسر ثم اختفى

في ضجيج المزامير واللوحة الماضيه !

كان للموت في شفتيك طعم الرياح المضيئة

نضجت في دهباتها الارض والدم والسنديان ،

كيـــف اوصدت باب الريـــاح ، وأوغلت بين الدجى والدموع البريئه ؟

أنت منذ المساء تفرين من سطوة الروح أيتها الراهبه

وتلفين حول الأصابع خيط دخان ،

دون ان تلمحي في الوجوه سوى فرحة كاذبه .

أضربت الجدار بكف ، وصفعت الهواء بأخرى ؟

كان للدم رائحة البحر فوق الوشاح ،

كان للارض صارية من ضحايا ونافذة للرياح ،

Digitized by Birzeit University Library

غير أن الضجيج استدار اليك ولطخ عطر المشاوير في
الذاكره ٠
لم تكن مقلتاك تدوران حول الوجوه وأسرارها الماكره،
كنت تطوين بينها الارض والدم والسفر المستباح :
مقلة تلمح الضوء خلف الستائر خطفا ،
واخرى تغوص الى القلب منذورة للجراح !

★★★

هبط الليل ، وانفض عنك الضيوف
ومشى الصمت فوق المرايا ،
فادخلي الليل ، وانتبهي ،
قد تفر دموع تعانق ضوء تدثر فوق الرصيف !

١٠_١٢_١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

جبينك بوابتي للعبور

صالح هواري

يبدأ الرقص ....

من معطف الضوء يخرج سيف

ويبتدىء القنص

ذاك المغني على طرف الليل مشتبه بمواويله

بائع الورد ... ،

في شارع البرد ...

افعى تبدل قمصانها

في مناديله

يتدلى من السقف صوت وتبتدىء المسرحية ... ،

هذا الممثل ليس غريبا علي

وذاك الملقن خلف الستارة

Digitized by Birzeit University Library

جاري في الحي

لليوم ظلم ٠٠٠٠ وللظلم يرم ٠٠٠

ويدخل قلب العروبة في قلبه

يبحث الجرح عن قاتل خلف ليل الجناز يبكي

تصيح طيور الدماء فينكر ٠٠٠

لكنها الشمس تحصد ليل السراديب ٠٠٠٠ ،

تفضي الى الارض اسرارها

فيصير التراب لسانا ويحكي

فلسطين !!! لا تقفلي شرفة البحر ٠٠٠،

ان المجاذيف عابقة بالرحيل اليك

يضيء حواليك نهر المسافات ٠٠٠٠

لكن شيئا غريبا يرف على شاشة البوصله

واعود لاهمس في اذنيك :

يمدون اسلاكهم حول عينيك ٠٠٠

كوني على مستوى الحلم ٠٠٠٠

أعرف انك بعد الرحيل شبابيب عن الطوق

منذ نعومة احزانك المشتهاة

رضعت من البرق

ان يديك مدربتان على فك اقفال هذا الزمان ٠٠٠٠

Digitized by Birzeit University Library

ولكنني بين هذا الضباب المخيف اخاف عليك
هو الطقس ارجوحة الاحتمالات ....
قد لا تؤاتي الرياح .... ولكن موجك صار اشتعالا
وصرت حبيبة كل الطيور التي علقوها
على باب بيروت
مدي على الموت صدرك ....،
عيناك زنبقتان من النار
من غضبة الزعتر الجبلي لآخر عصفورة
ما حنت رأسها تحت شمس الجليل
اطلي كما اشتعل الماء في ثوب صفصافة عاشقه
شمس اطفالك الطالعين من الموت مشكولة بالبنادق
احلامهم في قميص الندى قمر للسلام ....،
واشواقهم تحت سقف الردى
عبوة حارقه
قلت لا تفرحي بانفجار الغناء على خشبة الليل
ان مزامير هذا الزمان
تهرب الحانها في صحون البكاء المدمى
عن الشمس ردوك كي يفتكوا بالعصافير
هذا زمان به يشمت النهر من ضفتيه

Digitized by Birzeit University Library

ويشرب كأس احتراق الفصول
مشينا على جرحنا
اوهمونا بعقم الغيوم
ولكننا نبذر القمح حتى تفور
دماء الحقول

★★★

هي الساعة الآن كم ؟؟ أبرق البحر لي يا دوالي الخليل !!!
كهوف بقلبي الذبيح اشتهت قمرا
ونخيل بصدري الجريح اشتهى قطرا
فاهطلي ·· واهطلي ·· واهطلي
اتشهاك قطرة نار بها
افتح المستحيل
سأهدم وجه الزمان وآتي اليك
وان سرق الوقت وقتي ····
ولم يتسلق دمي ضفتيك
سأغرس وجهي على نهر عينيك
··· ابكي ··· وابكي ·· وابكي
وحسبي بأن اقطف الريح من راحتيك

Digitized by Birzeit University Library

والعب بالعشب فوق الضفاف
واصغي الى وردة الحب في شفتيك
وامسك بالماء

قبل اندلاع الجفاف
تعودت ان اهزم الليل فيك
جبينك بوابتي للعبور

Digitized by Birzeit University Library

دمي قارب .... وتعودت ان اهزم الليل فيك
اعود من الموت تسقط مني المفاتيح
ارجع ... يفتح طير النهار مظلته
وعلى جبهتي تركض الريح
لكنهم كلما حفروا خندقا حول النهار
ربطت شرايين قلبي بجذع النهار
زمان به يصعد الساقطون على سلم الوقت
لكنهم يسقطون
نهار لنا ... ولهم الف ليل ارمد العين
عرافة الماء قالت : تجف البساتين من اهلها
ومن العشب ينهض سيف
ولا ينتهي الصيد
ياوطن الصيد في الطين ....
قتل العصافير تحت رداء النعاس عزيز وغال
هو الموت ...
اقسى من الموت خوف يطارده الخوف
هل يرجع الطائر الجاهلي
يعود الى غمده سيف قابيل
نحن المصابين بالنفي ليس لدينا خيار :

Digitized by Birzeit University Library

انقفل بوابة النفي بالموت
ام ننحني لرماح القبيلة
ـ نهر المصابيح من اين يشرب ؟؟
ـ من جرحنا
ـ وعلى اي رمح يفور ؟؟
ـ على رمحنا
ـ والى اي بحر يسير ؟
ـ إلى صبحنا
.....يسقط الصاعدون على خندق الضوء
لكنهم يصعدون
وينهض وجهك من عتمة الموت سيفا
عليه يفور دوم الشمس .
تلتحم اللد بالقدس
يعطي النهار مفاتيحه للفدائي
كل الصغار الذين احتميت بهم لحظة القصف تحت
سيوف الردي
ينشدون :
فلسطين ياكعبة الانبياء ويا املا في دمانا اضاء
ترابك دين بأعنا قنا سنوفيه ، ولتشهدي ياسماء

Digitized by Birzeit University Library

مواسم الهجرة

محمد صبري كنفتو

هذه القصيده مهداة الى

N. B.

سيدتي ...

في موسم هجرتنا الاولى .. كنا اطفالا لا نعرف ماذا تعني الهجرة

فانتزعتنا الهجرة من حبات القمح

ولم تقوى الريح على ايقاف الموجة .. صار الوطن المعبود وراء الاطفال

وكان الكرمل صمتا يقهر

يرقب من عينية الواسعتين المرتحلين ويعلم

« ان الليل سيأتي ويزول الليل »

سنين سيأتي ويزول الليل واذكر اني

شاهدت بعينيه نجوم سماء الوطن المترامي الاطراف

Digitized by Birzeit University Library

واقسم اني ما كنت اعرف ماذا يعني الوطن بذاك
الزمن
ولكني كنت العـالم بالحب ومازالت تعزف فـي قلبي
الموسيقى
سيدتي ...
ان شئت سأتلو بعضا من صلواتي بـــدءا من موسم
هجرتي الثاني
خلفت الشام
وكانت ريح الشام تعانق ابوابي ... تقرعها
لكني لم افتح الا نافذتي لتقبلني .. الريـح وتمضي
ثم تجي
ملتني الغربة .. وتداعت من ذاكرتي اسماء صحابي
اعترف بأني اختزن جراحي منذ هجرتك
ما بحت بها الا لرمال الصحراء
لفحتني انفاس الربع الخالي وشموس الواحات
الخضراء
وعرفت بأني لا اتقن لغة البدو
فعدت اليك مليئا بالجوع الانساني
وكان التاريخ ورائي

Digitized by Birzeit University Library

كانت داحس والغبراء

★★★

من اين اجيئك
اصعد حلبتك واقسم اني منتصر لابد
واشرب ذهب القاصي والداني
منك وعنك
واغسل وجهي اذ اشرب من برداك زلالا
واغني اغنية الفقراء
يا شام لو اني كنت اميرا
لحملتك في قصري سيدة تغتسلين بعطر الهند
ويهرع حولك خدم واماء
لأقمت الحد على من يلمح وجهك من تحت خمار
او يترصد موكبك وراء خباء
سيدتي ...
عفوك ان كنت تجاوزت حدودي كي اوهمك بأني العاشق
وانا لست العاشق ... اني الراوي
ارغب ان اروي لك شيئا عن قطع من هذا العالم
اتلو صلواتي

Digitized by Birzeit University Library

الهجرة لا تعرف ماذا يعني القلب ...
وما اكثر هجراتي
الا اني العالم بالقلب .. وبالحب
وهذا صدري يحمل اثار شفاه ويدين
الهجرة لا تعرف وطنا ... قد تعرف تاريخا
ماذا يعني تاريخ لا يجمعه وطن
سيدتي ...
انت فلسطيني احيانا
تسقط من ذاكرتي الاسماء
وتبقين زمانا

★★★

سيدتي ...
اتلو الان حكاية موسم هجرتي التالي
في عصر لا اعرف شيئا عنه
سوى اني احياه وحيدا مثل الظل لطير منفرد في الصحراء
خلفت الشام وكانت بيروت على اعتاب العام الواحد والسبعين
كانت بيروت عروسا في حلتها البيضاء

Digitized by Birzeit University Library

وكان البحر الابيض موجا يتسامى حتى الافق
ويهوى فأرى من خلف رذاذ الموج فلسطين ·
هذا وطني ···
اذكر اني في العام السادس والستين
كنت السائح في وطني
منحوني تأشيرة زائر
فوصلت الى القدس
تجمعت كأني حبة رمل قادمة من سيناء
ما كنت العالم ان العام القادم يأتي الرمل الى بيت المقدس
من عمق الصحراء
ماكانت العالم ان حذاءا يحمل جنديا يتفيأ في ظل
الصخرة
« جيئا » وذهابا
يأتي العام القادم
ذنبي اني ما كنت العالم
سيدتي ··· عفوك ·· ماذا افعل ؟
اني اتحدث عن تاريخ يغفو في قلبي
فلماذا اوقظه وانت بقلبي
· عفوك اني لست العاشق

Digitized by Birzeit University Library

لكني اتقن لغة العشاق

فخذي وجهي بين يديك وقولي اني لست حبيبك

قولي اني الواهم

وهمي آت من وجع الغربة والوحدة والليل الغجري

سيدتي ...

يوميء لك وهمي ان تنتظري ...

فانتظري

في ذاكرتي تتداعى اصوات الباعة من خلف زقاق

وزقاق

المجد لمن غنى للفجر وباع رغيفا

Digitized by Birzeit University Library

وتفيأ في ظل جدار المسجد والسجن بعكا
وتلألأ في عينيه النجم ٠٠ وعاد الى الدار وكان
الاطفال
عيونا تكتنز الاشواق
رقدوا قبل مجيئك فانتظر الفجر الآتي
كي تمضي ٠٠٠ تحمل يسراك القنديل
وتحمل يمناك الخبز
كثر الباعة في سوق العتم
وسوق العتم طويل
سوق العتم طويل
ياعكا ٠٠ يارابضة فوق رمال البحر الابيض
سوق العتم طويل
سوق العتم طويل

★★★

سيدتي ٠٠٠
في اوروبا تلفحني الريح الباردة
ويغمر قلبي الدافيء ثلج كوانين
في اوروبا ٠٠ ان لا تعشق فالثلج كفيل في ان يوقف

Digitized by Birzeit University Library

نبض القلب

فيهوي الجسد الاسمر فوق الثلج الناصع

في اوروبا ...

خلفت ورائي وطني

كنت صغيرا احلم بالعيد وكعك العيد

واليوم كبرت وحلمي وطني

عكا والشام .. ووهران

وواحات الصحراء الكبرى

سيدتي ...

في صوفيا يتسامر الثلج ويعلو

يلثم نجمة افق تتدلى كي تدخل في روحي الدفء

فأغفو

سيدتي ...

في صوفيا

اتمرغ فوق الثلج واعرف اني لن اهوي

فيداك بقلبي تعزف موسيقى

عمر صبري كتمتو

صوفيا ٣١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

شهادة على زمن الـردة

عبد الرحمن بسيسو

- ١ -

وعبرنـــا البحر المالـــح
واتينـــا
لشهـادة زور ...
صوتك مبحـوح يـا هـذا ..

- ٢ -

يـدك المرتعشة في بحـر اللعمـات
تعلـن ان اللحظـة توحي بالعقـم
هـذا زمـن السقـم
زمـن العفن المبحر عبـر خلايـا الجلـد
يتغلغل في الـدم
فاحت رائحة الاشياء القـذرة ...

Digitized by Birzeit University Library

فاحت رائحة الرده

فاحت رائحتك يا هذا ... !

كل زهور الأرض وكل عطورات عواصم هذا العالم

لن تمحو عفنا يتغلغل فيك

لن تزهر في حقل دعاواك الكذابه ورده

ستظل اسير العفن المبحر

ستظل عقيما في زمن العقم .

- ٣ -

يأتيني صوتك عبر بحور سبعه

يأتيني يحمل عمق الفكره

صوتك يا ذات الوجه القدسي

يا ذات الوجه الآتي من ارض فلسطين

يا ذات الوجه الحامل كل هموم المحرومين

والمنذور لحب فلسطيني ، ارهقه التعب

وما مل السير .

- ٤ -

يا هذا الصوت الآتي في زمن تدميه الرده

يا هذا الصوت الآتي يحمل دفء الثوره

يتغلغل في جسدي

Digitized by Birzeit University Library

يحملني عبر مسافات بحـور سبعة
يعطيني أملا بالثورة ...
وعدا يتجاوز ضيق الـذات
يتجـاوز يكبـر
يعطيني الوعـد واعطيـه
يلقيني في بحر الحب الدافىء ...
أغرق فيه ،
يا هذا الصوت الآتي من بعد لا أدريـه .

- ٥ -

هـات يـدك
هـات القلـب
هات العقل والوجدان .. الدفء .. العطر
الأمل .. الحب الريحـان
هـات عطايـاك
أعطيـك يـدي ...
اعطيـك القلب والعقـل .

- ٦ -

لن نسمو ...
لن ينمو فينا الانسان
ما دمنا في وكر ذئاب تقتل فينا الانسان

Digitized by Birzeit University Library

هذا رأسي يا سيدتي بين المطرق والسندان

كوني قاسية يا سيدتي

لكن لا تبتعـدي

كوني قاسية يا سيدتي

لكن لا تدميني ذبحا .. شنقا .. قهرا .. تعذيبا

بين اللاء وبين النعمـات

كوني قاسية يا سيدة القاعات

لكن ...

لا تقسى حين تكون القسوة كفرا بالثورة

لا تقسى حين يكون الصوب الطالع من عمق خلايانا ...

موتا يحمـل روعة فكره

صوتا يأتي من عمق القهر

يطلق في ارجاء الكون عصافير الثورة

ينطلق بعيـدا

نحو رحابة رأي او فكره

بيروت ، ٢٥ ـ ١٢ ـ ١٩٧٢

Digitized by Birzeit University Library

قصص و مسرحيات

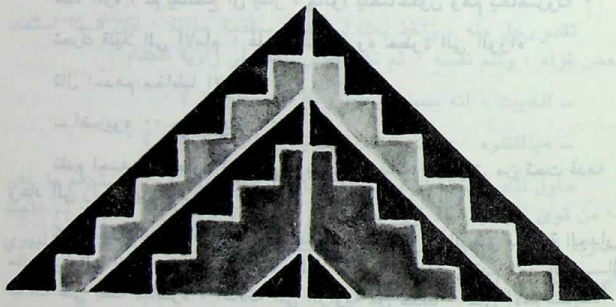

Digitized by Birzeit University Library

الجريمة

ياسين رفاعيه

هذه المرة ، لم يستطع ان يقفز ، كانوا يتضاحكون وهم يحاصرونه ·

تحرك قليلا الى الامام · فارتد محاصروه خطوة الى الوراء ·

قال احدهم مخاطبا الاخرين :

ـ اضربوه ·· والا سيفلت ·

تقدم احدهم ، وحاول ان يضربه بمقدمة حذائه ، فانزلق من تحت قدمه · وعاد الى زاويته يرتجف ·

كانت عيناه تبرقان فزعا ، انه يبحث عن منفذ ما ، والتصق بزاوية الجدار، مال قليلا الى الوراء · ثم قفز بقوة ، لكن ضربة قاسية من قدم احد الرجال جاءت على بطنه مباشرة ، اعادته الى الزاوية من جديد · كان الالم شديدا ، وندا عنه صوت يشبه الحشرجة ، فضحك الرجال الاربعة ، قال اصغرهم سنا :

ـ هيا اقتلوه ·

وقال رجل كهل :

ـ لقد ارهقنا ·· اتركه يتعذب ·

اما الرجلان الآخران ، فقد ضحكا · وقال احدهما :

ـ انظروا ·· بدأت الحياة تموت في عينيه ·

اخذ الآن يستعيد بعض قواه المنهارة ، وبدا حائرا ، لا يعرف كيف ينقذ

Digitized by Birzeit University Library

نفسه من هذا الحصار الذي راح يشتد كلما اقترب الرجال منه قليلا · كانوا حذرين ان يفلت ، وكان ، بالتالي ، حذرا من ضرباتهم ، بل راح يحدق الى اقدامهم وهو يتحرك بصعوبة ·

رفع احدهم ، قدمه ثم وجه ضربة شرسة الى رأسه · لكنه استطاع هذه المرة ان يقفز بعيدا ، فجاءت ضربة الرجل في الفراغ ، فصاح للتو :

ـ الخبيث !

في تلك اللحظة ذاتها ، كانت قدم الرجل الآخر قد استحكمته بضربة عنيفة ، فطار من شدة الصدمة في الفضاء ليرتطم بالجدار · ثم وقع الى الارض · واخذ يئن بصوت خافت جدا ، فيما راح خيط من الدم يندلق في فمه ببطء ·

ولاحظ الرجال انه قد استكان قليلا ، قال احدهم :

ـ انه يحاول خداعنا ·

تقدم رجل منه ، واخذ يحك له بطنه بمقدمة حذائه · لكن هذا استعاد بعض قواه ، ولملم نفسه · ثم تكوم اكثر فأكثر في زاوية الجدار :

ـ الخبيث ، انه بسبع ارواح (قال احد الرجال) ·

ـ هيا اقتلوه ·· انني اشعر بالغثيان (قال رجل اخر) ·

حاول تلك اللحظة ان يستغل انشغال الرجال بحوارهم ، فاستجمع ما بقي له من قوى ، وقفز · الا ان احد الرجال تنبه فجأة · فأطاح به عاليا · ثم عاجله بضربة اخرى · واعادته ضربة ثالثة من رجل اخر الى اعلى ، ليهوي الى الارض ·

غامت الدنيا في عينيه ، ولم يعد يرى سوى الاقدام الضخمة تتقاذفه من مكان الى اخر · ثم ابتدأت الغرفة تتسع ، بل رأى الالوف امثاله تتقاذفهم اقدام الرجال من جدار الى جدار · وكان يرتطم في كل زاوية ، وكل حجرة وكل بلاطة ·

بعد هذا العياء ، تخلى عن رأسه الذي حماه من الضربات طوال لحظات الهرب ، بل اخذ يرفع رأسه ليكون هدفا هينا لاقدام الرجال ، ولم يعد يصدر عنه اي صوت ، بل تماسك اكثر فاتحا عينيه على سعتهما مسترخيا ، ضاغطا عروقه بين جلده وعظمه لينزف بسرعة ·

Digitized by Birzeit University Library

قال احدهم ضاحكا :

ـ انظروا · الخبيث ، يريد ان يموت بكبرياء ·

ـ انه يرفع رأسه ·

ـ ويحدق بنا باحتقار ·

(يضحك احد الرجال ، ثم يضربه لتتلقاه قدم رجل اخر) ·

ـ انه حقا يحتقرنا ·

خارت قواه تماما الآن · وتعبت اقدام الرجال ، فتركته متكوما هناك · لكن رأسه لم يسقط بعد · كان يتنفس ببطء · الا ان الرجال لم يكونوا يسمعون تنفسه ، الذي تحول الى ما يشبه الشخير ·

صاح احدهم :

ـ لا يزال حيا · انظروا · لا يزال حيا ·

اقترب اصغر الرجال ، ورفع قدمه ، ثم وضعها فوق رأسه المتفجر بالدم ، واخذ يضغط رويدا رويدا نحو الارض ، حتى التصق بالبلاط · وهنا ، ضغط عليه بشدة فانسحق تماما ·

رفع الرجل قدمه ، وقد ندت عنه صرخة قرف ·

فيما بعد ، حمل الرجال الاربعة الجثة ، والقوا بها في مكان خارج المدينة · ثم خرجوا الى مهمة جديدة ·

بيروت

Digitized by Birzeit University Library

رسالة حب

وائل السواح

... غير انها لم تعد · في مكان عملها قالوا له انهم لن يحتجزوهـا اكثر من ساعة · عندما دخل غرفتها كانت خالية وموحشة · طاولتها كانت مشوشة ، وصديقتها لم تكن في الغرفة · وعندما استدار ليخرج ، لمحه زميل لها فـي غرفة مجاورة · كان طويلا وخجولا · ناداه بهمس ، وقدم له فنجانا من القهوة · ادرك عماد فورا ان ثمة شيئا قد حدث ، وهمس الاخر بصوت منخفض ، وهو ينظر في طـرف حذائـه :

– لقد اخذوها ·

زالت الدهشة من عيني عمـــاد قبل ان ترتسم فيهما · لم يسال من الذي اخذها ، وانما سأل :

– متى ؟

– قبل ساعة · اجاب الفتى الخجول ، ثم استدرك ·

– ولكن لا تقلق · لقد وعدوا انهم لن يحتجزوها اكثر من ساعة ·

(انه الحزن ، يفيق في هداة الليل ، يسامرني · يحكي لي قصصا وحكايا · كصديقين قديمين نحن ، وانت لا تأتين · اين تكونين الان ، ففي هذي اللحظـــة يمكن ان اعشق اكثر) ·

★★★

Digitized by Birzeit University Library

خرج بصمت · كومة من الافكار المتضاربة اجتاحت تفكيره · ماذا سيفعل الان ؟ ومن سيخبر اولا ؟ ··· وحنان المسكينة ؟

(··· اتذكر الآن ، انني لم اقل لك كثيرا انني احبك · ومرة سألتني لماذا لم اكتب لك رسالة عندما كنا مجرد حبيبين ، كما يفعل كل العشاق · وتفلسفت عليك يومها طويلا · القيت محاضرة حول الطريقة العصرية في الحب ، وحول انشغال رجل مثلي يحمل ما احمل من هموم ومشاكل ومسؤوليات ·)

رسالة ! ترى هل كان يمكن لرسالة صغيرة ـ صغيرة بحجم ابتسامة ان تعرقلني عن مشاغلي الكثيرة ، وهل كان يمكن لكلمة « احبك » ان تزخر مسيرة الحركة الثورية ؟! لو تدرين الآن مدى ما احمله من قوة على ان اصيح بكل لغات العالم « احبك » آلاف المرات · هل تسمعينني اذن ؟

هل تذكرين يوم رأيتك اول مرة ؟ كنا في بيت صديق مشترك · وبعد نقاش طويل ، قلت لك : « انت دمشقية ، شرقية ، ومتخلفة » وقلت لي : « انت رجعي ومغرور » ، وبعد ساعة ، قلت لك : «احبك» فقلت لي : «احبك» ، ويومها سرنا معا في شوارع دمشق المليئة بأشجار الزنزلخت وسيارات الجيب المقفلة · وصرخت : « اكرهك يا شوارع دمشق العريضة ، ايتها الوحوش التي لا ترتوي من دماء ضحاياها البؤساء » · ولفت انتباهي الى ان دمشق مدينة جميلة · ثم ـ انتقاما لما فعلته بك داخل بيت الصديق ـ اتحفتني بمحاضرة طويلة حول الاسباب التي تحول المدينة الى وحش ·

وعندما انعطفنا الى شارع فرعي ، اختطفت منك قبلة ، واخفيت وجهي بين يدي خشية ان تصفعينني ، غير انك ابتسمت ، واطلقت شتيمة وسخة · ثم عندما تركتك ، سألتني : (متى اراك ؟)

★★★

اشعل سيجارة ، واعاد اتصاله من الشارع بمقر عملها · وجاءه الصوت باردا كالقبر : لم تعد · كان قد امضى ثلاث ساعات كاملة في الجري من مكان

Digitized by Birzeit University Library

لآخر ، ومن بيت لآخر في سبيل اتخاذ الاحتياطات اللازمة · غير انها لم تعد · تساءل « اين انام ؟ » · كان الوقت قد تأخر ، وكانت عودته الى البيت ضربا من الجنون · اتصل هاتفيا بصديقة لهما · حدثها عن الوضع الجديد ، فهتفت به :

ـ تعال عندي · يمكنك ان تنام على الصوفا ·

ـ ولكن ···

ـ قالت تعال ، لا تكن سخيفا ·

(··· عندما نمنا معا اول مرة ، كنت سكرانة الى حد مـــا · قدمت لـك قدحا من العرق ، وعددت لك فوائده الكثيرة · في البدء ترددت في شربه · قلت لي « انا لا اشرب الا البيرة » فضحكـــت طويـلا ، وغضبت انت من ضحكي ، فشربته دفعة واحدة ···) ·

وسار باتجاه منزل سميحة ·

★★★

(··· كنت اخبرت اهلك انك في رحلة الى اللاذقية ، ولكن باص جسدك توجه الى محطتي انا · ويومها نمنا كأي غبيين بكامل ملابسنا · كنت خائفا من ان تداهمنا دورية من حماة الاخلاق ، اذ اننا لم نكن قد حصلنا على صك البراءة الذي يمكننا بموجبه ان ننام معا دونما خوف من ان تتدخل السلطات التي نصبت نفسها حـاميـــة لاعراض النساء المحصنات · من اجل ذلك كله ، نمنا بكامل ملابسنا ، وكلما سمعنا جلبـــة او حركـة ، كنا نقفز عن السرير ، ونجلس في كرسيين متباعدين ···)

★★★

طرق الباب · وسرعان ما فتح ، وبرز خلفه وجه انثوي محبب ، وهادىء ·

ـ ادخل · قالت سميحة ، فدخل بهدوء ، وسأل :

ـ عندك احد ؟

Digitized by Birzeit University Library

ـ لا ، ادخل ٠

كان البيت مؤلفا من غرفة واحدة ومطبخ صغير على سطح احدى البنايات. ولم يكن به ميزة واحدة اذا نسينا التلفون الذي لا يذكر احد كيف حصلت عليه سميحة ٠ جلسا على كرسيين من القش ٠ سألت :

ـ هل اخبرت احدا ؟

هز رأسه ايجابا ٠ وهمس بعد فترة :

ـ انا متعب ٠

ـ هذا لا يجوز ٠ كان لا بد ان تتوقع مثل ذلك ٠

ـ اجل ، ولكن ٠٠٠

صمت ، ليتابع بعد قليل :

ـ على كل حال لا بأس ٠ اين سانام ؟

ـ هنـــا ٠

واشارت سميحة الى اريكة حديدية تموضعت في طرف الغرفة ، واضافت :

ـ ولا يوجد اكثر من بطانية واحدة ، عليك ان تدبر امرك بها ٠

هز رأسه بصمت ٠ كان يعرف انه لن ينام ٠

(٠٠٠ ولم ننم في تلك الليلة ، هل تذكرين ٠ تحدثنا كثيرا ، ولم نمل ٠ حدثتك عن ظروف اهلي في مدينتي الريفية البعيدة ٠٠٠ عن الشتاءات القاسية التي تمر عليهم هناك ٠٠٠ عن دموع امي عندما ودعتها قادمـا الى دمشق ٠٠ وابتسامة اختي يسرى الحزينة ، وهي تحلم باللحاق بي ٠ وحدثتني انت عن وضع اسرتك وعلاقتك السيئة بها ٠٠ وعن عدد الخادمـــات اللواتي يدرن في ارجاء البيت ٠٠ والمشاجرات الدائمة مع امك حول تصرفاتك الطائشة ، وعلاقاتك المشبوهة واصدقائك المقرفين ٠ واتفقنا ليلتها على وجوب العمل واتفقنا عـلى وجوب التغيير واتفقنا ٠٠ واتفقنا ٠٠ ولم نغف الا قبيل الفجر بقليل ٠٠٠)

★★★

Digitized by Birzeit University Library

اغفت سميحة اخيرا · قالت له بحزم :

ـ اخلع ملابسك ونم ··

فهمس برجاء :

ـ سأدخن هذه السيجارة اولا ·

الا انه دخن ثلاثا قبل ان تنام سميحة · وعندما اغفت ، جلس الى الاريكة ـ سريره ـ واشعل سيجارته الرابعة · فكر ان يتصل بأهلها ـ بأمها مثلا ، ليخبرها ان ابنتهم في السجن · اقترب من التلفون ، ثم تراجع في اللحظة الاخيرة · صاح بنفسه محرضا :

ـ جبان !

لكنه لم يتحرك · رفضت يداه ان تمتدا الى التلفون · ماذا ستكون ردة الفعل عندهم · امها ستذهل قليلا ، ولكن اباها سوف يختطف السماعة ويصيح:

ـ اذهب انت وهي الى الشيطان ، لقد حذرناها كثيرا ، ولكنها لم تصغ · عدل عن فكرة الاتصال ·

(·· اول مرة اتصلت بأهلك ، كانت بناء على طلب شخصي من امك · يومها شعرت بالسعادة لانها وافقت بشكل او بآخر على زواجنا · امسكت بسماعة التلفون ، وادرت الرقم بتردد · وعندما جاءني صوت نسائي اجش جاف ، ارتبكت لوهلة ، ثم بدأت اتحدث بطلاقة · وطلبت الي امك الا اقدم على عمل احمق ، ورجتني ان نكون متعقلين ، والا اقدم على عمل يسيء الى شرف العائلة ، وقالت ان خالك المحامي المشهور سوف يحل الاشكالات القانونية بالطرق السلمية ، واعلنت من جهتها عن موافقتها بدون شروط · وكدت اضحك وانا اكلمها ، لانني كنت موقنا انها وافقت رغما عنها ، فهي لم تنس انني لم اترك قريتي الا منذ سنوات قليلة ، ولكنها صارت ترغب في التخلص منك ورمي عبئك عن كاهلها ·)

★★★

Digitized by Birzeit University Library

عاد الى الاريكة ، واشعل سيجارة اخرى · نظر الى الارض ، فأدرك انه قد رمى اعقاب سجائره الاولى على الارض · انحنى ليجمعها ··

(··· كنت امهر منك في تنظيف البيت ، هل تذكرين ؟)

★★★

وضع الاعقاب في المنفضة · ثم اطفأ سيجارتـــه الاخيرة ، واستلقى على الاريكة محاولا تهدئة نفسه ·

(··· وعن الالتزام ، اصارحك ، لم اكن اعتقد ان بامكان امرأة ان تصل الى مثل تلك القناعات التي فاجأتني بها تلك الليلة · كنت احاول ان استدرجك بهدوء ، فما الذي فعلت ؟ نظرت الي بثبات · زويت ما بين عينيك ، وقلت بوقار :

– كل تلك المناقشات تظل هباء ، بدون العمل المنظم ·

ويومها – هل تذكرين كيف ارتميت على صدرك وقبلتك بشوق ؟)

★★★

قفز فجأة · خطر له ان يتصل بخالها المحامي ، فلا بد انه واجد طريقة للافراج عنها ، او لمعاملتها بشكل حسن في اسوأ الحالات ·

(··· خالك هذا ، هل تذكرين المرة الاولى والاخيرة التي زرناه فيها معا · كان يجلس وراء مكتبه ، امامه اوراق مختلفة الحجوم والاشكال ، وعلى عينيه نظارة طبية تدل على كمية الكتب التي قرأها – دونما فائدة – في تلك القوانين المتآكلة · وكان اول سؤال وجهه لي :

– هل انت ضابط في الجيش ؟

ويومها ، ادركت كم كان غبيا خالك هذا ، وكم احرق من السنوات في قراءة تلك الكتب الغبية ، فانا لم يكن في ما يوحي بأنني ضابط ، او بأني سوف اصبح يوما كذلك ، ومع ذلك فقد اردف :

Digitized by Birzeit University Library

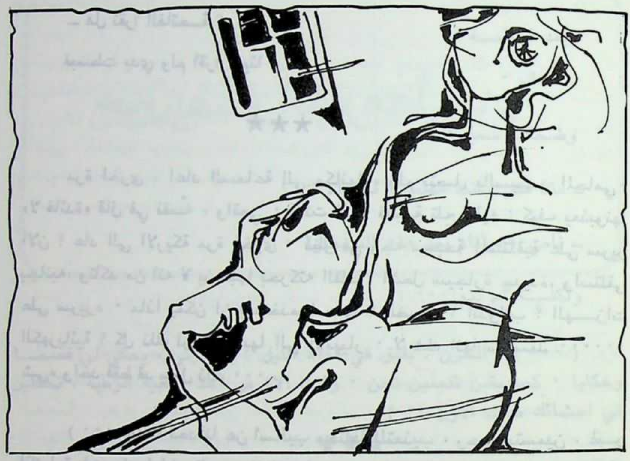

ـ ليتك كنت ضابطا ، فأبوها لم يكن ليمانع في شيء وقتئذ ·

هل تذكرين كيف كان ينظر اليك بنوع من الاحتقار والحقد خلال حديثه ؟ كان يرى فيك نواة زيتونة داعرة وسبة في جبين العائلة ·

اردت ان اجيبه عن سؤالـــه بحدة وانفعال ، لكنك لكزتني في رجلي كي لا اجيب ·

وكان اذكى من امك ، فأدرك اننا متزوجان فعلا ، واننـا لم ننتظر اشارته القانونية · عندها فتح احد الادراج ، واخرج ورقة بيضاء انيقة ، سجل فيهـا عقد الزواج ، ثم ـ امعانا فيما يعتقده احتقارا لك ـ وقعه من قبل حاجبه واحد الزبائن الذين دخلوا ـ مصادفة ـ في تلك اللحظة كشاهدين ،، ووعـد ان يتابع القضية في المحكمة الشرعية ، ثم همس بألم :

Digitized by Birzeit University Library

ـ هل نقرأ الفاتحـــة ؟

فبسطت يدي ولم أقرأ شيئا) ٠

★★★

مرة اخرى ، اعاد السماعة الى مكانها ، ولم يتصل بالسيـــد المحامي٠ «لا فائدة» قال في نفسه ، واقعي ٠ كانت فكرة قاسية تلح عليه : كيف يعذبونها الان ؟ عاد الى الاريكة مرة اخرى ٠ نظر في وجه سميحة المستلقية على سرير بجانبه، وتأكد من أنه لا يزعجها بحركته القلقة٠ أشعل سيجارة جديدة، واستلقى على سريره ٠ ماذا يمكن ان يستخدموا معها ؟ الضرب ؟ الدولاب ؟ الهـــزات الكهربائية ؟ كل ذلك لن يدفع بها الى الانهيار ٠ لا شك انها ستصمد ٠٠٠٠٠٠ شيء واحد فقط قد يفعل ذلك ٠٠٠

(٠٠٠ عندما تحدثنا عن أساليب مختلفة للتعذيب ، رحت تبتسمين ، غير انك ارتجفت عندما اخبرتك عن الاغتصاب ٠ ولاول وهلة ، رفضت أن تصدقي أن مثل ذلك يمكن أن يحدث فعلا ، وقلت لي :

ـ عندما لن اضمن نفسي ، يمكن ان افعل اي شيء ٠

وحاولت بهدوء أن أقنعك ان الاغتصاب ليس شيئا أقسى مـــن الضرب ان الكهرباء ، وان عليك ان تتحملي ذلك الامر ببساطة لانه لن يغير شيئا من جوهر علاقتنا ، ولكنك رفضت ان تصغي الي باصرار ٠ لقد كانت تلك نقطة ضعفـــك الاولى) ٠

★★★

رمى عقب السيجارة على الارض ، ثم عاد فحمله ، ووضعه على المنفضة، سال نفسه « ماذا يفعلون بها ؟ » وسعل بشدة ، فأفاقت سميحة مرتعبة ٠ صاحت:

ـ مـــاذا ؟

ـ لا شيء ، كنت اسعل فقط ، انت تعرفين صدري اللعين ٠

Digitized by Birzeit University Library

وبعد لحظـــة :

ـ آسف ٠

وضحكت سميحة :

ـ منذ متى وانت مهذب ؟ لماذا لم تنم ؟

ـ نامي ، سأنام بعد هذه السيجارة ٠

ولكنـــه لم ينم ٠٠٠

(٠٠٠ انه الحزن ، يفيق في هدأة الليل ، يسامرني ، يحكي لي قصصـا وحكايا ٠ كصديقين قديمين نحن ٠ وانت الان في احد الاقبية الرطبة ، تحملين في احشائك طفلك الاول ٠٠)

★★★

ضحـــك ٠٠

(٠٠٠ عندما تخرجين ونلتقي ، سأمازحك ٠ سأقول لك ان طفلنا سوف يفاخر عندما يكبر بأنه زار السجن في سن مبكرة جدا ٠ ونضحك معا ، واضمك الى صدري ، واهتف لك « احبك » الاف المرات ٠ لماذا ؟ لماذا لم اهتف لك بذلك من قبل ؟ لماذا لم اكتب لك اي رسالة حب عندما كنا مجرد حبيبين ؟٠٠)

★★★

كان سائل لزج ودافىء يجري فوق خديه ٠ شرق بابتسامته ٠ كان ضوء النهار قد بدأ يتسلل الى الغرفة ٠ فتح الاباجورة المغلقة نصف فتحة كي لا يوقظ سميحة ٠ تنفس هواء الصباح النقي ، ثم جلس بالقرب من النافذة يكتب لزوجته اول رسالة حب ٠

وائل السواح ■

دمشق ، ايار / ١٩٧٨

Digitized by Birzeit University Library

حين يغدو النهر مطيراً

فايز محمود

كان النهر يجري من خلفهم ، رقيقا يكاد يشف احيانا عن قيعانه لولا العكرة التي تخالط امواهه الضحلة من جراء دروبه البالغة التعرج .. هؤلاء الخمسة ، يعرفون النهر على امتداد سريانه ، فلطالما عبروا جسورة قبل الاحتلال جيئة وذهاب ، ومن بعد عبروه مرارا فكانوا يحسون انه شريانهم الذي يتشعب منه عصب حياتهم ـ لذا لعل قلوبهم كان يتسارع وجيبها كلما ولجوه ، خائضين لجة امواهه ، المتدهورة الاندفاع بتلكؤ واستمرارية والتفاف منذ سحيق الازمان .. لم تعد ثمة جسور الا من فوهة البندقية ، اما الجسور القديمة المفتوحة هذه الايام ، فكل من يعبرها اشبه ما يكون بجثه يوارى في مدافن التاريخ .. فالمقاتل وحده هو الحي .. مستترا غربي النهر او متخف في عبوره .

هذه المرة كان الوضع مختلفا مع الرجال الخمسة .. الاحراش المندلعة بالنيران ، ولهب المدفعية ونار الرصاص مازال يتأجج في احداقهم المحمرة ، التي زاد عدم اغماضها منذ ثلاثة ايام مضت في لونها الدموي القاني ، وايضا الغضب الساطع الذي يعتريهم ينحبس في المآقي نبع من الدم الحار الذي يتوق الى ترابه وسماءه ووطنه ..

والقيظ يفور ويغلي في غور النهر ،وتتعالى انفاس الارض والغيط ويتصاعد البخار من سطح النهر الكسول بنزاقة خاصة .. وينعقد من جماع ذلك ضبابا يكاد يقطع الانفاس .. وانفاس الرجال الخمسة كانت مبهورة سلفا ، بعد

Digitized by Birzeit University Library

مطاردة قاسية ملحة ، آناء ليل واطراف نهار ثلاثة ايام طوال موصولة حادة كشفرة سيفة بتار ٠

هذه المرة كان الوضع مختلفا مع هؤلاء الرجال الخمسة في العبور الى الضفة الاخرى ٠٠ وكانت اصوات المكبرات تطبق الآفاق من الضفتين ، تناديهم ، فتمتلىء الجهات التي يرين عليها الصمت بالنداء : تعالوا لدينا تجدون الامان ٠٠ الامان ٠٠ الامان ٠٠ كهزيم الرعد كان نداء الامان يجوب الفضاء ، ويتجمع نأمة نأمة في آذانهم ، التي مازال دوي المدافع وصوت الرصاص يلعلع في اسماعها ويبعث الذعر من الاصابة المحققة التي كانت تحاصرهم بوابل لا ينقطع من حمم القنابل وزخ الرصاص ٠

والشمس تتبوأ سمت السماء ، شمس تموزية تتميز حرا ٠٠ والجوع الذي غالبوه الايام التي تصرمت ، يهب في انقضاضه مفترسة عند اول سانحة تبرز ٠٠ الهليوكبتر تقذ من ضفة النهر الاخرى وتلقي بالطعام ٠٠ اكوام من الخبز الطازج وشتى المعلبات الشهية ومطرة ماء وعلب سجائر ٠٠

حين حومت الهليوكبتر دانية بالقرب منهم ، هم خالد بانتضاء رشاشه والتصدي لها ٠٠ هرع جمال محذرا :

لا ٠ لا ياخالد ٠ نحن لسنا في مثل هذا الوضع ، صن ذخيرتك المتبقية للوقت المناسب ٠ لنضبط يا اخوة اعصابنا ، وليظل ذهننا يقظا ٠٠

كان جمال هو المسؤول ٠٠ كان اقدمهم عهدا بالالتحاق بالثورة ٠٠ حين تناهى لمسمعه اندلاعها لم يعد يطيق دوامه الوظيفي في مكتب غوث اللاجئين ظل يتابع عملياتها داخل الوطن المحتل باهتمام واستمرار وشغف ملك عليه لبه ٠ واستحالت ايامه معاناة موحشة كئيبة ٠ بعد بضعة اشهر حسم تردده ، ونفض يديه من عمله ٠٠ وصافحهم يدا بيد ٠٠ ومثله رفاقه الذين معه ـ خالد ونضال وطارق والياس ، ايضا حسموا في وقت من الاوقات التصاقهم بوظائفهم وظروف معيشتهم السابقة وانضموا للثورة ٠٠٠ وها هم الان مهددون بالبنادق المصوبة باتجاههم من ضفتي النهر ٠

التزموا جميعهم بأمر جمال ، الذي اردف قائلا :
ـ نموت جوعا ، ولا ينقذنا طعام الاعداء ٠

Digitized by Birzeit University Library

على مقربة، كالجيفة ترامت حمولة الهليوكبتر ٠٠ وجزرت شهية الرجال بعد المد التلقائي الذي فاض لمرأى الطعام وهم يتضورون من المسغبة والارهاق الذي يضاعف حدة الجوع ٠٠ حامت الهليوكبتر عدة مرات فوق رؤوسهم ، وكانت جلبتها تثير الاعصاب ٠٠ اكثر من مرة كاد خالد من قهره ان يخرج على امر جمال ، هتف ذات طلعة :

ـ بامكاني اسقاطها ، دعنا نرديهم ، فعلى الاقل نكون بذلك قد فعلنا شيئا ، قبل ان يداهمونا من هنا او من هناك على حين بغتة ٠٠

كان جمال يشدد اوامره بالرفض ٠٠

اتجه وئيد الخطى وعلى حافة النهر جلس ، مد كفه اليمنى وغرف من الماء يمسح وجهه ، وقد قض على « كلشن » بيساره بحرص متبدي ٠٠ احس بشعر وجهه كثا لم يعرف الحلاقة منذ فترة طويلة ، وللتو ، من ثم ؛ لمعت في خاطره تلك الاحراش ٠٠

انتصب بقامته المشدودة ، وقد استعاد قدرا من حيويته ؛ وعاد بمحاذاة الرفاق ٠٠ واحد بعد واحد ورد الرجال على النهر يغتسلون ٠

المكبرات تنادي من الضفتين ما تزال ٠٠ بالعربية الفصحى من صوبهم ، وبلكنة مكسرة قبالتهم من الضفة خلف النهر ٠٠٠ وكان النهر يجري ، رقيقا يكاد يكشف احيانا عن قيعانه لولا العكره الذائبة في امواهه الضحلة ، من جراء دروبه البالغة التعرج ٠

همس جمال يخاطب رفاقة ، بخفوت صوت من يحدث نفسه :

ـ ترى ماذا تم في الاحراش ٠٠ واخواننا هناك ٠٠

وندت غصة هزته ، فعرت ملامح وجهه غيمة داكنة القت بظلالها على عينيه ، فأكمل حديثه محتدا :

ـ الى متى تظل امتنا العوبة بيد المهرجين والمستغلين ، لقد كان ما جرى سخافة وحقاره تندى لها الجبين ، وستلعنهم ذراريهم جيلا بعد جيل ٠٠ ونحن كنا اخطانا ٠٠

Digitized by Birzeit University Library

ـ اليس بالامكان الخروج من نطاق الحصارين ؟٠٠ اليس هذا بالامكان ؟؟
بجدية ولهفة جاء صوت الياس هامسا حارا متسائلا كذلك ٠

ـ ليست هناك اية امكانية ٠٠

رد جمال ، وسرح بصره الى كوكبة من الجنـد تحمل مكبرات الصوت ، وتتقـدم قـوة عسـكرية لجبة مـدججة بكامـل اسلحتـها الثقيلة تلـوح عبـر التخوم الحاذية للضفة صوبهم ٠٠ كان واضحا ان الزحف يجري بمهل وتصميم حسب مخطط مقرر ٠

في الضفة المقابلة خلف النهر ، لاحوا اولئك يتقاذفون بمرح لم يستطعوا كبته ، وجوههم تفيض بالحبور ، ويشوحون بايديهم ، وعلـى مـا يبدوا قـد اندمجوا في تظاهرتهم الى حد فاق تصور الرجال الخمسة المصلوبين على قارعة النهر ، حينما بدأوا يسمعون بدون توقع الاغاني والموسيقى تذاع من مكبراتهم خلال النداءات :

تعالى ، تعالى ، تعالى تعالى

خلي الدنيا تشوف فرحتنا ٠٠

انا باستناك ، انا ٠٠

بيع قلبك بيع ودك شوف الشاري مين ٠٠

اللي يهواك اهواه ، واللي ينساك انساه ٠٠

ياحبيبي طال غيابك ليه ياقاسي ٠٠

عندها ٠٠ استبد الحماس في النداءات مـن الضفـة صوبهم ، واخذت تهلل وتكبر :

الله اكبر ٠ الله اكبر ٠٠ يا اخوان : تذكروا اننا جميعا عرب ٠ لا تدعوا التاريخ يسجل علينا هذه السابقة ٠٠٠ نحن اخوتكم ٠ اننا نعطيكم الامان ٠ امان الله ورسوله ٠٠ فقط القوا اسلحتكم ٠ القوا اسلحتكم وانتم بأيد امينة ٠٠ ويتلو ذلك آي من القرآن الكريم ، يبث من خلال المكبرات الصوتية بين كل نداء وآخر ٠

النهر يجري رقيقا يكاد يشف عن حصائه احيانا في بعض مواضعـه ،

Digitized by Birzeit University Library

مسربلة بقتامة العكرة التي تحملها امواهه الضحلة ، من جراء دروبه البالغة التعرج ·· والحر يسيل على البسيطة ، المكورة في اديمها الغور ؛ على جانبي النهر ·· ولكأن الضباب الكثيف هو انهمارها الموصول ·· والشمس ما زالت في كبد السماء ، ما انحرفت عنه الا قليلا ، تتبدى هكذا في حضور هذا الواقع؛ كأنما النبع الموار ·

ـ لن نتخلى عن السلاح ايها الاخ ؟

سأل خالد جمالا وهو يحدق بعينيه بعزم ·

ـ نتخلى عن ارواحنا اسهل ··

رد جمال وقد افتر ثغره عن ابتسامة بريئة لم تحجبها سمات وجهه الرجولية الصارمة ··

وشاع على وجوه الرفاق ، ومضة فرح ساطعة ··

★★★

لغط وهرج ومرج ينبعث من مكبرات الصوت على طرفي النهر ··

الرجال الخمسة مضرجون بمحاذاة النهر لصقه ·· اسلحتهم خلت من الذخيرة ·· تنساب دماؤهم وتختلط بالمياه العكرة ·· وذات الابتسامة ما زالت تشرق على محياهم الذي نضت منه الحياة ·· وبعض من جنود الطرفين، يتقدم متوجسا باتجاه النهر ·· والنهر ما زال كعهده يجري ، رقيقا يكاد يشف احيانا في بعض مواضعه عن قيعانه لولا العكرة الذائبة في امواهه الضحلة ، من جراء دروبه البالغة التعرج ·· قال جندي لرفيقه اذ بلغ جمال : هذا حي ··· تداعى بضعة جنود من رفاقه لنقله بحمالة ·· ولوا اسلحتهم ·· من طرف النهر الآخر رفع عدد من الجنود عقيرتهم :

ـ شالوم · شالوم ··

صرخ جندي في طرف النهر المواجه ، حيث انطرح الرجال الخمسة ؛ وقد بدا منكسر الخاطر اسير هواجس حرى :

ـ يا ابن الكلب ··

نهره بضعة جنود من رفاقه ·· ثم ساروا بالنقالة ··· اطبق صمت

Digitized by Birzeit University Library

قصير على الجنود ، ما عدا صوت احذيتهم الواهن وهم يمشون خببا قطعه رفع جمال رأسه ·· ثم اهوى ·· زفر بصعوبة مرة اخرى وهو يحاول رفع رأسه ، وتطلع بعينين مكدودتين قرحهما طول التحديق وقد سال الدم المتفثر على رموشه فقطبها ؛ وقال جاهدا ان تكون نبرات صوته واضحة :

ـ النهر ·· نهرنا ·· عروس ·· عروس ·· يود رجالا ·· تود عرسانا تزف اليها ·· النهر يطلب عريسه ·· الرجال ·· الرجال ··

صرخ ذاك الجندي وقد تملكته الحمية : نحن رجاله ·· وسحب سلاحه··

كان عدد من هؤلاء الجنود قد حملوا الجثث الاربعة ··

اطلق ذاك الجندي الرصاص ، واخذ يصرخ : نحن رجاله ··

ترددت طلقات من عدد غفير من الجنود ·· اخرست جميعها فورا ، وقد

بعث ذلك تكهربا في اجواء الجنود الآخرين على ضفة النهر الآخرى ·· لكن ذلك الجندي ظل يلهج : نحن رجاله ·· نحن رجاله ·· ولم يعد يصمت حتى حين بح صوته ، فظل في صوت لا يكاد يبين يردد ذلك ·

وكما الغيوم الملبدة بمواسم النماء ، كان النهر يجري سحابا مربدا ثقيلا ·· يظل يجري ·· وخريره الهامس الاجش يروي تاريخا في اعماق الدهور نبعه ··

والآن ·· خلت جوانب النهر من الطرفين ، ومن بعيد عاد الجند يدبون كسلى ويرمقون بعضهم البعض بدون معنى ··

لكن ·· في نفس هذا الوقت ، كان بضعة رجال تخوض الذهر من جانب خفي ، لم تقع عليهم اعين اي من جند اولاء او ذلكم ·· يعبرون كالعاصفة ، تهب من ريح النهر ، مذخورة بمطره وبرقه ورعده ··

ويظل النهر يمطر ، وتعب الضفاف التي شققها سفح الرياح السامة وطوفان البحر وسراب الصحراء ·· تعب الضفاف من مطر النهر المدرار ·

٢٦ ـ ٨ ـ ١٩٧٨ م

Digitized by Birzeit University Library

قضايا عربية

٢

شهرية فكرية مفتوحة لمختلف الاتجاهات التقدمية

يكتب فيها أبرز الكتاب والمفكرين العرب من كافة اقطار الوطن العربي - تعالج اهم المشكلات والقضايا المعاصرة للامة العربية بروح الالتزام والبحث العلمي وفي مختلف المواضيع : السياسية ، الاقتصادية ، التاريخية ، الادبية ، الثقافية والفنية - أبواب شهرية ثابتة : عرض أهم الكتب - فن تشكيلي - سينما - وثائق - ببليوغرافيا شهرية : القضايا العربية في الدوريات العربية .

رئيس التحرير : د . عبدالوهاب الكيالي

مستشار التحرير : رجاء النقاش

المراسلات : ماهر الكيالي - ص . ب . ٥٤٦٠
بيروت/ لبنان العنوان البرقي : موكيالي - ت : ٣١٢١٥٦ .

Digitized by Birzeit University Library

كتب

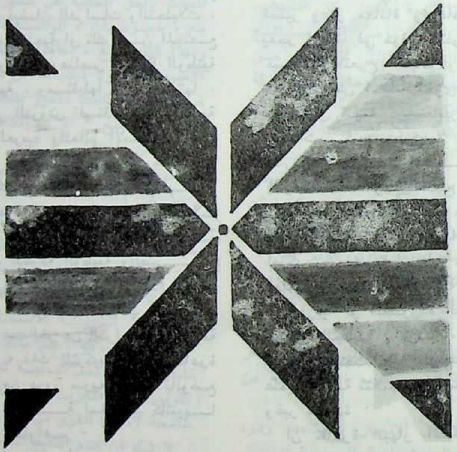

Digitized by Birzeit University Library

حازم صاغية. صراع الاسلام مع البترول .

. بيروت ، دار الطليعة، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨ .

منذ بدء الحركة الشعبية الايرانية قبل اكثر من عام ، والقارىء العربي يعاني من فيضان الدراسات والتحليلات ، حول هذه الناحية او تلك من المجتمع الايراني وتاريخ وعناصر الحركة الوطنية والاجتماعية ، ومستقبلها وخصوصيتها ، علاوة على الدروس المستقاة منها بالنسبة للمنطقة العربية وللعالم الاسلامي خصوصا ، والعالم الثالث عموما .

ولا شك ان هناك حاجة ، تتزايد ، للقيام بالدراسات وتقديم التحليلات الضرورية لفهم الاوضاع الايرانية وتطورات الحركة الوطنية والصراع الاجتماعي فيها . ولا بأس في هذا الصدد ان تلقي المطابع علينا بجانب الدراسات الجدية ، عدد اخر من الدراسات « سريعة التحضير » ذات التركيبة الجاهزة والمنطلقة من مرور سريع وعابر بالوضع في ايران حاملة اسقاطات كاتبيها وامانيهم وفتاواهم .

ينتمي « **صراع الاسلام والبترول في ايران** » بكل جدارة ، الى هذا النوع من الدراسات « الجاهزة وسريعة التحضير » . تعكس مقالات الكتاب انبهار ، شديد الصوفية ، بالقيادة الدينية للحركة الشعبية في ايران . هذا الانبهار الذي طالما عانى منه مثقفو البورجوازيه كلما « فاجأتهم » حركة التاريخ ، وكلما قامت حركة شعبية لا تتلاءم ، تماما مع استقراءاتهم الخاصة . فحين تتسارع الاحداث ، المختمرة عبر التاريخ غير قصير وعبر معاناة وارهاصات ، وحين يعجز المثقف في موقع المتفرج عن متابعة مسارها المتعرج احيانا والمتشابك الى حد التشويش احيانا اخرى ، فانه يفتش في اوراق قديمة عن تعابير تصور هذه الاحداث ، كنبت فطري لا علاقة له بذلك التاريخ ، وتلك المعاناة ، وتلك الارهاصات . وحين تنجح «المفاجأة» من ان تتكرس كحقيقة جديدة على ارضها فاننا لا نعدم من يقف فاغرا فاه انبهارا ، ليؤكد ، بعدها ، على عجز الادوات العلمية (بصفاتها المختلفة : الكلاسيكية او الغربية او المستوردة الخ) عن فهم الحقيقة الجديدة ، مرددا ، للمرة الالف، ضرورة البحث عن اطر مغايرة وادوات علمية خاصة تتلائم مع خصوصيات مبهمة وغير محددة .

ان ظاهرة انبهار المثقف المتفرج « بمعجزات » تتم خارج اطار توقعاته قد ادت ، من ضمن ما ادت اليه ، بلوز عدد من التنظيرات المتلائمة مع طبيعة « المعجزة » ، ومدى خصوصيتها .

فاذا استمر الاشتراكيون الديمقراطيون في حكم بلد اوروبي ما لعدة سنوات ، فما ذلك الا تاكيدا على « تبرجز » الطبقة العاملة في ذلك البلد ، وتخليها عن دورها التاريخي . وتاكيدا

Digitized by Birzeit University Library

على عجز الماركسية عن فهم ومتابعة التطورات في مجتمعات « ما بعد الصناعية » .

كما ان انتصار شعوب اسيا الفلاحية في معارك تحررها الوطني تأكيد على مدى خطأ « الورع العمالوي » . بل ومؤشر على اننا سنشهد ، قريبا ، التفاف ريف العالم (العالم الثالث) حول مدنه (اي المعسكر الامبريالي والمعسكر الاشتراكي) .

وبين هذين التنظيرين عدد اخر ، يلمع حينا ثم يخبو ، ويعود .

ففي فترة تاريخية مضت ، كان الجيش، كمؤسسة هي عصا موسى التي ستبتلع كافة افاعي النظريات التي لا تنطلق من النخبة المسلحة ، باعتبارها عصب حركة التاريخ واداته . ومن ناحية اخرى ، لم يعدم الدين ان يحتل مكاناً بارزا في خريطة هذه التنظيرات . فهناك نماذج مبكرة منها ، انطلاقا من دوره في افريقيا والبرازيل ، مرورا بدوره في حركات السود الاميركية وخاصة في فترات زخمها ، اثناء حياة مارتن لوثر كنغ .

وفي منطقتنا ، في البلدان العربية ، كما هو الحال في ايران ، تمركز الانبهار والتنظيرات الناجمة عنه في النظرة الصرفية، لفترة طويلة، التي طبعت النظر الى البندقية التي « تنبع السلطة من فوهتها » !

تتعدد اشكال الانبهار ، وتتعدد ردود فعل مثقفي البورجوازية الصغيرة ، حين يقفون امام حركة شعبية استطاعت ان تفرض تغييراً جديا في ميزان القوى في بلادها ، فلا يرون خلفيات الصراع ، وتعرجاته ، واشكاله ، وانتكاساته ، مكتفين « بالمرور السريع والعابر » على الاوضاع في تلك البلاد ، مستقطين صفات قيادة هذه الحركة ، في فترة تاريخية ما ، على كل ماضي ومستقبل الحركة بتعقيداتهما .

يشكل « صراع الاسلام والبترول » نموذجا مثاليا لهذا النوع من ردود الفعل تجاه حركة شعبية معقدة التاريخ ، كالحركة الايرانية . فالكاتب يبدو فاغرا فاه ، مندهشا امامها ، فهو لم يكن يتوقعها (في وقت كان المناضلون الايرانيون ، بكل انتماءاتهم ، يضعون اسسها ، طوال اكثر من ربع قرن) . وبدلا من ان يعزي دهشته ومفاجأته الى جهل عام بأوضاع ايران ، فانه يبدأ ، وبشكل يبدو في هذا الصدد ، منطقيا، في البحث داخل الجعبة عن تنظيرات تتلائم مع « خصوصيات » الوضع الايراني . ولهذا **فهو يضع ، امامنا ، الدين مقابل الامبريالية** . ولا شك اننا لن نواجه حيرة فيم نختار لو كانت الامور بتلك البساطة ، وذلك التسطيح . الا ان الكاتب اذ يرى « يرى ان التناقض الرئيسي في منطقتنا هو تناقض الاسلام مع البترول » .. (ص ٦٨) .

كما انه يسحب الحبل الى اكثر من مداه، حين يقرر « وبقدر ما كان الاسلام تعبيرا عن الذات ، بكل ما فيها من (حسنات وسيئات) ، كانت العلاقات البترولية تعبيرا عن الحالة الاستعمارية التي اتخذت ، قبل ذاك ، صياغات عدة للتبعية، تشارك فيها نخب محلية تواقة لاحلال (قوميات) متغربة او (علمانيات) طامحة لاكمال الغزو من الداخل » (ص٨)

لا شك ان هذه التعبيرات ستثير ، عند البعض ، ذكريات الخمسينيات ، بحريها الباردة ، وانعكاساتها غير الباردة في منطقتنا . الا انها تثير ، بلا شك ، ومن جهة اخرى ، مشكلة تحليلية متعلقة بمدى جدية تعاطي المؤلف مع معطياته . فهو ، اذ يرغب في تجاوز المعايير الطبقية (او الطبقوية) ، يضطر الى النظر للمسلمين ورجال الدين لديهم (والشيعة ورجال

Digitized by Birzeit University Library

الدين لديهم) باعتبارهم سواسية ، كأسنان المشط ، يحركهم « عداء التغلغل » (الرأسمالوي) . وفي هذا الصدد يضيع كل تمييز ما بين الفلاح الشيعي والاقطاعي الشيعي ، ما بين العامل الشيعي والتاجر والرأسمالي الشيعيين . وفي ظل هذه الصورة الكاريكاتورية للتناقض ، يتم تصوير الغرب جامعا مانعا . ليشمل الجميع. فليس من محاولة للتمييز ما بين الاحتكارات الرأسمالية والتركيبة العسكرية الصناعية والايديولوجيات الفاشية واليمينية من جهة ، والحركة التقدمية المناهضة للاحتكارات في الغرب، والتي تشارك ، وبشكل فعال ويومي ، في النضال المحتدم على صعيد العالم من اجل مستقبل افضل للبشرية من جهة اخرى .

★★★

يثير تعامل المؤلف مع المقتطفات ، وخاصة الرقمية منها ، الانطباع بان الارقام لديه لا تعدو كونها اداة تزخرف المقال، أو اداة تزيين تبهر القارىء او تبلبله . كما هو الحال ، بشكل خاص ، في المقالات الاربع الاولى . ويبدو هذا الاسلوب ، في التعامل مع الارقام والمفاهيم المقتطفة ، دونما ضابط واضح، طبيعيا في السياق العام للمقالات التي يحويها الكتاب . فما هو مهم ، اولا واخيرا ، هو الوصول الى الاستنتاج لا حيثياته . فليس من مهمات القارىء ان يمحص في استنتاجات «معززة» برقم هنا واقتطاف هناك .

فمثلا ، تعرف عن صاغية ، عن باحثيين بريطانيين ، «في ١٩٦٦ لم يزد الريفيون عن ٤٠ بالمئة » (ص ٣٨) بينما تؤكد مصادر اخرى (لباحثين امريكيين) ان نسبة الريفيين ، في سنة ٦٧/ ١٩٦٨ ،هي ٦٢ بالمئة من السكان (او حوالي ٢٦,٨ مليون نسمة) ★

وعلى الرغم من مركزية الريف في تصورات صاغية حول ايران ، واهمية الاطروحات التي تعتمد على الريف ككذا ، وعلى الريف كمصدر للهجرة من جهة وكاحتياطي للثورة ، فان ارقام صاغية تسقط من الحساب اكثر من ثمانية ملايين ريفي ، هم الفرق ما بين ٤٠ بالمئة و٦٠ بالمئة !

ولان المهم هو الاستنتاج ، بعد ملء حيز كاف ، فلا يهم ان يقرأ القارىء عبارات تشكل استهانة بابسط قواعد العلاقة ما بين الكاتب الذي يتعامل بجدية مع معطياته وبين قارئه .

كالقول « بان ايران التي لم تعرف الهيروبين قبل عام ١٩٥٣ صار ٢٠ بالمئة من شبابها تحت الثلاثين مدمني هيروبين عام ١٩٧٠ » (ص ٢٨)

او كالاستشهاد «بمناضل ايراني» ادعى بان « هناك مناطق في ايران يجهل سكانها من الذي يحكم البلد » . (ص ٣٠)

في وقت كان ممثلو السلطة واجهزتها القمعية ، وخاصة السافاك ، يوزعون الخوف والرعب في كل زاوية من زوايا ايران .

ويتخذ اسلوب حشو الصفحات بشكل ادعائي طابعا مسليا ، كالقول بأن تركيا لا تحوي الا اقلية واحدة هي الكردية ، او الادعاء بأن منظمات الكفاح المسلح الايرانية قد استعادت تعبير « فدائي » من الاسم الشائع لحركة الكفاح المسلح الفلسطيني – فدائيين » ص ١٢٠ ، في حين ان الاصل يعود ، كما هو معروف ،

* Carey , J . P . C . and Carey, A . G . , « Iranian Agriculture and its Development 1972 -1952 » . in **Int . J . Middle East Stud** . 7, 1979 P. 359 .

Digitized by Birzeit University Library

الى احدى المنظمات الارهابية اليمينية في ايران « **فدائيان اسلام** » ، **والتي قادت** عمليات الاغتيال السياسية ، منذ الحرب العالمية الثانية ضد معارضيها السياسيين سواء اكانوا من « الخونة » او كانوا من «المارقين الاسلام والملحدين» ·

او الادعاء بأن **احمد كسروي** (او ، كما يسميه **صاغية ، كزرافي**) هو احد كبار الداعين الى « العودة الى الزرادشتية » · والمعروف ان هذا المفكر الليبرالي وقف ، بحزم ، في وجه التيارات الرجعية لغلاة رجال الدين ، وكذلك في وجه السلطة القائمة ، مما اثار حفيظة الطرفين ، معا · وقام اثنان من عناصر « **فدائيان اسلام** » باغتياله ، في نهاية ١٩٤٥ ·

ويتكرر الطابع المسلي لاسلوب الحشو حين يخبرنا المؤلف ، وبنفس واحد « ان طهران نتيجة (للتنمية) ذات الطابع المتشدد في مركزيته ، مضافا الى ذلك تحولها الى حاضرة للسلع المستوردة ، صارت مصبا للهجرة من باقي المدن ، لا من الارياف وحدها · ففي العشرينات وصف **محسن الامين** ايران ، التي زارها ، بأنها « كلها اضاء بالنفط ، وليس بها كهرباء ، الا في طهران » · (ص ٤٠) ما علاقة هذا بذاك ؟! فبالرغم من كل مساوىء النظام الشاهنشاهي القائم الجمة ، فاننا لا نستطيع ان نحمله مسؤولية عدم تغطية ايران بالقوة الكهربائية ، في ١٩٢٠ ·

★★★

يمكن النظر الى هذا الحشو ، وحشر الاشارات الرقمية ، والمقتطفات ، بسبب او بدون سبب ، كوسيلة لاعطاء النص وزنا اكبر منه ، وكمبرر للوصول الى تلك الاستنتاجات التي يود المؤلف الا نفشل في استيعابها ، ومشاركته انبهاره بها ·

هناك « **استنتاجين** » رئيسيين ينطلق المؤلف منهما عند اول حرف من كتابه ، ليصل اليهما بعد ان يلوي عنق المعطيات المتوافرة ، في اخر حرف منه ·

فأولا وقبل كل شيء ، يجب ان نعرف « ان الدين والقومية يشكلان الاغراء الاعظم للنظرية الثورية في (العالم الثالث) عموما ، و (العالم الاسلامي) بالتخصيص » (ص ٩٦)·

وثانيهما متعلق **بالحزب الشيوعي الايراني ، تودة** (واحيانا الشيوعيين بشكل عام ، وشيوعيي العالم الثالث بشكل خاص) الذي « لا يزال يعيش على هامش التناقض الرئيسي في المنطقة : تناقض الاسلام مع البترول ··· » (ص ٦٨) ·

ولان هذا هو شكل التناقض الرئيسي في منطقتنا ، ولانهم يعيشون على هامشه ، فان تقصير الشيوعيين يكتسب خطورة تاريخية ، حسبما يرى المؤلف ، حيث ان « المؤامرة ما كانت لتمر ، دائما، لولا نزعة شيوعية ، على تفاوتها في العالم الاسلامي ، الى تغييب خصوصية القومية والدينية ، والميل الى ورع لا يقاوم تجاه الفكر الغربي ، وتبعية روحية للاتحاد السوفياتي تجعل الشيوعيين مرة يشردون يسارا ومرات يتبعون الجماهير متثاقلين متسائلين : أأصابت ام اخطأت ؟ » (ص ٦٨) ·

وهكذا يجد الشيوعيون انفسهم ، في ظل تصورات **حازم صاغية** ، امام معضلة لا حل لها ، ما داموا شيوعيين !

ويتأكد طابع هذه المعضلة من خلال تقييمه لتجربة الشيوعيين الايرانيين · فلقد « كان ملفتا للنظر ، بشكل دائم ، ان **تودة** لم يطور نظرية ايرانية خاصة عن الاقليات القومية ··· » (ص ٦٠)

Digitized by Birzeit University Library

اما لماذا يتوجب على الشيوعيين الايرانيين ان يطوروا « نظرية خاصة » بهم عن الاقليات ، عدا تلك التي تنطلق من حق تقرير المصير ، فهذا ما لا يسعى **صاغية** لشرحه لنا ولهم · بل على العكس ، فانهم انما كانوا يمارسون « حنبلية ماركسية »، حين وضعوا مشروع برنامج ، في ١٩٥٢ للاطاحة بالملكية ، وانشاء دولة ديمقراطية شعبية ، ومصادرة اراضي الاقطاعيين ، واعلان حق تقرير المصير للاقليات القومية· كما انهم حين يضعون ، في وقت لاحق ، برنامج للمرحلة القادمة ، فان ذلك لا يثير اهتمام المؤلف ، رغم ان برنامجهم اكثر تقدما من برنامج التنظيم الديني ، وحسب تقييم **صاغية** نفسه ، وذلك لان « العبرة ليست في البرنامج » !! (ص ٦٨) ·

ولان الدين والقومية هما « الاغراء الاعظم للنظرية الثورية ··· في العالم الاسلامي » · ولانهما لا يتطابقان دائما ، فاننا نستطيع ان نستخدم احدهما بدون الآخر ، اينما شئنا ، وكلما كان ذلك ملائما · ففي ايران ، حيث يسود تعدد القوميات ، يمكن النظر الى الدين باعتباره هو « الاغراء الاعظم » · بينما نستطيع ، اذا ما كان ذلك ملائما ، استعمال القومية بدون الدين « كاغراء اعظم » في مناطق اخرى · ولربما خلطنا شيئا من هذه وشيئا من تلك في مناطق ثالثة ، حسب المقام · بشكل عام ، وبالرغم من توجه حسن النية ، فلقد واجهتني صعوبة في فهم الاطروحة الاخيرة ، انطلاقا من معطيات الكتاب . وذلك لغلبة التشويش المفهومي : فهل الدين هو الاسلام ، بغض النظر عن مذاهبه ، فرقه، وطرقه ؟ وبغض النظر عن الفروقات داخل هذه المذاهب ، والفرق ، والطرق ؟ ام هو الدين ، كما يراه المذهب الشيعي الجعفري ، باعتبار ان ذلك هو مذهب **الخميني** نفسه ؟

فلا شك ان هناك صعوبة عملية ومفهومية ناجمة عن وضع **الخميني** ، ورؤيته لدور الاسلام الشيعي ، في نفس السلة التي يوضع فيها اسلام عدد من الحركات الدينية السياسية حول العالم الاسلامي ، من طراز **جماعة التكفير والهجرة** في مصر ، **والذئاب الرمادية** في تركيا ، **وهيئة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر** في السعودية ، **وجمعية الاصلاح** في الكويت ، **والحزب الفاطمي** في الخليج، **والتحالف الديني** ، الذي اطاح **ببوتو** في الباكستان ، الى اخر الامثلة ·

الا ان هذه الصعوبة لا تقف عقبة امام المؤلف !! فهو يرى ان هناك « خصوصية لرجال الدين الشيعة » ، الذين لا يستطيع اخفاء اعجابه بهم وبتعففهم · « لان عالم الدين الشيعي يعتبر مال الحكومة مالا يشك في انه مال حلال ، فكان يرفض كل عون مالي حكومي » · (ص ٩٠) جدير بالذكر هنا ان رجال الدين الشيعي يعتمدون على ما يجبونه من اتباعهم ، من زكاة وخمس (حق الامام) ، وهذا امر لا يتوافر لانداده من غير الشيعة ·

يريد المؤلف ان يفسر ، عبر تاكيد هذه الخصوصية ، وجود بعض رجال الدين الشيعة في صفوف المعارضة السياسية ·

لكننا لا نجد اي اثر لهذه الخصوصية حين ننظر الى حقيقة وجود البعض الاخر من رجال الدين الشيعة انفسهم في صفوف النظام مثلهم ، في هذا الصدد ، مثل اية فئة من الشرائح الوسطية · فهناك الكثير من آيات الله الذين لم يروا سببا في الشك في ان اموال الحكومة والشاه حلال · وهناك رجال دين ، بما في ذلك عدد من آيات الله ، الذين وقفوا ، ويقفون (حتى في زمن الخميني !!) في وجه حركة المعارضة · وما **الخوئي** ، **والكاشاني**

Digitized by Birzeit University Library

وبوروجيردي الا بعض ايات الله من هذا الطراز ·

من ناحية اخرى فان هذه الخصوصية المزعومة لرجال الدين الشيعة لم تكن غائبة عن ذهن الشاه ، ومن قبله والده رضا ، حين عملا على « الاستعانة ببعض كبار رجال الدين ، آملين تحويل الجامع الايراني الى وظيفة سياسية مشابهة لوظيفة الكنيسة الاسبانية في الحقبة الاولى من عهد فرانكو » (ص ٩٢) ·

ان هذا الانبهار الصوفي برجال الدين الشيعة لدى صاغية قد جعله يتغاضى عن مسألة هامة ، ألمح اليها ولم يتعاط معها ·

ففي الوقت الذي يقول فيه « ان الجماهير تحاكم الشاه من مخططها الديني للتاريخ ··· » (ص ٢٢) فانه يشير الى ظهور مشكلة « الغياب الكامل للريف في الانتفاضات الاخيرة » ، رغم ان هذا الريف يشكل ٦٠ بالمئة من سكان ايران (او ٤٠ بالمئة حسب حسابات المؤلف) · ما سبب هذا الغياب ؟ ما خلفياته ؟ ما هي انعكاساته في المدى القريب والبعيد؟

لا جواب · فليس من السهل تقديم جواب سريع · اذ بالرغم من تواجد رجال الدين الكثيف ، نسبيا ، في الريف الايراني ، فان تحركهم ، مثلهم مثل اية مجموعة سياسية اخرى ،كان اكثر فعالية ضمن أطار المدينة وحولها ·

واذا كان هذا الامر ينطبق حتى على هؤلاء وهم متواجدون كمؤسسة من الريف ، فلما لا ينطبق على الشيوعيين ، وهم الملاحقون الى درجة التصفية ؟ بالنسبة لصاغية تبدو الامور اكثر بساطة مما نظن · فمن السهل القاء اللوم حول سلبية الريف على حزب توده، باعتبار أن موقفه « كان اوضح النماذج على التعاطي الثوري الغربي مع العالم الثالث ··· ، وبسبب « ان سطوة النموذج البروليتاري على العقل الثوري خلق انكفاء عن الريف يواجهه حذر من ممثلي الثقافة الغربية وانكفاء عن (الالحاد) » · (ص ١٠٢) ·

وهكذا يتمازج الموقفان لدى صاغية·· فهو من جهة منبهر ، لدرجة التقديس ، بدور رجال الدين في الحركة الشعبية الايرانية ، ومن جهة اخرى يرفض ، وبشكل مبدئي ومتكرر ، التجربة الشيوعية في ايران ، بكل ما تمثله · الا اننا نود ان نسجل له موقفا ايجابيا رغم كل ذلك ، يتمثل في قوله « ليس جديدا ان الحد الادنى من العداء للشيوعية يمكن ان ينقلب الى حد اقصى من العداء للوطنية » (ص ٧٤) ·

ويكتسب هذا القول اهميته ، بتزايد مستمر ومتلازم ، مع تزايد تغلب الاتجاهات اليمينية داخل المعسكر الديني والتي تسعى لاحلال دكتاتورية العمامة محل دكتاتورية التاج ·

عبدالله خالد

Digitized by Birzeit University Library

جبرا ابراهيم جبرا البحث عن وليد مسعود .

بيروت ، دار الأداب ، شباط ١٩٧٨

في وصفه لرواية **جبرا ابراهيم جبرا** الثانية « **صيادون في شارع ضيق** » ، يقول المستشرق الانجليزي **دنيس جونسون ديفز** ان هذه الرواية هي رواية « افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى .

ينطبق هذا القول ، الى حد ما ، على روايته الاولى « **صراخ في ليل طويل** » ، واكثر من ذلك على روايته الثالثة « **السفينة** » . ويبقى هذا القول حاضرا في اذهاننا ونحن نقرأ رواية جبرا الاخيرة « **البحث عن وليد مسعود** » . فهذه الرواية هي امتداد متنام ومتجاوز لفن **جبرا ابراهيم جبرا** الروائي ، يرتبط بالاصول وبالتجارب السابقة وينميها .

وجبرا نفسه يؤكد .. « لا احسب هذه الرواية نقطة تحول في تفكيري واسلوبي، بمعنى قطعي ، بقدر ما هي امتداد منطقي لاول محاولة قمت بها في كتابة قصة .. » (مجلة « **الجامعة** » (العراقية) ، العدد الرابع ، ١٩٧٨) .

قمرة اخرى ، يقودنا جبرا الى عالم البورجوازية ، من خلال مجموعة من نماذج المثقفين البورجوازيين بعلاقاتهم الاجتماعية المتشابكة ضمن دائرتهم المكتظة بالكتب ، والتي تفوح منها رائحة الخمر، وأجساد النساء ، ويعلو الضجيج حول مسائل فكرية ارهقت المثقفين الغربيين منذ صعود البورجوازية الاوروبية .. وما تزال ترهق مثقفي البورجوازية ، رغم الطموح الذي يحركهم نحو التغيير .

عالم هؤلاء بخلفيتهم الطبقية والثقافية واهتماماتهم الفنية والفكرية ، وعالم الفلسطيني في وسطهم ، بورجوازي المنفى ، المتميز ذهنيا «وروحيا» ، المتنور الليبرالي ، والمفكر الموسوعي ، المشدود الى الذاكرة والوطن . عالم هؤلاء جميعا هو العالم الروائي **لجبرا ابراهيم جبرا** في عمله الاخير .

وليد مسعود هو هذا الفلسطيني ، وحوله تلتف شخوص الرواية ، تتداخل فيه ويتداخل فيها ، نتعرف اليهم وهم يبحثون عن انفسهم من خلال بحثهم الداخلي عن هذا الفلسطيني الذي اختفى عن عالمهم فجأة .

فالبحث عن وليد مسعود هو بحث عن الذات في الآخر ، يلخصه احدهم في الصفحات الاخيرة من الرواية بقوله : « يبقى لنا ان نتساءل : عمن هم في الحقيقة يتحدثون ؟ عن رجل شغل ، في وقت ما ، عواطفهم واذهانهم ، ام عن انفسهم، عن اوهامهم واحباطاتهم واشكالات حياتهم ؟ هل تتصاعد من أعماقها كما ربما هم انفسهم لا يعرفونها » (ص ٣٦٣) .

ان الدخول الى هذه الرواية هو دخول الى عالم هذه الشخصيات الداخلي ، والى صميم علاقاتهم الاجتماعية المتشابكة التي تمدهم بالمزيد من الامراض والتوترات النفسية . وهو ، في الوقت نفسه ، دخول الى عالم وليد مسعود الذاتي ، الذي

Digitized by Birzeit University Library

يلتقي من جهة ويتباعد من جهة اخرى مع عالم مؤلاء .. يلتقي في الحاضر وفي الهموم الثقافية والفكرية والوضع الاجتماعي بعلاقاته المتشابكة ، ثم ينأى اذ تشتعل الذاكرة ، وتبرز خصوصيته كفلسطيني منفي يرتبط بأرض وقضية تدفعه في النهاية ، الى الانفصال عنهم وعن عالمهم ، ذاهبا نحو اختيار آخر .

وحركة الشخصيات كلها ضمن الرواية، وتنامي الرواية ذاتها ، تستند الى فعل الذاكرة ، التي تفيض بمخزونها من التجربة اكثر من استنادها الى حدث ينمو امامنا في خط مستقيم ، بمعنى ان النمو الدرامي للرواية لا يتلازم مع تنامي زمني تصاعدي، بل يتم بمنأى عن ذلك ، في رحاب زمني عريض تمنحه الذاكرة للرواية ويكون قادرا على اختزال تجربة نصف قرن .

وكلما اطلت شخصية جديدة متحدثة ، ينكسر الزمن الذي وصلنا اليه مع من سبقه ، يقفز او يرتد ، فلا نتابع حدثا محوريا ينمو ، وانما شخصيات تنمو ، وعلاقات تنمو وتتشعب بين هذه الشخصيات التي تحكي عن ذاتها وتعدم رؤيتها للعالم والآخرين بتلقائية حينا ، وبوعي يصل الى حد المباشرة الذهنية ، حينا آخر .

ان ذلك لا ينفي توافر الحدث المحوري الآني الذي يفجر في الشخصيات ذاكرتها، ويشحتها بحماس الرغبة في البحث عن الذات في وليد مسعود ، وعن وليد مسعود في الذات .

والحدث هو اختفاء وليد مسعود . يترك بغداد ، ذات يوم ، مخلفا وراءه كل شيء .. اشياءه واصدقاءه . يقطع بسيارته الحدود ، وفي وسط الصحراء يتركها ، تاركا في مسجلتها شريط كاسيت بصوته .

يجتمع اصدقاء وليد كلهم ، وفي سهرة عند احدهم يستمعون الى الشريط الذي يتحدث فيه عن اشياء كثيرة ، حديث هاذ، متدفق ، مربك ، تنعدم فيه النقاط والفواصل ، ينعدم المنطق والتسلسل والترتيب الذهني .

ولدى القراءة الاولى ، يبدو هذا الجزء من الرواية ـ المنقول بحروف بارزة عن الشريط ـ لغزا محيرا امامنا ، وربما فذلكة روائية ان لم نقدر مبرراتها ، لكننا، شيئا فشيئا ، ندرك معنى هذا الهذيان ، اذ يتفسخ اللغز من خلال احاديث شخوص الرواية وتعرية علاقاتها ، وادراكنا لخلفية وليد الاجتماعية والتاريخية . وما لم يتفسخ يبقى مدعاة لتساؤلاتنا ومشاركتنا في البحث ، بل يمنحنا ابعادا جديدة لهذه الشخصية لم تبشر الرواية اليها الا في هذا الجزء الهاذي . فينبسط اللغز امامنا في الرواية . وقد اضحى واضحا ، تماما ، مثلما وليد مسعود نفسه ، بدأ امامنا لغزا وانتهى واضحا وحقيقيا .

اما اصدقاء وليد الذين استمعوا الى الشريط ، فان الحديث اخذ يحيرهم . بعض التفاصيل التي لم تكن مفهومة لنا بدت مفهومة لهم ، وبعضها الآخر اسقطهم في الحيرة : فمن هي « شهد » التي يتحدث عنها وليد . انهم لا يعرفونها ، ولم يسمعوا عنها قبل الآن ، رغم ادعائهم بمعرفة علاقاته !

ولكن الحيرة الاكبر تظل تكمن لديهم في التساؤل العريض : اين اختفى وليد مسعود ؟

يظل التساؤل عالقا في الاذهان ، وتبقى الاجابة في حدود الاجتهاد والاشاعة : انتحر . قتله الاعداء . تآمر عليه الاصدقاء . سافر الى لبنان . الى لندن . عاد الى الارض المحتلة . وجد مقتولا على بعد كيلومترات داخل الحدود اللبنانية . وكلها تقولات .. اوهام .. احتمالات .

ولا أحد يبحث عن وليد على أرض

Digitized by Birzeit University Library

الواقع ، رغم العنوان العريض المخادع ، لكنهم كلهم يشرعون في البحث عن وليد في داخلهم · وخلال عمليـــة البحث ، تتكشف ذواتهم ، لهـــم ولنـــا ، عارية محبطة ، ممزقة ·

يغدو وليد الغائب حاضرا في اعماق كل شخوص الرواية · انه القطب الرئيسي الذي ينشدون اليه جميعا · وعلى الرغم من تحدثهم بلغة الأنا ، الا أننا قلما ندرك هذه الأنا باستقلالية عن الآخرين ، وعلى الاخص ، باستقلالية عن وليد الذي يشكل جزءا كبيرا مندغما في أنا الآخرين ، في عمق تجربتهم الاجتماعية ووعيهم الذاتي· فوليد يعني ، بالنسبة لكل شخص منهم ، شيئا اكثر مما يعنيه كل شخـــص منهم للآخر ·· هو محورهم ، وهو متداخل في تفاصيل ومسامات كل فرد فيهـــم ، وفي مجموعهم ككل · اقتحمهم في حضوره ·· وفي غيابه ظل يستوطنهم ·

وليد ، اذن ، في الرواية . شخصيـة مستقلة ومتميزة ، لكنه ، في الوقت ذاته ، بعلاقته مع هؤلاء الآخريـــن ، يمثل بقعة تسقط عليها بقيـــة الشخصيات ما في دواخلها ، همومها ، اوهامها ، طموحاتها أحلامها المنهارة وتمزقاتها · ومن قراءة الاسقاطات فوق تلك البقعـة ، يرسم لنا الكاتب شخصياته ، بدقـة ، في علاقتها بذاتها ، علاقتها بالدائـرة المحيطة التي تضم الآخرين ، وبما يصلها بذلك الكيان الانساني الغريب ، الخارق ، الذي اختفى عن عالمهم فجأة ، وباختفائـــه تكشفت الاعماق ، حينما انفجرت الذاكرة سدودا تفضح الدوامة التي يعيشون فيها ·

في السطور الاخيرة مـــن الرواية ، يلخص جـــواد حسني (أحد شخوص الرواية) وليد مسعـــود بجملة بالغة الدلالة والكثافة اذ يقـــول انـــه ·· **حيثما كانت الحياة صراعـــا مستمرا ، وتحديا مستمرا ، وحبا مستمرا** – وهذه كلها تحتـــم خلـــق العلاقـــات التي تتضارب فيما بينها – **كان حاصل الاجزاء معا اكثر من مجموعها بكثير** · وهـــل كان وليد الا حاصل حياته وحياة المحيطين به ، حاصل زمانه الخاص وزماننا العام في وقت واحد ؟ وأي زمان كان كلاهما ، زمانه وزماننا » (ص ٣٧٩) ·

على المستوى الروائي ، لا يحكي وليد في الفصول التي يتحدث فيها بلغة الأنا ، الا عن حياته الخاصة وزمانه الخاص · اما الآخرون ، عندما يتحدثون ، فانهم يحكون عن حياتهم الخاصة ضمن الحياة العامة ، أي ضمـــن علاقاتهم ببعضهم والذي يشكـــل وليد جـــزءا من هذه العمومية ، مثلما تشكل ، بدورها ، جزءا من شخصيته ·

والحياة الخاصة لوليـــد تختزنها ذاكرته ، وهي ترتد الى زمن آخر ، غير الزمن الذي تتحرك فيه ذاكرة الآخرين من مثقفي الرواية ، كما انها تنتمي الى مكان آخر ، يبتعد عن مكان الآخرين ·

حياة وليد الخاصـــة هي طفولته ، وشبابه ، التي تستولى تفاصيلها عـلى الذاكرة ، ولا تلتقي في أية نقطة قديمة مع حياة اي من الذين يحيطون به من هؤلاء المثقفين ، تلك الحياة التي نبتت جذورها على ارض فلسطين في زمن بداية الصراع مع الوجود الصهيوني ، وضمن شروط اقتصادية عائلية مغرقة في بؤسها · انه الفلسطيني الوحيد بينهم ، دخل الى عالمهم بلا ميراث عائلي او اقتصـــادي وانما بجهده الذاتي الذي تجاوز فيـــه البؤس الاقتصادي الذي شهده في ماضيه · هذا التحول الاقتصادي ، منحه اجازة الدخول الى هذه الطبقة ، فاختلطت شخصيته في اطار جديد،وسط اجتماعي جديد وعلاقات جديدة ترويها شخصيات اخـــرى في

Digitized by Birzeit University Library

الرواية ·· وكل ذلـــك ساهم في رسم وتحديد شخصيته الراهنة ، دون ان تنفي عنها خصوصياتها ·

وعندما يعبر بنا جبـــرا الى ذاكرة وليد ، لا نجد اكثر من حياته الخاصة في زمانه الخاص · فهو ابن العربجي الذي يقطع بعربته الطريق بين بيت لحم والقدس قبل ان تستولي عليها السيارات · هو شقيق « الياس » الذي استشهد في عملية ارهابية صهيونية · هو الذي تلقى تربية دينية في الدير ، والذي خـــاض تجربة فاشلة في التنسك · درس اللاهوت واقلع عنه·· اقلع لانه اراد أن يوحد بين التأمل والفعل ·· واللاهوت مجرد تأمل·· «اتمنى عندما يتحقق لي الفعل (في وطني ! في وطني ! كنت اقول) ، أن أجد بينه وبين التأمل وشائج فكر اعـرف أن أوغسطين نفسه كان سيرى فيها انقـــاذا لي من السقوط » (ص ١٩٣) ·

وان لم تستطع التجربـــة الدينية ان تكتسح وليد في مدها حتى النهاية ، الا انها ظلت تترك بصماتها في نفسه حتى اللحظة الاخيرة · لقد ابتعد عـــن الغرق الكلي في هذه التجربة ، لانه لم يستطع نكران الوطن ونكران ، الجسد : « وجدتني عاجزا عن نكران جسدي كليا ، وعيني تلتهم وجوه الفتيات في الكنيسة ، بنهـم شرير ، كأنها تريد ان تحتوي في داخلها جمالا يكون زادا لمتعتي الحبيسة في الايام والليالي الكثيرة التي لن ارى فيها ، في أروقة الدير ، وجها لامرأة » · (ص ١٨٩)

بانفصاله عن اللاهوت ، عبـــر وليد مسعود الى دائرة الفعل · اختـــار الفعل بعد ان اكتسب من اللاهوت قدرة التأمل · كانت اوضاع الوطـــن هي محور التأمل ، فنقل تأمله من الميتافيزيا الى السياسة ، وكتب العديد من المقالات في الصحافة · وكانت اوضاع الوطن تتطلـــب الفعل ، فالتحق بالمجاهدين ، وشارك في عملياتهم، ثم التحق بجيش الانقاذ · وذاكرة وليد ما زالت تحتفظ بذكـــرى عذبة تمطر في القلب عندما يهمي المطر ، ذكرى عملية فدائية شارك فيها عام ١٩٤٨ ، تمتزج مع امطار ليلة جاءت بعد عشرين عاما ،بعد احتلال الارض ، عام ١٩٦٧ ، وكـان قد عاد اليها ، ليواجه التحقيق حول وضعه التنظيمي ، والتساؤلات حول تلك الليلة من ١٩٤٨ ·ثم يواجه السجن والنفي من جديد ·

وبانفصاله عـــن اللاهـــوت ايضا ، يقترب وليد مسعود بجسارة نحو الجسد، لكن الخطوة الاولى ، التجربة الاولى في هذا الاقتراب ، خذلته حينمـــا كانت مع مومس ·· « ان كانت هـــذه هي المرأة ، فلتحـــرم عـــلي النساء » ص ١٩١) · لكن المرأة لم تحرم على وليد بعد ذلك · هو لا يتحدث عن شبقه وعلاقاته ، التي نمت فيما بعد ، لكننـــا عندما نستمع للاخريات في حياة وليد ندرك كم كان مخلصا للجسد ، اخلاصه للروح · انه يوحد بين هذه الاضداد ويجعلها تتجادل· تقول وصال : « خطاياك معي كثيرة ، وليس أقلها انك علمتني هـــذه الكلمة : (الجسد) وانت اشد مـــن عرفت في حياتي تعلقا بأمور الروح ، بأمور الذهن، بأمور لا تمت للدنيا بشيء · اوقعتني في خطيئتك : ان تلهب الجسد ثم تبحث عن الجمر في الروح » (ص ٢٧٢) ·

هكذا ، تحتل المرأة ، الجسد ـ الروح ، مكانها في شخصية وليد مسعود ، وتترك بصماتها في شخصيته ·

تترك « ريمه » ، زوجته ، أثرا مـــن المرارة في أعماقه اذ ترحل ، حيث يلقي بها مصيرهـــا الى مستشفى الامراض العقلية في بيت لحـــم · وتعتز « رباح كمال » بالقبلة الاولى مـــن وليد · ثم

Digitized by Birzeit University Library

غيرهن · معظم الشخصيات النسائية في الرواية لها دور في حياته ، وله مكانة في حياتهن · « مريم الصفار » · و «جنان الشامر » · و « وصال رؤوف » ·· وغيرهن ممن لا نتعرف اليهن ·

ومثلما يبحث وليد مسعود في المرأة عن التزاوج بين الروح والجسد ، فانه يبحث فيها عن التزاوج بين العشيقة وآلام المرأة ـ الام ، التي ربما تحمل رمز الدلالة للمرأة ـ الوطن · فهو اذ يهجر كل النساء نحو الوطن ، يشير بصوته في الشريط الى ذلك البحث · « ·· وجواد يكتم دهشته لكثرة ما عرفت من النساء باحثا عن تلك التي لها عناد امي وكبرياؤها ويزعم انه ما عاد يفهمني وانا الذي ما فهمت يوما احدا ··» (ص ٣٤) ·

لقد استطاع وليد مسعود ان يحقق المصالحة في ذاته بين الاضداد ، فانبرى امامنا ذلك النسيج الانساني المتشابك بركام من المتناقضات · فقد استطاع ان يحقق المصالحة بين الروح التائقة الى التأمل والجسد المتفجر شبقا وتوقا للالتحام بالمرأة · استطاع ان يوجد في علاقاته اكثر من امرأة ، في آن واحد · صالح بين التأمل والفعل ، وزواج بين الكلمة والعمل ، وبين اللاهوت والسياسة، ونفي الفقر بالغنى ·· « قاوم ، وانتج ، وولد ثراء ، واستولد افكارا » (ص ٨٣) · هادن بين الايمان بالعلم مع ايمانه بالغيب ، وزاوج بين الصمت الغامض وطلاقة اللسان · احرق المسافة بين الأنا والآخر ، لا بانكار الأنا ، وانما بدمجها ، قدر المستطاع ، مع الآخر · لكن شيئا واحدا عجز عن صنعه ، وهو تحقيق المصالحة بين المنفى والوطن · وفي لحظة الحسم ، كان لا بد لوليد من الاختيار ، وقد اختار الوطن في النهاية ·

كان ذلك هو اختيار وليد ، وهو سر اختفائه ·

قد يبدو هذا الاختيار فجائيا ، بحيث اننا لم نقف في الرواية مع وليد في لحظة القرار، لكن المفاجأة تنتفي اذ نتعرف على الارث النضالي لهذا الرجل ، وهمومه الوطنية ، وجرمه الذاتي المتمثل في استشهاد ابنه الفدائي « مروان » ، وقناعاته السياسية كبورجوازي وطني :

ـ « ·· كان ، منذ خمس وعشرين سنة ، يدعو الى تأليف جماعات سرية ، كجبهات الفدائيين اليوم ، ولا يصغي اليه احد في تلك الايام ·· » (ص ٨٣) ·

ـ « ··· والثورة لديه ليست مجرد تغيير طبقي في نظام الحكم او مجرد وضع اليسار مكان اليمين ، او بالعكس، الثورة لديه هي وضع العربي في خضم العالم الكبير ، واثبات قدرته على الصمود من جهة ، وعلى العطاء من جهة، (ص ٣٢٢) ·

ـ « ·· أنت تفكر بالتغيير بموجب قوة تفرض من فوق · انه تغيير من عبودية الى عبودية · اما أنا فانكر بالتغيير بقوة تنبثق من الداخل · من عبودية الى حرية · من داخل الانسان » (ص ٢٠١) ·

ـ « ··· الشجاعة الوحيدة التي تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل ، بالفعل العنيف ، حيث يكون في الموت نفسه غلبة على الموت » (ص١٥)·

هكذا كانت حياة وليد مسعود ، صراعا مع العالم من اجل تغييره بالحب ، بالتمرد ، بالسياسة ·

وعبر ديالكتيك الذاتي والموضوعي تتكون الشخصيات الروائية لدى جبرا · فرغم الاستقلالية النسبية لكل شخص فيهم ، الا اننا نتعرف اليهم من خلال علاقاتهم المتفاعلة والمتبادلة · وبعلاقتهم

Digitized by Birzeit University Library

بوليـــد هم جزء من شخصيته كما هو جزء من شخصياتهم ·

وليست شخصية وليد هي الشخصية الحاضـــرة والفاعـــلة فحسب فـــي الرواية ، فللآخريـــن حجمهم وحركاتهم ونبضاتهم ووجودهم المادي والدرامي ، فهم ليسوا ظلالا باهتـــة لوليد · وجبرا نفسه يؤكد هذا الحضور لكل الشخصيات في كل رواياته : « ·· عندمـــا اريد ان اكتب رواية لا اوجد بطلا واحدا، بل اخلق ابطالا ، فالبطل الواحـــد هو موضوعة رومانسية ، ومن صفات الرواية في القرن الماضي · ابطالي مهمون كلهم ، والعلاقات فيما بينهم هي الرواية » (مجلة « **شؤون فلسطينية** » ـ عدد ٧٧ ـ نيسان ١٩٧٨)·

والشخصيات الاخرى ، في معظمها ، تمثل وجها من وجـــوه البورجوازية ، مثقفون بورجوازيون يحتلون اركانهم في بغداد ، يتوزعون بين انتماءاتهم لطبقتهم وانتماءاتهم لتيارات فكريـــة مختلفة ، تصـــل الى حـــد الالتـــزام الصوري بالفكر الذي يتناقض مع مصالح طبقتهم· فجواد حسني ، برصانته الاكاديمية ، يلعب دور المراقب الواعي في الرواية ، يرصد الاحداث والشخصيات الاخرى ، لكن وليد مسعود يظلمحور اهتمامه فيها· وعامر عبد الحميد ، المستند الـى ارث العائلة الاقتصادي ، والشيوعي القديـم الذي بات لا يبحث عن تغيير العالم ، لان التكنولوجيا تفعل ذلك عوضا عنه ، يبدو متناقضا مع وليد ، الا انهمـــا يظهران وكأن احدهما يكمل الآخـــر · وابراهيم الحاج نوفل ، الكحـــولي المتشدد لفظيا بالثورة ، والمنفصل تماما عن اللفظ ، اذ يوضع على محك الفعل ·· انسان حاد ، مندفع ، نزق ، ممتلىء بالشك فيمن حوله ··· ورغم اختلافه ـ فكريا ـ مع وليد ، الا ان علاقتهما تبدو منسجمة ·

وغيرهم · كاظـــم اسماعيل ، ككل النماذج « الماركسيـــة ! » التي يقدمها جبرا ، بورجوازي يدعي الالتـــزام بفكر الطبقة العاملـــة ·· لكنـــه يتناقض في ممارساته معها ، وعلاقته بوليد تنتقل من العداء الى المودة· والدكتور طارق رؤوف، الذي يرى العالم والآخرين مـــن منظوره الخاص ، مجال تخصصه ، السيكولوجيا ·· فنراه يبحث عـــن وليد في نظريات « يونغ » حول عقدة الام ، التي يتمثـــل وجهها السلبي في الدونجوانية ·

ومن النساء ، تبـــرز مريـــم الصفار بحضورها وثراء شخصيتها الروائيـــة · متزوجة تعسة ، ومطلقة منطلقة · احبت وليد ، اقتحم جسدها الشبق فأروى ظمأه· نراها جميلة ، « متحررة » لا تضع رادعا امام الحاح جسدهـــا المتفجر ، فاقامت علاقات تصل الى حد الابتـــذال والهوس الجنسي ، عرفها الدكتور طارق ، وعامر، وآخرون اضافة الى وليد · ومثل الآخرين، تمتلك نزعات ادبية ، نعرفها من خـــلال مذكراتها التي تتكشف امامنـــا لاهثة ، متقطعة ، متوترة ، تكشف عن ذواتها التي تظل فيها حتى النهاية ·

لكن المرأة الاكثر قربا لوليد هي وصال رؤوف شقيقة الدكتور طارق · فتاة احبها وليد بصدق وسماها « شهد » ، وهـــي بدورها احبته · علمها الحـــب وعشق الجسد ومعرفة العالم ·· وكانت الوحيدة التي لم تقف في البحث عنه بعد اختفائه في داخلها فحسب ، وانما في العالـــم ايضا ، وعندما ادركت مكانه ،لحقت به· لقد فهمت وليد انسانا غير معزول عـــن قضية فكان اختياره اختيارا نهائيا لها · انها المرأة التي يتحقق فيها ما يبحـــث عنه وليد ·· المرأة التي تحمل عناد الام وكبريائها ·

وشخصيات اخرى ، نعرفها داخل هذا الوسط · جنان الشامر ، التي ارتبطت في فترة ما بعلاقة مع وليد ·· ثم انتهت الى

Digitized by Birzeit University Library

زواج بلا مقدمات مع كاظم · والفلسطينية رباح كمال (رغم هامشيتها في الرواية وبعدها الجغرافي عن الوسط) التي تدعي علاقة قديمة بوليد · وسوسن عبد الهادي، الرسامة الارملة ، التي اعجب بها كاظم وتزوجها ابراهيم ·

وعلى البعد التاريخي والمكاني ، تزخم الرواية بشخصيات اخرى : مروان ، ابن وليد الذي استشهد في عملية فدائية، وظهر في احد الفصول متحدثا بالأنا عن العملية التي استشهد فيها· وعيسى ناصر تاجر الموبيليا المقيم في عمان ، والذي تختزن ذاكرته تاريخا ثريا لحياة مسعود الفرحان (والد وليد) في فلسطين ، والذي اقحمه جبرا في الرواية لكي نتعرف من خلاله، على الجذور العائلية لوليد مسعود ، ضمن شروط اقتصادية وتاريخية يرسمها عيسى الناصر دون ان يمثل ، بدوره ، شخصية فاعلة في الرواية · انه يقدم شهادته ·· ثم لا يعود للاطلالة علينا من جديد ·

وغير هؤلاء ثمة العديد من الشخصيات التي تعبر الرواية ثم تختفي، مثل عبورها واختفائها في حياة الانسان دون ان تنسى ·· اصدقاء الطفولة ، اقارب معارف ، وانماط شخصية اخرى نلتقي بها في حياتنا ·

نتعرف على هذه الشخصيات لا من خلال محدداتها الاجتماعية والفكرية فحسب ، وانما من خلال انماط سلوكها اليومية وعلاقاتها المتشابكة والمتداخلة معا الجمعية والفردية ، الآنية والتاريخية، وصلتها بوليد مسعود كفرد، وكفرد في اطار مجموعة ·· وكانسان له تاريخ وحاضر ومستقبل ·

يستجيب الشكل الذي يلجأ اليه الكاتب، في كل مرة ، للحالة التي يزمع نقلها الينا، فجبرا يسيطر على أدواته بمقدرة ، يضع حروفه وكلماته في مواقعها لترسم اللوحة التي ارادها · فبالاسلوب ذاته ، وبالقدرة ذاتها، يرسم جبرا عالمين مختلفي الالوان· يبني عالم البورجوازية ويرسم علاقاته امامنا بثقلها وهموم مثقفيها · وعلى المستوى الآخر ، وبالاسلوب ذاته وبألوان اخرى ، يلملم الاجزاء المتناثرة من العالم القديم ويعيد صياغتها ببساطة تنسجم مع بساطة الفقراء وهمومهم ·

هذا الشيء، ينطبق تماما على الحوار، فهو في عالم المثقفين يبدو ثقيلا ، يغرق فيه الكاتب ويغرقنا في ذهنية تغتصب الثراء الفني ، وان كانت تحمل مبرراتها المنطقية ، طالما ان الحوار يجري بين مجموعة من المثقفين · لكن المستوى الآخر للحوار ، اذ يتم على السنة الناس البسطاء ، فانه يأتي مستجيبا لتلك البساطة التي تميز حياتهم وشخصياتهم·

وان كانت اللغة الصلبة ، الواثقة ، والذهنية احيانا، هي التي ينسج بها جبرا روايته ، فان الشعر يظل يفيض من بين السطور · واذا كان جبرا شاعرا اضافة الى كونه روائيا ، فقد يكون من اجمل قصائده ذلك الفصل في الرواية تحت عنوان «وليد مسعود يخترق امطارا تتجدد» ، ففيه من حرارة الشعر ما يكثف التجربة ويحلي احساسنا بالمرارة ·

فاروق وادي

Digitized by Birzeit University Library

مناحيم بيغن. ألارهاب. ترجمة معين أحمد محمود .

بيروت، دار المسيرة، آب ١٩٧٨

هكذا شاء المترجم ان يعنون الكتاب ، ليعود الى التنويه على الصفحة الرابعة بأن : هذه هي الترجمة العربية لكتاب (The Revolt) وترجمتها العربية هي « الثورة » .

« العالم لا يشفق على المذبوحين ... لكنه يحترم المحاربين » بهذه العبارة يبدأ المترجم تقديمه قائلا انها تلخص كل رؤيا « **مناحيم بيغن** » السياسية ، التي ترجمها منذ ان تعرف على الفيلسوف الصهيوني المتطرف **فلاديمير جابوتنسكي** الى سلسلة طويلة من القتل ... و « التبشير » بالقتل .

والحقيقة انني ، وان كنت من انصار التفسير المادي للتاريخ ، اراني اميل - عند دراسة مذكرات الشخصيات التاريخية او سير حياتهم - الى عدم اغفال الجانب السيكولوجي في تفسير وتفحص هذه المذكرات او السير . فهاهي **يوميات بيغن** ، التي بين ايدينا ، تثير الدهشة ، لدى قراءتها ، كلما حاول المغالطة في امر من الامور ، ظانا انه قد تمكن من اقناع الطرف الذي يناقشه في هذا الامر ، ومفترضا انه سيكسب تأييد القارىء لوجهة نظره . مع ان كل محاولاته ، او معظمها ، هشة وعارية من البرهان العقلي او الدليل الذهني المقنع . وربما كان مصدر قوته وفعالية تأثيره في من كان يتعامل معهم ، في هذا الموقف او ذاك ، اجادته لفن الخطابة وامتطاء النعرة المتطرفة ، التي كان يدغدغ بها حواس جمهوره من اليهود ، او رجاله من الجنود المغامرين .

واستطيع القول بأنه ، في تبريره لكثير من الامور او المواقف او الاحداث ، كان يزيف الاسباب او المبررات ، ويدافع عنها باستماتة ، رغم أنها غير مقنعة ، بل يبلغ حد التباكي عليها ، رغم فشلها ... ترى هل كان يقع هو ، ذاته ، اسير اوهامه واكاذيبه ؟!

يقول **بيغن** : ان فلسفة **جابوتنسكي** كانت السائدة في منظمة « **الارغون** » ، الا انه استعان ، ايضا ببعض الجوانب « الخلاقة » في فلسفة **هرتزل** في فهمه للانسان - كما جاء في مقدمة المترجم - فقد كان **هرتزل** يعتبر ان الانسان هو « مخلوق سطحي ساذج ، لا عقل له ، يخضع لارادة العباقرة ، ويضحي بنفسه من اجل الرموز والطلاسم ... وهو حيوان خال من البراءة » .

وهكذا اراني اؤيد قول المترجم بأن **بيغن** قد طبق الفهم الهرتزلي للانسان في عملية التشكيل النفسي لاعضاء **الارغون**» . ولكن هذا الفهم لم يتح **لبيغن** التعامل به مع غيره من السياسيين ، واندادة من الزعماء الصهاينة . «فلم يكن **بن غوريون** اقل تصلبا منه ، وان كان يشار الى انه كان اكثر تعقلا » حسب تفسير المترجم الذي اراه غير دقيق ، والذي ارى ، تصحيحا له ، ان هذا الاختلاف بين

Digitized by Birzeit University Library

الرجليـــن هـــو بيـــن رجـــل الحسابات (**بن غوريـون**) ورجـــل الشعارات (**بيغن**) ، وبين من هـــو في موقع المسؤولية امام جمهوره وامـــام الاطراف الدولية التي يتعامل معها ـ حتى قبل عام ٤٨ـ ، ومن لا يشعر بأنه مسؤول امام احد · واخيرا بين المحنك الـــذي يعنيه الهدف ، ولو احتاج الامر الى بعض التنازلات بين حين واخر ، والحالم الذي يرفع عقيرتـــه بالصـــراخ والشكوى والشعارات كلما عن له ان يعتبـر نفسه مظلوما مهدر الحقوق · والا ··· فلماذا ظل **بيغن** بعيدا عن صنع القرار السياسي في الكيان الصهيوني ، طيلة ما يقرب من ثلاثين عاما ؟ غير قادر على الوصـــول الى الحكم ، رغم انه اكثر « حرصـا » ، من وجهـــة نظره ، على المصلحـــة الصهيونية ؟

لم يصل **بيغن** الى السلطة الا في عام ١٩٧٧ ، بعد ان جدت متغيرات عديدة ، اهمها بروز احتمال ان يواجه الكيـــان الصهيوني هزيمـــة بسبب مـــا اسموه « التقصير » في حرب ١٩٧٣ ، على يدي الحزب الذي ظل متسنما سدة الحكـــم بصفة تقليديـــة طيلة الحقبة السابقة ، وكذلك من المتغيـــرات ، ما طرأ عـــلى اساليب **بيغن** التكتيكية من تعديل ، دون مساس بجوهر استراتيجيته التوسعية ، المبنية على العنف القمعي والدموي ·

يبدأ **بيغن** يومياته في سجن **لوكشكي** بموسكو ، اثناء الحرب العالمية الثانيـة بتهمة العمالة لبريطانيا ، حيث كان قد اصبح ، قبـل الحرب بسنة ، رئيسا لمـا اسماه حركة « **البيتار** » الصهيونيـــة في بولندا ·

لنستمع الى وصفه لبولندا بقولـه : « بلد الملايين من اليهود المبتلين بـــداء المجاعة ·· المضطهدين ، والذين يحلمون ببيت المقدس وجبل صهيون بالقدس » ··

(لا شيء عن بولندا الا انها بلد الملايين من اليهود ···) ، ويكمل : « عمـــلت واصدقائي على تثقيف جيل يكون جاهزا ليس للعمل على اعادة بناء دولة يهودية، بل ايضا ، للمحاربة من اجلها ، والمعاناة من اجلها ، واذا احتاج الامر الموت من اجلهـا » ·

ويواصل ، بما معناه ، انه اثنـــاء عملـــه هذا « قامت هنـــاك على ارض (اسرائيل) اول قوة عبرية »، « **الارغون زفاي لئومي** » (المنظمة القومية العسكرية) معتبرا انه من هنا ابتدأ الهجوم المعاكس « ضد الذين سعوا الى دمارنا » ، بهـدف « كسر سياسة ضبط النفس التي تبناها الجبناء من القـــادة اليهود في وجـــه الهجمات العربية ، كاسرين ابواب البلد الموصدة ، حيث كان هذا العمل بالنسبة لي وللآلاف من الشباب عمـــلا في ذروة العدالة ··· والشروع في هذا العمل كان امتيازا عظيما . وواجبا مقدسا تجـــاه بلدنا ، الذي كان مهددا بالاغتصاب من الآخرين !!··· وواجبا تجاه شعبنا حيث كان على حافة جحيم الدمار ، وقد حاولنا ان نقوم بواجبنا » ·

هكذا ، عبارات طنانة مفخمة دون دليل عقلي واحد ، وزعـــم اجوف لا يسنده منطق او حجة · فما موقف الغير من هذه الخطبة العصماء ؟ لنستمـــع اليه يسرد رأي حارسه الضابط الروسي الشاب : « اما مستنطقي اللطيف فكان ينظر الى عملنا هذا نظرة مختلفة كليا ، وقد كـــان افتراضه الاساسي هراء مذهلا ، بينمـــا كانت لغته العالية التي بنى عليها قاعدته تامة تقريبا ··· خلال تلك الليالي الطويلة من الاستنطاق قال لي الضابط الشاب: ··· « الصهيونية في جميع اشكالها ما هي الا مسرحية هزلية مضللـــة ، او بالاحرى معرض للدمى المتحركة· انه ليس حقيقيا، انك تهدف الى ان تشيد دولة يهوديـــة

Digitized by Birzeit University Library

في فلسطين ، وانك تقصد ان تجلب الملايين من اليهود الى هناك . كلا ... الهدف غير عملي تماما ، وان قادة الصهيونية يعون هذه الحقيقة وعيا تاما . وهذا الكلام عن الدولة يوازي الغرض الحقيقي للصهيونية ، والذي هو تحويل الشباب اليهودي من قوات الثورة في اوروبا ووضعها تحت تصرف الرأسمالية البريطانية في الشرق الاوسط . هذا هو جوهر الصهيونية ، وما تبقى ما هو الا قشرة مزيفة قصد بها التضليل فقط » .

يعود **بيغن** الى ديماغوجيته بقوله : « حاولت ان اظهر له خطأ ارائه ، وذلك بشرح ان حافز اليهود للعودة الى ارض (اسرائيل) هو حافز حقيقي وعميق » . ويتساءل ملء شدقيه : « كيف يكون ذلك مجرد تمويه وقد دافع عنه اليهود اكثر من الفي سنة ، من جيل الى جيل ، قبل أن يحلم الناس بالرأسمالية والاشتراكية ، وكيف تكون الصهيونية مسرحية هزلية ، واسسها تقبع في الروابط الروحية بين اليهودي وارض (اسرائيل) ، وعبرت عن نفسها في الصلوات والنصيحة النفسية للملايين » ؟ ...ولكن... يتأفف **بيغن** ويتميز غيظا مضطرا الى الاعتراف : « كل جهودي ضاعت سدى ، كل مناقشاتي لم تفشل فقط في اقناعه ، بل انها ارتدت علي » .

ويستمر الجدل سجالا بينهما ، دون ان يستطيع **بيغن** اقناع الضابط الشاب الذي يبدو من منطقه استناده الى واقع وتطور التاريخ ، بما لا يجعل من السهل وقوعه تحت تأثير تهويمات وعواطف رجل يجتر عهودا بائدة ، واحلاما لا تستند الى منطق تاريخي او علمي . ثم يصدر العفو عن البولنديين فيطلق سراح **بيغن** بعد ان كان مسوقا الى احد معسكرات العمل ، حيث يشد رحاله فورا الى فلسطين التي يدخلها في اوائل ايار ١٩٤٢ ، حسب روايته .

وبالهول الفصل التالي المعنون « نحن نكافح ... فنحن اذن نحيا » ، ففيه لا يدع شاردة ولا واردة من الالفاظ الا استخدمها في تصوير « هول ما تعرض له يهود اوروبا من مذابح وحملات ابادة على يد النازية » ، وكل ذلك ، حسب رأيه ، ومختلف الاوساط المعنية صامتة . انها معزوفة « عقدة الذنب » ، التي على الاوروبيين ان يظلوا اسراها ، ليظلوا خاضعين للابتزاز الصهيوني تكفيرا عن آثامهم . استمع اليه يقول : « ان التقارير عن حملة الابادة في اوروبا لم تكن جلية في بادىء الامر ، ونشرها كان بطيئا ... ومما لا شك فيه فان جمعيات الصليب الاحمر والممثلين الدبلوماسيين للبلدان المحايدة ، وفوق كل ذلك اهل الفكر البريطانيين ، ومن بينهم احد العملاء الذين كانوا يعملون في المانيا واسمه J.H.Q. ، مما لا شك فيه انهم كلهم كانوا على اطلاع بالمدى الذي وصله **هتلر** في ترحيل يهود هولندا و ... مع هذا مكثوا صامتين » .

ثم يطلق لنفسه العنان في وصف الابادة الجماعية التي تعرض لها اليهود ناعتا السياسات الاوروبية بالنفاق ، وخاصة السياسة البريطانية التي لم تبذل الجهد الكافي لانقاذ اليهود من محنتهم حسب رأيه . عجبا ! اذن من اصدر **وعد بلفور** ؟ ومن عين **هربرت صموئيل** ، الصهيوني ، اول مندوب سام لفلسطين ؟ ومن هيأ كل الظروف للمساعدة على الوصول الى ما وصلت اليه خطط الصهيونية لبناء دولتها في فلسطين ؟ ان مرة او اخرى تحاول فيها السلطات البريطانية التظاهر بتقنين الهجرة اليهودية الى فلسطين تصبح فيها بريطانيا جديرة بوصف المستعمر الظالم ، للشعب

Digitized by Birzeit University Library

اليهودي » ، والذي يحول دون انقـــاذ اليهود من براثن النازية ·

وكيف يكون عـــلاج الامر بالنسبـــة لسفينة محملـة باليهود المهـاجرين الى فلسطين بصفة غير شرعية مثلا ؟ العلاج في نظر **بيفن** هو نسف هذه السفينة بمن عليها ··· لتتحمل بريطانيا مسؤوليـــة ذلك !! ثم البكاء والنحيب على الارواح التي كانت تهفو توقا وشوقا الى « ارض الوطن » !!

وفي فصل بعنوان « الاستراتيجيـــة اليهودية » يأتي كلامه صراخا صـــادرا عن رد الفعل للاتهام الذي توقعه مـــن قارىء ملاحم الابادة ، فيستهله بقوله : « انه لخطأ فاضح ان تستنتج ، مما قلته في الفصل السابق ، ان مصدر قوة الثوار وعملهم كانت عواطفهم ··· والافتراض ان الثورة لم تكن الا مغامرة بطوليـــة لشعب يائس ، حيث ، بالصدفة ، لم تنته بفشل او كارثة كان اكثر من خطأ ·· انه حماقة · على اية حال كان هـــذا هو احتمـال **اللورد صموئيل** ، حيث كان في وقت من الاوقات الحـــاكم المفوض في فلسطين · ثم يستطرد في التعليق عـلى نقاش بين **صموئيل** وزملائـــه اللوردات جرى في **مجلس اللوردات** البريطـــاني عام ١٩٤٦ بالنفي تارة دون ذكر البديل الحقيقي ، واختلاق وقائع تارة اخـرى واعتبارها مسلمات .

ومن فصل « الاستراتيجية اليهودية » الى فصـــل « العمـــل السري » ، الذي يتوقف فيه طويلا عند كلمة « المخربين » وكلمة « الارهابيين » ، ويأخذ ـ لنفي هذه الصفة عن جنوده واعمالهم ـ في البحث في اصل الكلمة اللاتينية Terror ، وان معناها الاصلي « الخوف » ، وكيف اصبحت متداولة حسب قولـه كمصطلح فني ، خـلال الثورة الفرنسية ، بمعنى رعب · كل ذلك ليصل الى التفرقة بيـن اطلاقها على الثـــورة كمـــا في فر وروسيا وبين اطلاقها على ما اسس « حرب التحرير الثورية » ، وهو م يكون جائزا في نظره ·

وفي فصل «النظام الداخلي» يتطرق مسألة حمل السلاح للدفاع عن الذات حالة الشخص المطلوب من السلطة او اجهزة اخرى، فيبدو لي هذه المرة ـ و مرة ـ مقنعا · ربما كان ذلك لانـ محنك في الارهاب ، والتخفي ، و الامن ، والاستطلاع ، اكثر منه رجل او نظريـــة · يقول : « ان حمل الس الدائم يؤذي اكثر مما يفيد ، لان الر المسلح مقدر له في اية لحظة ان يح بقوة متفوقة من البوليس · وهـذا ب مسدس واحـــد ضد عدة اسلحـ اوتوماتيكيـــة · وفي هـــذه الحال سلاحه لا يؤمن حياته ، ولكنه يعرضه للخطر » ·

وفي هذا الفصـــل يبرع في التف لخطط التسلح وانواع الهجوم المختلف والاختطاف ، والاخفـــاء ، والتخف وانتحال الشخصيات وما الى ذلك اعمال التفجير ، والمفاجأة ، وما يل لصاحبة ذلك كله من دعاية ، على اس نفسية علمية ·

اما في فصل « الحرب الاليـــ مستحيلـة » فيتحـــدث عن الخـلا والصراعات بين منظمته وبين من اسما « القادة التقليديين » على رأس كل م **الهاغاناه والوكالة اليهوديـــة** · وك واضحا ، في حديثه هـــذا ، مدى نفو للامور . وخوضه في التفاصيل ، لي الى اقناع الاخـــرين بأن البريطانيين يبيتون لهم نوايا حسنة ، وليس لديه عزم صادق على حل القضية · وهل تك نوايا البريطانيين حسنة في نظر بيفن الا اذا تركوه يسرق كل اسلحة معسكرا الجيش البريطاني ؟ وهل يكون عزمه

Digitized by Birzeit University Library

صادقا على حل القضية الا باعلانهم ، فورا عن الاعتراف بكامل سيادة واستقلال (اسرائيل) ، وربما لا تتم الامور الا باعلان **بيغن** بطلا قوميا . بما يجعل له الاحقية في الزعامة والرئاسة ؟

الى اي مدى يبلغ الشطط الفردي برجل كهذا ؟ ألم تكن الاوساط الصهيونية الاخرى ذات تاثير ، في نظره ، على بريطانيا وامريكا ، وبأي مقياس ترى كان يقيس دهاقنة تلك الحركة في ذلك الحين ·· من **وايزمن** الى **بن غوريون** الى **شاريت** ··· وغيرهم كثيرين ؟·

وفي حكاية « الالتلينا » يجار بالشكوى من « الظلم الذي حاق به وبمنظمته » بسبب استيلاء **الهاغاناه** على محتويات السفينة من الاسلحة ، ويندب ضحايا اطلاق النار على السفينة التي خططت منظمته لجلبها من اوروبا محملة

والحقيقة ان القارىء لهذا الكتاب روايته ، او من ناحية طريقة تفكير وتعامل من اجل قضية واحدة ·

رجالنا مضطربن للقتال من بيت لبيت ، القادمة ، ومستقبل الضفة والقطاع في العقلية الصهيونية ـ مهما تعددت داخلها ملحقا عن « الانتخابات الاسرائيلية » ، الصهاينة بالتشهير به وبمنظمته بعد تنفيذ يعترف ، بطريق غير مباشر ، بتعمدهم وجهات النظر ـ مع القضايا ··· بل **مشروع بيغن** ·

ويتطرق ، في نفس الفصل ، الى يستجيبوا لمكبر الصوت الذي دعاهم لم يذعنوا للانذار خسارة كبيرة في لمغادرة البلدة الى مكان مجاور ، اي انه ولكنه يحاول تبرير ضخامة عدد الضحايا على الامنين بداخلها ·

ويتبجح بالقول : « لقد قصد بهذه الدعاية تلويث سمعتنا ، ولكنها كانت خير عون لنا ، فلقد دب الذعر والهلع في قلوب عرب ارض (اسرائيل) » · وعدد بعض القرى التي اخليت على اثر ذلك ·

وبعد ··· فهناك الكثير من الفصول التي لا يتسع المجال للتحدث عما جاء بها ، ومن اهمها تلك التي تكشف عن ولعه بالتدمير ، والاستغراق في وصف تفوق رجاله في ذلك ، متوهما انه بهذا يستطيع الصراخ في وجه العالم ، بالتهديد والانتقام والتأديب ··· وان اليهود قادرون على ذلك ·

ومن تلك الفصول الهامة : فندق الملك داود ، الجلد بالسياط ، حكم المشانق ، وغزو يافا ·

اهم ما جاء فيه :

هذا وقد اضاف المترجم للكتاب خطة عمل حكومة **بيغن** للسنوات الاربع بالنسبة لنقطة هي هامة وملحة اليوم ·· من القنابل اليدوية فتكبد المواطنون الذين بالمتطوعين والاسلحة ·

سواء من حيث التاريخ ومدى صحة الا وهي علاقات القوى المتعددة التي تعمل لا يستطيع المرور دون التوقف عند كثير من النقاط والقضايا الهامة التي تضمنها، اي انهم قاموا بقذف القنابل داخل البيوت العملية رغم موافقتهم المسبقة عليها ، هزيمة العدو ، فقد استعملنا عددا كبيرا **مذبحة دير ياسين** ، حيث يتهم اندادة من المدنيين العرب بالقرية ، بأنهم لم ابادة المدنيين ، حيث يقول : « ومن اجل الارواح » · وقد سبق بقوله « وكان **طلعت موسى**

Digitized by Birzeit University Library

عبد القـــادر ياسين . حزب شيوعي ظهره الى الحائط .

بيروت ، دار ابن خلدون ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ .

الكتاب من الحجم الصغير ، يقع في (٨٦) صفحة ، تتناول بالنقد والتحليل « الوقائع الخاصة بالحركة الشيوعية في قطاع غزة منذ نكبة ١٩٤٨ وحتى نكسة ١٩٦٧ » .

وكتاب **عبد القادر ياسين** هو الثاني الذي يتنـاول تجربة « الحزب الشيوعي بقطـاع غزة » . فقبل صدوره بشهور قليلة كان قد صدر عن **دار الفـارابي** اللبنانية كتاب **معين بسيسو** (دفـاتر فلسطينية) ، الامر الذي يعكس الاهتمام المتزايد بهذه التجربة المجهولة من تاريخ فلسطين المعاصر .

واذا كانت « دفـاتر » **معين بسيسو** التي تقع في (١٥٠) صفحة من الحجم الكبير ، قد قدمت لنا تجربة هذا الحزب من خلال مذكرات تدهش القارىء بلغتها الشعرية الجميلة والمؤثرة ... التي تطرح تجربة حزب من خـلال سيرة ذاتيـة لاحد قادته ، هو المؤلـف نفسه ، فان « **حزب شيوعي ظهـره الى الحـائط** » هو « دراسة اقرب الى الشهادة التاريخية منها الى البحث الاكاديمي » ، كما يقول المؤلف ، تهدف ، بالاضافة الى السـرد التحليلي ، تقديم « الدروس المستفـادة من هذه التجربة العريضة الغنيـة » ، ووضعها بين ايدي الثوار والمناضلين . ولم يكن من باب الصدفة ، على ما يبدو ، صدور هذا المؤلف ضمن اطار سلسلة « دليل المناضل ـ تجارب حزبية » .

وعلينـــا ان نقر ، في البدايـة ، بالصعوبات التي تواجه الذين يبحثون في تاريخ نضال الشعب الفلسطيني في قطاع غزة . هذا النضال الذي شـكل الشيوعيون فيه القوة المحركة ، خاصة في مرحلة التصدي الباسل لمشاريـع اسكان وتوطين اللاجئين المشبوهة ، في شبه جزيرة سيناء عام ١٩٥٥ .

هذه الصعوبات الناجمة عن عدم توفر الوثائق الخاصة بالحركة الشيوعيـة الفلسطينية في قطاع غزة ، منذ « **عصبة التحرر الوطني في فلسطين ـ قطاع غزة** » وانتهاء بـ « **الحزب الشيوعي الفلسطيني بقطاع غزة** » . فكما يقول **عبد القـادر ياسين** « الوثائق غير متاحـة ، بسبب الضربات المتوالية التي وجهتها اجهزة الامن المصرية ضد العصبة والحزب معا، ومصادرتها هذه الوثائق ، من برامج رنظم داخلية ، وبيانات ، ومطبوعـات شتى » .

Digitized by Birzeit University Library

ومن هنا تتضاعف اهمية « **دفاتر فلسطينية** » و « **حزب شيوعي ظهره الى الحائط** » ، باعتبارهما اول كتابين عن هذه التجربة الغنية ، اعتمد فيهما المؤلفان على ذاكرتهما الخاصة من خلال تجربتهما النضالية في هذه الحركة ومعايشتهما لها · ولعل في هذا ما يفسر قول **عبد القادر ياسين** في مقدمة كتابه « ··· وكتابتي هنا هي اداء واجب ، قبل اي شيء اخر » ·

■

يقسم المؤلف المراحل التي مر بها النشاط الشيوعي في قطاع غزة بعد النكبة الى خمس مراحل هي :

● امتداد نشاط العصبة منذ نكبة ١٩٤٨ حتى شهر اب من عام ١٩٥٢ · حين قامت اجهزة الامن في قطاع غزة بتوجيه ضربة قاصمة للشيوعيين · وهو ايضا تاريخ انتهاء نشاط العصبة في القطاع ·

● المرحلة الثانية ، وتبدأ مع تأسيس **الحزب الشيوعي الفلسطيني بقطاع غزة** ، في شتاء عام ١٩٥٣ ، وحتى اذار ١٩٥٥ حين وجهت اجهزة الامن المصرية ضربة جديدة للشيوعيين ، غداة وثبة اذار ١٩٥٥ ·

● اما المرحلة الثالثة فتمتد من وثبة اذار ١٩٥٥ وحتى صيف ١٩٥٧ ·· تاريخ بدء الانشقاقات داخل الحزب ·

● وتمتد المرحلة الرابعة منذئذ وحتى اواخر ١٩٦٠ ، تاريخ انهاء الانشقاقات ·

● اما المرحلة الخامسة فتمتد من مطلع ١٩٦١ وحتى وقوع نكسة حزيران ١٩٦٧ ·

وقد خصص الكاتب فصلا لكل مرحلة من هذه المراحل ، لينهي الكتاب بفصل سادس عن الاستنتاجات والدروس المستفادة من هذه التجربة · « فاستقراء التاريخ لا يتم للذكرى ، بل هو سلاح في ايدي الثوار ، وركن هام من اركان التربية السياسية » ·

في الفصل الاول يعرض **ياسين** وقائع نضال الشيوعيين في قطاع غزة ، منذ النكبة وحتى تأسيس الحزب ·· ويفضح، بكل حزم ، طبيعة الانظمة العربية التي كانت قائمة في المرحلة ، وبشكل خاص في « دول الطوق » ··· تلك الانظمة التي تكن من العداء للجماهير وقواها التقدمية اضعاف اضعاف ما تكنه من عداء للصهاينة ··· هذا اذا افترضنا اصلا انها معادية للصهيونية !

« كانهم يشنون حربهم ضد الشيوعية وكأن جيوشهم زحفت الى فلسطين لتجتث الشيوعيين ، وليس الصهيونيين ·

« فهذا **عبد الله** ، امير شرق الاردن يعلنها ، في الاذاعة ، حربا على الشيوعية ، دون ان يذكر الاستعمار والصهيونية بكلمة واحدة · وهذا **فاروق**، ملك مصر ، يوجه ضربة شاملة ضد كل المنظمات الشيوعية المصرية · وذلك عشية دخول الجيوش العربية فلسطين·· وهذا النظام الهاشمي في العراق يشنق على دقات طبول الحرب التي اعلنها في فلسطين ، قادة **الحزب الشيوعي** العراقي ··· » ·

هذا هو الدرس الاول الذي يفتتح به **عبد القادر ياسين كتابه** ، بشكل واضح ، لا لبس فيه :

ان اعداء الانظمة الرجعية للجماهير واحزابها وقواها التقدمية المنظمة اكبر بكثير من عدائها للعدو الوطني··· ولطالما غلبت تلك الانظمة تناقضاتها مع الجماهير على حساب تناقضاتها مع العدو

Digitized by Birzeit University Library

القومي ، الذي يتربص بالوطن .

ويبدو ان **ياسين** اراد ان يؤكد ، دون ان يقول ذلك ، بان مقدمات النكبة كانت بضرب الشيوعيين والتقدميين والوطنيين، وحين ارتدت جيوش انظمة النكبة ، ارتدت لتعود وتضرب من جديد القوى التقدمية الاكثر صلابة وعنادا في مواجهة العدو القومي .

اليس **حسين** هو الذي سحب قواته عن خطوط المواجهة مع دولة الاحتلال الصهيوني ، ليقوم بتوجيه ضربة قاضية للوجود العلني للثورة الفلسطينية في شرق الاردن ، في الوقت الذي انسحبت فيه قواته امام العدو الصهيوني عام ١٩٦٧ ، ليقع ما تبقى من فلسطين الذي سبق وان ضمه والحقه بمملكته ، لقمة سائغة في يد العدو .. ودو نفسه ، ايضا الذي رفض ان يشارك في حرب تشرين !!

■

اذا كان التعامل مع الواقع بهدف تغييره ، هو فن ، على الشيوعيين ان يجيدوه ، فان الاستسلام للواقع هو فن ايضا ، لكنه فن البرجوازية الصغيرة واحزابها .

في الفصل الثاني ، يعرض **عبد القادر ياسين** قصة تأسيس « **الحزب الشيوعي بقطاع غزة** » ، وياتي ، مرورا ، وبصورة متعجلة ، على قضية في غاية الخطورة والاهمية .. تلك هي قضية اسم هذا الحزب . فمن المعروف ان الشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة كانوا يشكلون جزءا من « **عصبة التحرر الوطني** » . وفي اعقاب قيام دولة الاحتلال الصهيوني، ووضع قطاع غزه تحت الادارة المصرية وانقطاع العلاقة مع **العصبة** ، التي حلت نفسها ، عمليا ، كان على الشيوعيين الفلسطينيين في القطاع ان يختاروا بين احد الامرين :

ـ اما العمل والنضال من خلال الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني « **حدتو** » حزب الطبقة العاملة المصرية آنذاك ...

ـ واما النضال من اجل تاسيس حزب شيوعي فلسطيني مستقل في قطاع غزه .. وقد اختار الشيوعيون في غزه الخيار الثاني ... وهنا برزت مشكلة اختيار اسم هذا الحزب الجديد . وبهذا الخصوص يقول **عبد القادر ياسين** في كتابه : « ... ويثور هنا سؤال ، له ما يبرره ، وهو : لماذا لم يتسموا باسم **الحزب الشيوعي الفلسطيني** ؟ دون ان يمنع هذا من ان يضيفوا « قطاع غزة » الى اسم الحزب .

« والواقع ان اوضاع الشيوعيين الفلسطينيين كانت ـ آنذاك ـ بالغة التعقيد . فالجزء الاكبر منهم تواجد في الضفة الغربية ، حيث تشكل « الحزب **الشيوعي الاردني** » من اعضاء **العصبة** المتواجدين في الضفتين الغربية والشرقية للاردن ، اضافة الى اعضاء الحلقات الماركسية الاردنية ، وتم تشكيل الحزب في ايار (مايو) ١٩٥١ .

« وبقي قسم صغير من الشيوعيين الفلسطينيين في الاراضي التي احتلتها اسرائيل من فلسطين . ما لبثوا ان شكلوا مع « **الحزب الشيوعي الفلسطيني** * » و « **الحزب الشيوعي الاسرائيلي** » .

* كانت عضويته ، منذ خريف ١٩٤٣ وقفا على الشيوعيين اليهود . بعد خروج الاعضاء العرب من الحزب ، وتشكيلهم حزبهم القومي المستقل : « **عصبة التحرر الوطني** » (الاشارة للمؤلف) .

Digitized by Birzeit University Library

وتوهم مؤسسو الحزب في قطاع غزة ، ان اضفاء صفة « الفلسطيني » على الحزب مصادرة لحقوق بقية الشيوعيين الفلسطينيين » ·

والواقع ان هذه القضية كانت اكبر من مجرد « توهم » ، واكبر ايضا من خشية « مصادرة حقوق بقية الشيوعيين الفلسطينيين » · لا نعرف هنا لماذا اكتفى **عبد القادر ياسين** بالمرور على هذه القضية بشكل عابر ، وبهذه العجالة · بحيث ضاع منه ان يلتقط القضية المركزية في هذا الموضوع ، وان يعالجها بصورة اكثر عمقا · لكن على الرغم من ذلك فان اضاءة **ياسين** ، هنا على الرغم من محدوديتها ، فانها تنبه القارىء وتدفعه للتفكير فيها ، في حين اكتفى **معين بسيسو** بمجرد « جملة شعرية » لا تعني الشيء الكثير على الرغم مما فيها من مدلولات ·

يقول **بسيسو** « ··· فمن يدي هاتين السنباتين ومن يدي تألقت في غزة اول خلية شيوعية ، بعد ان تحولت **عصبة التحرر الوطني** في فلسطين **الى (الحزب الشيوعي الاردني)** بعد الحاق الضفة الغربية بالاردن ، وتحول اجمل واشجع الشيوعيين الفلسطينيين الى شيوعيين اردنيين :

ـ فؤاد نصار ، عبد العزيز العطي ، فائق وراد ، واخرون · وهكذا كان علينا في قطاع غزة المحاصر بين الماء والاسلاك الشائكة ، ان نكون شيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة ·

« مسألة التحول من حزب شيوعي فلسطيني (عصبة التحرر الوطني) الى (الحزب الشيوعي الاردني) اتركها الان وانا في زنزانة في السجن الحربي ـ الطابق الثاني والاخير » ·

·· وهكذا أثر **بسيسو** ان يترك هذه القضية البالغة الخطورة جانبا ، على الرغم من توسعه لدرجة الاستعاضة في قضايا اخرى عديدة ، نعتقد انها هامشية للغاية ، اذا ما قورنت بهذه القضية ·

ان الطابع الخاص للاحتلال الصهيوني الذي يقوم على الاستيطان ، وطمس وتذويب الشخصية الوطنية الفلسطينية ، كان يتطلب من التقدميين والوطنيين الفلسطينيين ، وفي طليعتهم الشيوعيين، التمسك بالشخصية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني · ذلك ان التخلي عن الهوية الفلسطينية يصب ، عمليا ، في تلك المرحلة وفي جميع المراحل ، بوعي او بدون وعي ، في مخطط الحركة الصهيونية ، وفي صلب المشروع الصهيوني ·

ان الوطنية الفلسطينية هي النقيض النضالي « للوطنية الاسرائيلية » المزعومة ، ولهذا كان الحفاظ على الشخصية الوطنية الفلسطينية عملية نضالية كبرى · فما الذي فعله الشيوعيون من ابناء فلسطين في تلك الفترة العصيبة ·

باختصار لقد استسلموا ، بوعي او بدون وعي ، للواقع الجديد ··· واقع تشتيت الشعب الفلسطيني ، ومحاولة تذويبه وطمس شخصيته الوطنية المستقلة في البلاد المجاورة التي هجر اليها · فها هم في الاردن لحقوا **بمؤتمر اريحا** ، السيء السمعة والصيت ، والذي زور ارادة الشعب الفلسطيني ، واعلن « بالاجماع » ضم جزء من فلسطين لشرق الاردن ··· لحقوا به ليعلنوا تشكيل **الحزب الشيوعي الاردني** · (لاحظ الاردني ، وليس في الاردن) ،كحد أدنى ، وفي دولة الاحتلال ، الصهيوني ما لبثوا أن شكلوا « **الحزب الشيوعي**

Digitized by Birzeit University Library

الاسرائيلي »وايضا ليس في « اسرائيل »، كحد أدنى ·

السؤال اذن ، هل كان على الشيوعيين الفلسطينيين ان يحتفظوا بحزبهم الشيوعي الفلسطيني المستقل ؟ ·

اعتقد ان الجواب يجب ان يكون : نعم · نعم ، كان عليهم ان يغيروا اسم حزبهم من « **عصبة التحرر الوطني** » الى « **الحزب الشيوعي الفلسطيني** ، نعم ، كان عليهم ان يفعلوا ذلك رغم كل المبررات التي يمكن ان تساق هنا لتأكيد صحة وجهة النظر التي سادت في تلك المرحلة ··· لانه، باختصار، كان على الشيوعيين الفلسطينيين ان لا يستسلموا لواقع التهجير والتشتيت ، وكان عليهم ان يكونوا في طليعة المحافظين على « الوطنية » الفلسطينية ··· على الهوية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني ، النقيض الكامل للهوية « الوطنية الاسرائيلية » المزعومة ·

ان الحفاظ على الهوية الفلسطينية ، في عصر الاحتلال الاستيطاني الصهيوني القائم على الغاء هذه الهوية ، والذي يستمد مبرر وجوده واستمراره من عملية الالغاء هذه ، كان شأنا شيوعيا حقيقيا· تماما كما ان التعامل مع الواقع الجديد كان شأنا شيوعيا ··· التعامل مع الواقع من اجل تغييره ، وليس الاستسلام له ·

نثير هذه القضية بهذه الحدة ، هنا ، لانه لا يزال هناك من يفكر بعقلية حزب شيوعي في غزة ، وحزب شيوعي اردني في جزء من فلسطين المحتلة ، وحزب شيوعي « اسرائيلي » في الجزء الاخر المحتل ··· الخ ، والمطلوب هو « حزب شيوعي فلسطيني » بالخط العريض ، وبالفم المفتوح على وسعه ·

وفي غزة ايضا نتابع ، مع **عبد القادر ياسين** قراءة النضالات البطولية للشيوعيين الفلسطينيين هناك ·

وفي كل صفحة من صفحات كتاب كان **ياسين** يؤكد على الدور الخاص للشيوعيين في مواجهة المؤامرات التي تستهدف الشعب الفلسطيني ، وقضيته الوطنية · ونعيش النضالات المشرفة للشعب الفلسطيني بقيادة حزبهم الشيوعي في مواجهة مشاريع التوطين في غزة « **مشروع سيناء** » · وكيف تمكن الشيوعيون ، ومن ورائهم كل الشعب الفلسطيني ، من قبر هذا المشروع ودفنه الى الابد ·

وعبد القادر ياسين ، وهو يؤرخ لنضالات الحزب الشيوعي في قطاع غزة، يفعل ذلكبضمير شيوعي ··· يسجل ما للحزب وما عليه · بالوقائع والتواريخ ، والاسماء ، يسجل ذلك بروح نقدية صافية ·

وعلى الرغم من ان مؤلف الكتاب اعتمد على تجربته الخاصة ، وعلى معايشته للاحداث ومشاركته في صناعتها، الا اننا ، وبكل موضوعية ، نسجل له ابتعاده عن الـ « انا » والذاتية ، التي وقع فيها **معين بسيسو** في « **دفاتر فلسطينية** » ·

ولعل اهم فصول كتاب **عبد القادر ياسين** ، الفصل الاخير ، الذي هو عبارة عن مجموعة من الملاحظات النقدية ، سجلها تحت عنوان « خبرات » ·

في هذا الفصل خلاصة نقدية لتجربة الحزب ، سجل فيها دور الحزب ونضالاته وما تمكن من انجازه ، في في نفس الوقت الذي سجل مجموعة من الملاحظات النقدية ، وفي مجال القصور السياسي والفكري ·

والحق يقال هنا ، ان كل ملاحظة نقدية ، سلبية ، او ايجابية ، كان يمكن

Digitized by Birzeit University Library

ان يعقد لها فصلا خاصا · لكن **عبد القادر ياسين** ، كما يبدو ، آثر ان يكون كتابه مختصرا الى الحد الاقصى · بحيث لا يثقل على القارىء العادي ، وبحيث يصل الى اكبر عدد ممكن من القراء ·· كحد ادنى ·

ولعل اللغة الصحافية البسيطة السهلة ، التي اعتمدت اسلوب السرد الروائي المباشر ، هي ايضا ، عامل مهم ، في تمكين هذا الكتاب من الوصول الى قاعدة عريضة من القراء الوطنيين والتقدميين، لاغناء تجربتهم النضالية ، بالاطلاع على تجربة حزب شيوعي صغير ، لكنه غني بنضالاته ·

والكتاب مزدحم بالاسماء العديدة ·· بعضها كاملة ، وبعضها الاخر بالحروف الاولى ، والكتاب من هذه الزاوية يقدم لنا الخلفيات السياسية والفكرية للعديد من الشخصيات السياسية الفلسطينية المعاصرة ، التي كنا نجهل ماضيها وتاريخها السياسي ·

ملاحظة اخيرة : كان يمكن **لعبد القادر ياسين** ان يتوسع ، كثيرا ، في شرح وتفصيل الوقائع ، والتعليق عليها واستخلاص العبر والدروس المستفادة ، ولا نعرف سر اصراره على الاختصار ، بهذه الصورة ·· بحيث انه كان يكتفي ، في الكثير من الاحيان بالعناوين فقط ··· ونعتقد انه لا يزال هناك الشيء الكثير ليقوله في تجربة **الحزب الشيوعي بقطاع غزة**·· والى ان يفعل ذلك، فلننتظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ، عن مرحلة ما بعد الهزيمة ·· هكذا ، على الاقل ما وعدنا به الاخ المناضل **عبد القادر ياسين** ·

ميشيل النمري

Digitized by Birzeit University Library

مجلة الكاتب الفلسطيني

وجميع الكتب الصادرة عن الاتحاد العام
للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تطلب من موزعها في لبنان :

دار الكاتب ـ بيروت

بيروت ـ خندق الغميق ـ شارع الشدياق
ملك عسيران ـ تلفون ٢٩٢٨٧١

Digitized by Birzeit University Library

تقارير وبيانات

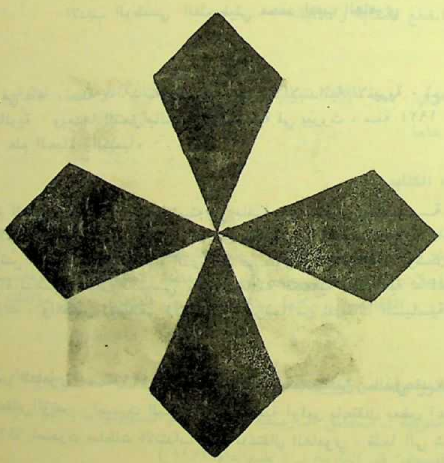

Digitized by Birzeit University Library

الفقيد محمد اديب العامري

تنعي الامانة العامة للاتحاد العام

للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

الاديب الوطنـي الفلسطيني **محمد اديب العامري** ·

● ولد في يافا ، سنة ١٩٠٧ ، وتعلم في المدرسة الابتدائية الاميرية ، ثم في مدرسة يافا الثانوية · وبعدها التحق بالجامعة الامريكية في بيروت ، سنة ١٩٢٤ ، حيث تخصص في علم الحياة والكيمياء ·

● اهتم **العامري** ، خلال فترة دراسته في يافـا ، بالشؤون الطلابيـــة ، والسياسية ، والاجتماعية واسس ، مع مجموعة من صحبه ، « **نادي الطلبة** » ، كفرع انبثق عن **مؤتمر الطلبة العربي العام** ، الذي عقد في بيروت سنة ١٩٢٥ ، وشكل اعضاء النادي نواة لدعـم العمـل السياسي ، الذي قادته **الجمعية الاسلامية ـ المسيحية بيافـا** ، آنذاك ، **والمجلس الاسلامي الاعلى** ، وغيرهما من الهيئات السياسية والاجتماعيـة

● ترأس **العامري** سنة ١٩٢٩ ، **مؤتمر الطلبة الفلسطينيين** ، الذي عقد في يافا · واثناء انعقاد المؤتمر ، اصدرت السلطات البريطانية اوامر باعتقال بعض اعضائه ·وفي مية ١٩٢٩ اصدرت سلطات الانتداب امرا باعتقال **العامري** ، فلجأ الى شرق الاردن ·

● شارك **العامري** ، خلال دراسته في بيروت ، في حركات الطلاب السياسية والاجتماعية، وكان عضوا في جمعية « **العروة الوثقى** » و « **اتحاد الطلبـــة** » ، داخل الجامعـة الامريكية وعضوا في « **النادي الفلسطيني** » ، الذي ترأسه سنة ١٩٢٧ ·

Digitized by Birzeit University Library

- شغل **العامري** ، خلال حياته ، عدة مناصب · فعين ، في فترة الانتداب البريطاني ، مساعدا لدار الاذاعة الفلسطينية في القدس ، وبعد النكبة ، عين مديرا للاذاعة الاردنية ، وممثلا للاردن في لجنة الهدنة الدولية ، وفي ١٩٥٠ صار سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية الاردنية ، وبعد نكسة ١٩٦٧ ، اصبح **العامري** وزيرا للخارجية ، ورئيس وفد الاردن الى دورة الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة ، ثم عين سفيرا للاردن في مصر · الى ان استقال من العمل الوزاري والحكومي سنة ١٩٦٩ ، وانقطع للكتابة والتأليف ·

- انتخب **العامري** ، سنة ١٩٧٦ ، رئيسا لرابطة الكتاب الاردنيين ، وتوفي عن عمر يناهز ٧٢ عاما ·

- **من آثاره الكتابية :**

بدأ العامري النشر في الصحف ، وهو في سن السابعة عشر ، فكتب في صحف فلسطين مثل « **الصراط المستقيم** » ، « **الجامعة العربية** » ومجلة « **الفجر** » · كما كتب في المجلات العربية الكبرى مثل « **السياسة الاسبوعية** » ، « **الرسالة** » ، « **المقتطف** » ، « **الثقافة** » ، وكلها مجلات تصدر في القاهرة · ومن مؤلفاته :

- **شعاع النور وقصص اخرى** (مجموعة قصص موضوعة ومترجمة) طبع عام ١٩٥٣
- **القدس العربية** ـ الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية ـ (طبع عام ١٩٧١)
- **عروبة فلسطين في التاريخ** ـ (طبع عام ١٩٧٢) ·

- وافته المنية ، في براغ ، في ١٥ـ١٢ـ١٩٧٨ ·

- منعت السلطات الاردنية اقامة « اربعين » للفقيد في عمان ·

Digitized by Birzeit University Library

الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تنعي الشهيد علي حسن سلامة

على الطريق الذي سار عليه القادة الشهداء ، ابو علي اياد وابو يوسف النجار وكمال عدوان ، سار امس مناضل آخر من فتح « الشهيد علي حسن سلامة ـ ابو حسن » وكوكبة اخرى من زملائه ، ليكتبوا ، بدمهم ، من جديد ، عهد الوفاء لفلسطين ، والاصرار على حمل راية الثورة حتى ترتفع فوق ربوع الوطن الفلسطيني الحبيب .

واذا كان العدو الصهيوني قد استطاع ان يرتكب هذه الجريمة الغادرة ، فيفقد شعبنا واحدا من ابرز مناضليه ، فان قدرة هذا الشعب على العطاء لا حدود لها . وسيواصل رفاق ابوحسن مسيرته النضالية حتى النصر .

ان الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وهي تنعي لكل كتاب وصحفي ومثقفي الوطن العربي والعالم ، واحدا من ابرز مناضلي القضية الفلسطينية ، تتقدم بأحر تعازيها لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ولجميع فصائل المقاومة ، ولشعبنا الفلسطيني العظيم ، معاهدة الشهيد وكل الشهداء على ان يظل كتاب فلسطين وصحفيوها اوفياء للرسالة التي من اجلها ضحى الشهداء ولاجلها نذر انفسهم كل المناضلين ، رسالة الثورة حتى النصر .

المجد للشهداء

وعاشت فلسطين عربية حرة ،

الامانة العامة للاتحاد العام

للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

بيروت في ١٩٧٩/١/٢٣

Digitized by Birzeit University Library

خبر صحفي

سكرتير المنظمة العالمية للصحفيين
يزور اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

وصل الى بيروت السيد **اورليان نستور** ، سكرتير عام المنظمة العالمية للصحفيين للشؤون المهنية ، في زيارة للأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، تستغرق اسبوعا ، لمناقشة تطوير علاقات التعاون بين الاتحاد الفلسطيني والمنظمة العالمية للصحفيين ·

وقد التقى فور وصوله بوفد من الاتحاد ضم حنا مقبل ، امين السر ، وبسام ابو شريف ، مسؤول العلاقات الخارجية ، ورشاد ابو شاور ، مسؤول العلاقات الثقافية ، ويحيى يخلف ، مسؤول العلاقات الداخلية ، وعبد القادر ياسين ، وغانم زريقات ، حيث عقدت جلسة عمل اولية ·

وسيقوم سكرتير المنظمة العالمية خلال وجوده في لبنان بزيارة للمخيمات الفلسطينية ولقواعد ومؤسسات الثورة ·

بيروت في ٣١-١-١٩٧٩

Digitized by Birzeit University Library

اخبـــار صحفيـــة

غادر بيروت الرفيق **اورليان نستور** . سكرتير **المنظمة العالمية للصحفيين** للشؤون المهنية ، بعد زيارة **للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين** ، استغرقت خمسة ايام ، اجتمع خلالها مع عدد من المسؤولين الفلسطينيين ، وزار المؤسسات الاعلامية للثورة . وقد عقد اجتماع عمل حضره عن الجانب الفلسطيني الاخوة **حنا مقبل** ، امين السر ، **وبسام ابو شريف** ، مسؤول العلاقات الخارجية ، **ورشاد ابو شاور** ، مسؤول العلاقات الثقافية ، **وجميل هلال** ، مسؤول العلاقات المهنية . وقد توصل الجانبان الى خطة للمرحلة القادمة تتضمن برنامجا مفصلا للتدريب ، سيقوم وفد فلسطيني بترتيبها خلال زيارة يقوم بها لبراغ . خلال شهر اذار القادم . كما اتفق على عدد من الموضوعات الاخرى .

★★★

عقد في بيروت اجتمـــاع رباعي ، ضم كل من **الاتحاد العام للكتـــاب والصحفيين الفلسطينيين واتحاد الكتاب اللبنانيين واتحاد الكتاب العراقيين واتحاد الكتـــاب العرب في سوريا** . وقد عقد الاجتماع برئاسة الاستاذ **شفيق الكمالي** ، الامين العام **لاتحاد الادباء والكتاب العرب** . وحضره عن **الاتحاد العام للكتـــاب والصحفيين الفلسطينيين** الاخـوة **محمود درويش** ، نائب الامين العام ، **وحنا مقبل** ، امين السر ، **ورشاد ابو شاور** ، مسؤول العلاقات الثقافية ، وعن **اتحاد الكتاب اللبنـانيين** الاساتذة **احمـــد ابو سعد** ، امين عام الاتحاد ، **وحبيب صادق** ، امين السر ، **وفؤاد الخشن** ، عضو الهيئة الاداريـــة . وممثل **اتحاد الكتاب السوريين** رئيسه الاستاذ **علي عقله عرسان** ، وممثل العراق الاستاذ **شفيق الكمالي** . وقد ناقشت الاتحادات الاربعة عددا من القضايا المشتركة . وقررت ارسال وفد مشترك منها الى موسكو ، لاجراء مباحثات مع **اتحاد الكتاب السوفييت** ، حول اوضـاع **اتحاد الكتاب الافرواسيويين** ودور الاتحادات العربية في هذه المنظمة العالمية .

★★★

ناقش وفد من **الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين** مع الاستاذ **الزبير سيف الاسلام** ، الامين العام **للمركز العربي للدراسات الاعلامية** ، الموضوعـــات التي سيجري بحثها خلال اجتماع مجلس امناء المركز في دمشق ، في اول اذار القادم . وقد ضم الوفد الفلسطيني الاخوة **حنا مقبل** ، امين السر ، **ورشاد ابوشاور** ، مسؤول العلاقات الثقافية ، **وعبد القادر ياسين** ، ممثل فلسطين في المركز العربي . كما نوقشت العلاقات الثنائيـة بين الاتحاد والمركز . وتقرر ان يقيم المركز دورة تدريبية خاصـــة بالصحفيين الفلسطينيين ، خلال العام الحالي ، في دمشق ، يشترك فيها ثلاثون صحفيا .

الامـانة العامـــة
لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

Digitized by Birzeit University Library

مطبعة
هيمو برس
HEMO PRESS

Digitized by Birzeit University Library

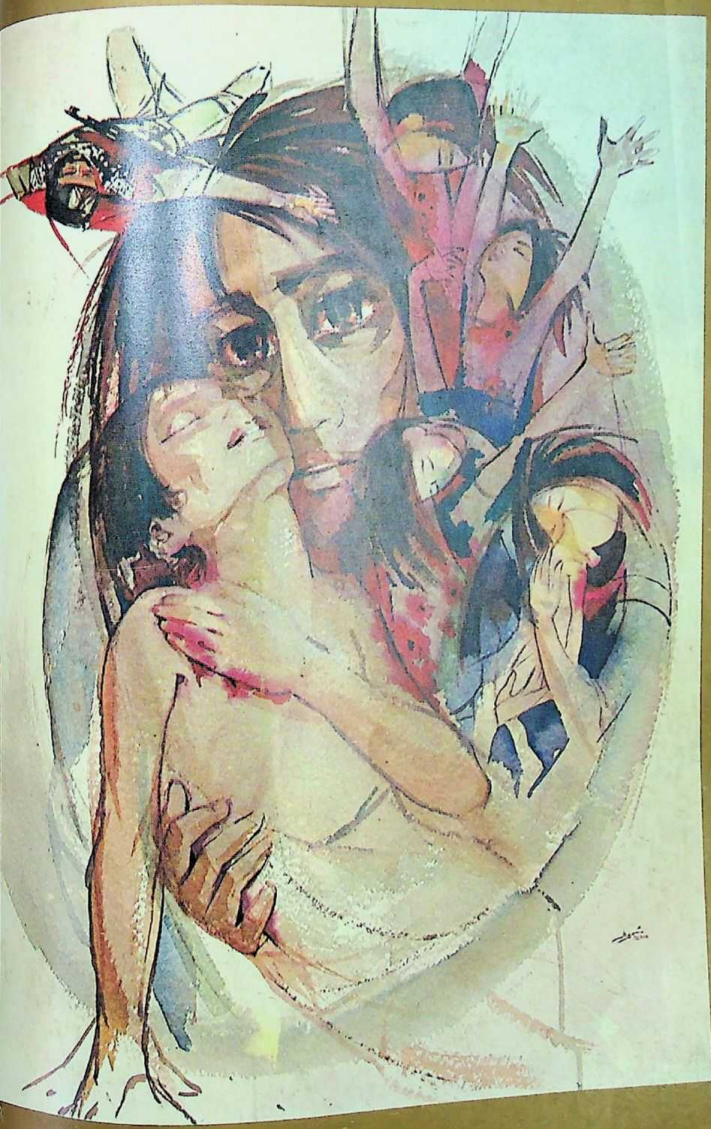

من مجموعة تل الزعتر

Digitized by Birzeit University Library